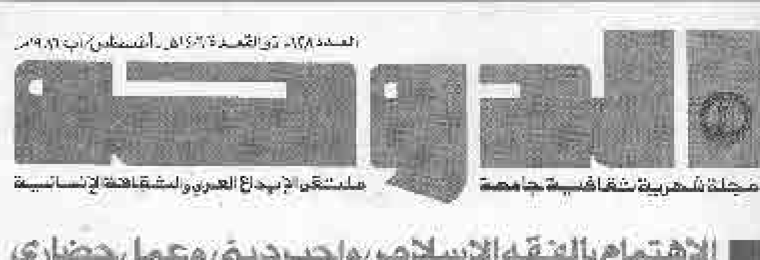
العدد ١٢٨ – ذو القعدة ١٤٠٦هـ – أغسطس/آب ١٩٨٦م



مجلة شهرية ثقافية جامعة
ملتقى الإبداع العربي والثقافة الإنسانية

الاهتمام بالفقه الإسلامي واجب ديني وعمل حضاري
عبد القادر بن محمد العماري

الديون العالمية.. أزمة في طريق الانفجار
د. محمد سليمان الدجاني

الأمير الفارس الشاعر.. عادل أرسلان
أكرم زعيتر

كيف نُغيِّر العالم؟
فتحي رضوان

القيروان.. مدينة المُجاهدين الأوائل
السيد حجازي



البهائيون

الحكم والموقف

● الجزء الأول ●

بقلم:
الدكتور محمد عبده يماني

لقد شاءت ارادة الله سبحانه وتعالى أن يهزم البهائيون ويولوا الدبر، ولكن .. يبقى سؤال هام لابد من التصدى له ، والاجابة عليه ، ألا وهو : لماذا البهائيون .. ولماذا هذا الحرص على صدور حكم في حقهم دون سائر الفئات الأخرى .. والتى تمارس شعائرها الدينية وتحتفظ بعقائدها رغم ما في ذلك من اختلاف عن الاسلام ؟

لماذا منع البهائيون من ممارسة شعائرهم وعقائدهم .. مع أننا نعرف أن هناك الملايين من المسيحيين ، والآلاف من اليهود .. وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى يمارسون شعائرهم في البلاد التي يقيمون فيها في حرية تامة .. ودون اضطهاد من أحد .

فلماذا اذن لا نعامل هؤلاء مثل أولئك ؟ ولماذا لا نعتبر البهائيين أصحاب عقيدة مثل هؤلاء ؟ .

وللاجابة على هذه الأسئلة ، فانني في هذه المقالات سوف أتصدى للاجابة على هذه التساؤلات ان شاء الله .. في موضوعية ومنطق ، وعلى أسس سليمة دون انفعال أو افتعال .

ولعله من المهم أن نقرر من البداية ان البهائية ليست دينا ، ولكنها عقيدة باطلة ، اعتمدت على تشويه العقيدة الاسلامية . وهى عبارة عن ردة عن الدين الاسلامي وليست اعتناقا لدين جديد ؛ وهى في دعوتها بل في ادعاءاتها أمر يتعارض مع الفطرة الانسانية التى فطر الله الناس عليها .

وأول تعارض مع الفطرة هو على سبيل المثال ما يأتي :

(١) ادعاؤهم بأن روح الله عز وجل قد حلت في الباب ثم في البهاء من بعده .. وبالتالى ادعاؤهما الألوهية كذبا وافتراء على الله عز وجل ..

(٢) انكارهم أن سيدنا محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) رسول الله وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين .. وادعاؤهم بأنه خاتم الأنبياء فقط وليس خاتم المرسلين .. ومن ثم يدخلون على الناس من هذا المدخل وبأن لكل زمان رسول يبعثه الله الى أهل زمانه ، أى أن ارسال الرسل مستمر الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. ويحتجون بالحديث الشريف .. (ان الله سيبعث على رأس كل مائة عام من يجدد هذا الدين) .. الحديث ..

والمقصود من الحديث الشريف أن الله سبحانه وتعالى سيبعث كل مائة عام أحد كبار رجال العلم أو يوفق طائفة من رجال الدين لتجديد هذا الدين أي للدفاع عنه وترسيخ عقيدته ومبادئه وتفسير آياته وأحاديث الرسول المصطفى الهادي البشير صلوات الله وسلامه عليه ومطالبة الناس بالتمسك بالعقيدة الاسلامية التى أنزلها الله عز وجل على سيدنا محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين . وليس كما يؤول هؤلاء البهائيون الحديث ويقولون ان المقصود به هو ظهور رسول جديد بدين جديد كل مائة عام ثم يناقضون كلامهم بعد ذلك فيقول البهاء في كتابه الأقدس الذى يدعى أنه منزل عليه من السماء وأنه ناسخ للقرآن الكريم يقول : (من يدعى أمرا قبل اتمام ألف سنة كاملة انه كذاب مفتر نسأل الله بأن يؤيده على الرجوع ان تاب انه هو التواب ، وان أصر على ما قال يبعث عليه من لا يرحمه انه شديد العقاب ، من يؤول هذه الآية أو يفسرها بغير ما نزل في الظاهر انه محروم من روح الله ورحمته التى سبقت العالمين) .

(٣) انكار البابيين والبهائيين ليوم البعث واعتبارهم أن يوم القيامة هو يوم ظهور من يظهره الله وهو الباب ثم البهاء (على حد قولهم) .

(٤) اعتمادهم التدريجي على زرع فكرة التناسخ والحلول بصورة تجعل من السهل التدرج بأفكار الناس لاقناعهم بأن البهاء رسول من عند الله . .

ثم يستمرون في الادعاءات الى أن يصلوا الى الادعاء بأن روح الله عز وجل قد تجسدت فيه وأنه اذا تكلم فهو يتكلم بلسان الله سبحانه وتعالى . . حتى أن حسين على البهاء كان عندما يسير في الشوارع والطرقات يضع برقعا على وجهه وعندما سئل ابنه عباس الأفندى (عبد البهاء) عن ذلك قال لأتباعه إنه يضع برقعا على وجهه حتى لا يرى الناس نور الله المتلالىء في وجهه . .

والدعوة التي يدعون اليها في حد ذاتها وهى الدعوة البهائية دعوة باطلة وافتراء على الله ورسوله ، وتزوير لآيات القرآن الكريم . . وتأويلها بما يتفق مع أفكارهم الشاذة ، وعقولهم المريضة ، وخيالهم الواسع ونفوسهم الضعيفة ، وحبهم للمال والشهرة واستعدادهم للتضحية بعقيدتهم الاسلامية من أجل تحقيق منفعة مادية ، أو كسب دنيوي عارض . . بل نلاحظ أن المؤسسين لهذه الدعوات الباطلة والصيحات الهدامة ينتمون إلى أصل فاسد ويضمرون الحقد والحسد والغيرة من الدين الاسلامي . . وهذه الغيرة هي المحرك لزعزعة العقيدة الاسلامية في نفوس هؤلاء . . واستطاع الاستعمار والصهيونية العالمية أن يتسللوا الى هؤلاء الأشخاص وأن يزينوا لهم هذه الدعاوى الباطلة ، وأن يشجعوهم ويؤيدوهم بالمال والنفوذ .

البهائية ليست دينا ولكنها عقيدة باطلة اعتمدت على تشويه العقيدة الإسلامية

الدعوة البهائية دعوة باطلة وافتراء على الله ورسوله وتزوير لآيات القرآن الكريم

مثل هذه الحركات الهدامة تحولت من مجرد أفكار إلحادية إلى مخططات استعمارية

ونتيجة لذلك وجدنا أن هذه الحركات الهدامة تحولت من مجرد دعاوي باطلة ، وأفكار الحادية ، الى مخططات استعمارية وأهداف صهيونية . . لتحقيق أبعاد سياسية تؤدي على المدى البعيد الى تقويض دعائم الدين الاسلامي ممثلا في انهيار القيم والمبادىء الفاضلة وتفتيت الروابط الأسرية وادعائهم بأن الحرية هى حرية كل انسان في أن يفعل ما يشاء حينما يشاء بلا وازع من دين أو عرف أو أخلاق .

وهذا يخالف الحرية الحقيقية كما جاءت في الدين الاسلامي الحنيف حيث حرية كل انسان تنتهي عند بداية حرية الأخرين ، بمعنى ان كل انسان يتمتع بحريته بما لا يمثل انتهاكا لحقوق الأخرين أو الاعتداء عليهم أو على حرماتهم أو على أموالهم .

والمسلم ليس حرا في أن يكفر بعد ايمان . . . والا أصبح مرتدا كما أسلفنا ، وليس حرا في أن يفسد عقائد الآخرين ، أو يدعو الى إلحاد ، فهذا ليس من الحرية في شىء بعد أن أصبح مسلما ملتزما بواجبات وحدود الدين الاسلامي الحنيف .

واذا كانت الأسرة هي الخلية الأولى في أي مجتمع ، فان أهداف هذه الفئات الخبيثة هي زرع الفتنة والشقاق والتمرد على القيم والمبادىء الكريمة السائدة داخل الأسر الاسلامية والمجتمعات الاسلامية والمأخوذة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وذلك عن طريق

تسهيل ارتكاب المحرمات وإلغاء الحدود والعقوبات . ولننظر فى قول المرأة التى ساهمت بدور كبير فى نشر هذه المبادىء الهدامة والمسماة (قرة العين) تتحدث قائلة أمام عدد كبير من الاتباع : (أيها الأحباب والاغيار أعلموا أن

احكام الشريعة المحمدية قد نسخت الآية وأن اشتغالكم الآن بالصوم والصلاة والزكاة وسائر ما أتى به محمد كله عمل لغو وفعل باطل ، ولا يعمل بها بعد الآن الا كل غافل وجاهل) . . . وهذا تحريض صريح على الابتعاد عن أركان الاسلام والشريعة الاسلامية ودعوة الى الانحراف والفساد .



وكنت قد بدأت ألاحظ الانتشار الكبير لهؤلاء البهائيين في كثير من البلدان الأوربية وفي كثير من الولايات الامريكية ، بالاضافة الى انتشار هؤلاء في موطنهم الأصلي في ايران وشبه القارة الهندية .

وبعد اكتشاف الخلايا البهائية في عام ١٩٨٥ م وإلقاء القبض على زعماء البهائية في مصر ، ومن خلال التحقيقات التي أجرتها معهم السلطات المسئولة هناك ، بدأت تتضح الأمور . . وأن هناك انتشاراً لهذه الفئات البهائية الضالة والمضلة في مصر والسودان والمغرب وبعض دول الخليج العربي والعراق .

وعملا بالحديث الشريف (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده . . ومن لم يستطع فبلسانه . .) . الحديث .

فقد آليت على نفسي أن أساهم في التصدي لهذه الفئات المنحرفة ، وأن أكشف زيفهم وضلالهم ، وأن ألفت الأنظار الى خطورة هؤلاء . . وسمومهم التي ينفثونها في قلب المجتمع الاسلامي . . .

وقد نشرت عدة مقالات في جريدة الشرق الأوسط الدولية تحت اسم (أنبياء بلا نبوة . . ورسل بدون رسالة) تناولت فيها هذه الفئات المنحرفة . . واستعرضت أفكارهم الخبيثة وأوضحت خطورة فكرة هذه الطغمة المنحرفة على المجتمعات الاسلامية وعلى الشباب المسلم . . .

ثم أجريت حوارا على صفحات الجريدة استعرضت فيه كل ما ينادون به من خلال كتب ومؤلفات هؤلاء والتي تمكنت بفضل الله من الحصول على العديد منها رغم أنها محظورة الا على خاصة الأتباع . . وقد جمعت هذه المقالات ودفعت بها الى المطبعة لاصدارها في كتاب حتى تعم به الفائدة المرجوة . . وأسأل الله أن يجعله عملا خالصا لوجهه الكريم . . فأنا انما هدفت من ورائه الى أن يكون ناقوسا يدق فينبه الغافلين . . وأوضحت الحقائق أمام الجميع . . ليحذر كل انسان من السقوط في مهاوي الشرك والضلالة . . وليتنبه من انحرف أو انخدع بأفكار هذه الفئة المنحرفة وكلامهم المعسول . . ووعودهم البراقة عن الحب والاخاء والمساواة

> ■ هناك انتشار لهذه الفئات البهائية الضالة والمضلة في مصر والسودان وبعض دول الخليج العربية

> ■ هم فئة مرتدة عن الدين الإسلامي وحكمهم حكم المرتد وليس حكم من يدعي الى الإسلام

> ■ ادعى صاحبهم الأول الباب ثم البهاء الألوهية افتراءً على الله عزّ وجلّ !!

والسلام العالمي . . وما الى ذلك من الشعارات التي يجعلونها واجهة يخفون من ورائها أهدافهم الخبيثة . . ومخططات سادتهم الصهاينة والمستعمرين .
هم اذا ليسوا اصحاب عقيدة . .

وهم فئة مرتدة عن الدين الاسلامي . . ولم يجبرهم أحد على الدخول في الدين الاسلامي بأي شكل من الاشكال وكانت لهم الحرية المطلقة في أن يعتنقوا ما يشاؤون . . أو حتى أن يبقوا بدون عقيدة ، ولكن بعد أن دخلوا في الاسلام لم تعد لهم الحرية في الكفر به . . والا اعتبروا مرتدين عن الدين . . وحكمهم حكم المرتد . . وليس حكم من يدعى الى الاسلام .

وهم فئة[1] . . لم تكتف بالردة عن الاسلام . . بل تطاولوا على الذات الالهية حيث ادعى صاحبهم الأول الباب ثم البهاء الألوهية افتراء على الله عز وجل .

ثم أخذ هذا الكذاب يدعى بأنه قد أُوحي إليه ونزّل عليه قرآن جديد في وقت أخذ فيه بعض آيات القرآن وحرفها في بلاهة وغباء وبصورة سخيفة لا تنطلي على أي مفكر أو حتى قارىء بسيط . . وأخذ يخدع بهذه الآيات المفتريات العامة والدهماء . . ويصور لهم أنه نبي مرسل من الله . . ثم تطاول فادعى الألوهية كما شاهدنا في الدراسات المختلفة التي تصدى فيها علماء المسلمين لهذه الأفكار الضالة . .

وهذا مجمل لأهم الأفكار التي تجعلهم فئة ضالة مضلة . . لانها أفكار تتعارض مع الفطرة الانسانية التي فطر الله الناس عليها .

وليعلم الجميع أن الله غفور رحيم . . وأن باب التوبة مفتوح وأن الله عز وجل يفتح باب التوبة بالنهار ليتوب مسيء الليل ويفتح باب التوبة بالليل ليتوب مسيء النهار . . ويقول رب العزة في الحديث القدسي . . عندما سأل موسى عليه السلام ربه فقال يا رب كيف تعامل من عصاك ؟ . . فقال يا موسى من عصاني أمهلته ، فان فعل ذنبا سترته ، فان رجع اليّ قبلته ، فان عاد الى ذنب انتظرته ، فان تاب غفرت له وأحببته ، والا خذلته ، والى نفسه وكلته حتى لا يكون لعبدي حجة ، وما أنا بظلام للعبيد . .

يقول الله تعالى . . « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما »[2]

والى اللقاء في الحلقة القادمة ان شاء الله . . .

محمد عبده يماني

هوامش

(١) كتاب الأقدس حسين علي المازندراني (البهاء)
(٢) النساء الآية (٤٨)

العالم الثالث على حافة البركان



بقلم : الدكتور محمد سليمان الدجاني

كانت « الديون » من المشاكل الرئيسية التي عانت منها دول العالم الثالث في عام ١٩٨٥ . ومن المؤكد ، أن المشكلة النقدية لن تنتهي باطلالة عام جديد ، بل تؤكد الظواهر أنها قد تتفجر ، خاصة وأن ديون العالم الثالث في ازدياد ، وأن عدد الدول التي قد تجد صعوبات في الوفاء بالتزاماتها تجاه الدول والمؤسسات المالية العالمية يزداد ، كما أن الولايات المتحدة التي تعتبر أغنى دولة في العالم ، أصبحت أكثر دولة ترزح تحت الديون في العالم .

في عام ١٩٨١ ، دقت أجراس الانذار حين بدا وكأن بولندا لن تتمكن من دفع الفوائد على ديونها الدولية . وقد أدى تدخل الاتحاد السوفياتي وامداده لبولندا بالعملة الصعبة لدفع الأقساط المتوجبة عليها ، الى تأجيل تفجير أزمة نقدية عالمية .

وفي عام ١٩٨٢ ، بدا وكأن الدولة التي ستكون مصدر الشرارة التي ستولد الانفجار وترمي العالم في دوامة نقدية عالمية ، هي المكسيك ، التي أعلنت أنها لن تتمكن من دفع الفوائد عن ديونها . وفي هذه المرة ، تدخلت الدول الغربية الكبرى ، وخاصة الولايات المتحدة للحؤول دون وقوع الكارثة .

وفي عام ١٩٨٣ ، أدى تخوف البنوك الدولية من الأرقام المرتفعة لديون العديد من الدول ، الى ايقاف امدادها بقروض جديدة . وبالاضافة الى ذلك ، فرضت المؤسسات المالية الحكومية في الولايات المتحدة وسويسرا وألمانيا الغربية واليابان ، قيودا مشددة على القروض الجديدة للدول النامية . وفي أواخر عام ١٩٨٣ ، أعلن صندوق النقد الدولي ، خطوات تقشف ، شملت الايقاف المؤقت لجميع المفاوضات للقروض الجديدة للدول النامية ، مما أدى الى وضع ضغوط اقتصادية على هذه الدول ، أدت الى الحد من نموها الاقتصادي وتقليص استيرادها .

وفي عام ١٩٨٤ ، ازدادت الأوضاع سوءاً حين قررت الحكومة الأميركية تخفيض المخصصات الأمريكية السنوية للبنك الدولي ، من مليار دولار الى ٧٥٠ مليون دولار . وكانت هذه المخصصات ، تقرض للدول الفقيرة دون أية فوائد ، ولمدة ٥٠ عاما ، كما أنها تقرض للدول النامية بفوائد مخفضة جدا عن الفوائد الاعتيادية . وقد أجبرت هذه الخطوة البنك الدولي على قطع جزء كبير من الدعم لبرامج المساعدة التي كان يقدمها للدول الفقيرة .

وفي صيف عام ١٩٨٥ قدم وزراء احدى عشرة دولة من أميركا اللاتينية اثر اجتماع عقدوه في مدينة مونتيفيديو في كولومبيا اقتراحا مستعجلا من تسع نقاط طالبوا به الدول والبنوك الغربية الدائنة امدادهم بنحو ٦٠ مليار دولار بشكل قروض جديدة مع خفض

هل تنفجر
أزمـــة الديـــون العالمية؟

نسبة الفوائد على كافة الديون . وقد تخوفت الدول والبنوك الغربية الدائنة من أن تتكرر تجربة أوبيك وأن يتطور هذا التجمع ليصبح كارتلا يجمع كافة الدول المدينة ويوحد كلمتها مطالبا في النهاية بانكار الديون والامتناع عن دفعها كليا . ومع أن هذا لم يحدث بعد الا أن امكانية حصوله مازالت واردة خاصة وأن بعض الدول كالبيرو اتخذت قرارا بأنها لن تدفع لخدمة ديونها الا نحو ١٠ بالمائة من قيمة صادراتها الخارجية وهناك دول أخرى تفكر بأن تحذو حذوها .

والتساؤلات التي تقلق مضاجع الخبراء الاقتصاديين العالميين هي : ماذا يخبىء عام ١٩٨٦م هل ستقوم الدول المدينة بتمرد جماعي رافضة دفع التزاماتها ؟ وماذا سيحدث لو اجمعت هذه الدول على الامتناع عن سداد ديونها ؟ هل سيقوض ذلك النظام المالي العالمي ؟ ومن أجل تفادي ذلك ، كيف يمكن تخفيف أعباء الديون الأجنبية المتراكمة على دول العالم الثالث ؟ ما الخطوات التي يجب اتخاذها للحيلولة دون انفجار أزمة الديون ؟ وما العمل لايجاد حلول جذرية للمشاكل النقدية التي تعاني منها معظم دول العالم ؟

الديون العالمية بالأرقام

تصل ديون الدول النامية الى ما مجموعه ٨٦٥ مليار دولار ، وتبلغ تكلفة خدمة هذه الديون مبلغ ١٣٥ مليار دولار سنويا ، كما تبلغ الفوائد السنوية المترتبة عليها ٨٨ مليار دولار . وفي هذا العام ، وصلت ديون دول أميركا اللاتينية الأجنبية نحو ٣٦٠ مليار دولار ، بالاضافة الى مايتبع ذلك من فوائد ومصاريف خدمات سنوية تقدر بحوالى ٤٠ مليار دولار . ودول أميركا اللاتينية صاحبة الديون الكبرى هي : البرازيل التى تبلغ ديونها الخارجية مايزيد عن ١٠٥ مليار دولار وتعقبها المكسيك ٩٦ مليار دولار وذلك قبل كارثة الزلزال التي حلت بها في شهر أيلول الماضي والأرجنتين ٥٠ مليار دولار ، فنزويللا ٤٠ مليار دولار ، كولومبيا ١٢ مليار دولار . وتصل ديون كوستاريكا البالغ عدد سكانها مليوني نسمة الى ٤ مليار دولار . وتحتاج هذه الدول مايزيد عن ٤٠ مليار دولار سنوياً من أجل سداد قيمة الفوائد ، يضاف الى ذلك احتياجات هذه الدول البالغة نحو ٢٠ مليار دولار ، للمحافظة على نفس مستوى المعيشة للمواطن .

وتجد هذه الدول صعوبة في دفع التزاماتها أو حتى دفع الفوائد التى تستحق عليها . وهي لاتجد لدى البنوك العالمية أي استعداد لاعطائها مزيدا من القروض ، بل على العكس ، انخفضت نسبة الاستثمارات الأجنبية الجديدة في الدول المدينة الرئيسية من ٣ ، ٦ مليار دولار عام ١٩٨١ ــ١٩٨٢ الى ٧ ، ٢ مليار دولار عام ١٩٨٣ ــ ١٩٨٤ .

وتستدعى الديون الخارجية للدول الافريقية غير المنتجة للنفط ــ والتى تقدر بحوالى ٧ مليار ــ مصروفات خدمة تعادل أكثر من ٢٠ بالمئة من دخول واردات القارة الافريقية بمجموعها .

كما بلغت ديون بعض دول العالم الثالث لعام ١٩٨٥ ، على الوجه التقريبي التالي : كوريا الجنوبية ٤٠ مليار دولار ، مصر ٣٢ مليار دولار ، أندونيسيا ٢٩ مليار دولار ، تركيا ٢٤ مليار دولار ، الفيليبين ٢٣ مليار دولار ، نيجيريا ١٧ مليار دولار ، المغرب ١٢ مليار دولار ، جمهورية الدومينيكان ٤ ، ٣ مليار دولار . وبوليفيا مدينة للدول الأجنبية بمبلغ ٢ ، ٣ مليار دولار ، ويتوجب عليها دفع ٥٧٪ من مبيعات صادراتها كفائدة سنوية على هذه الديون ، ويبلغ نصيب المواطن البوليفي من هذه الديون ٥١٦ دولارا ، مع العلم بأن معدل دخل الفرد هناك لايتجاوز ٢٩٠ دولاراً .

■ ديـون الدول النـاميـة وصلـت إلى ٨٦٥ مليـار دولار بفـوائـد ٨٨ مليـار دولار !

■ معظـم هـذه الـدول تجـد صعـوبـة في دفـع فـوائـد الديون المستحقة عليهـا !

كما أن هنالك دولا مفلسة تقريبا ، مثل توغو وزائير ، تعيش على القروض والمساعدات الأجنبية . والديون الأجنبية لاسرائيل هي من أعلاها في العالم ، اذ تبلغ ٢٣ مليار دولار ، أي مايزيد عن ٥٠٠٠ دولار لكل رجل وامرأة وطفل في اسرائيل . وتشكل تكاليف الفوائد مع المصاريف العسكرية ، ثلثي ميزانية اسرائيل .

والديون ليست مقتصرة على دول العالم الثالث ، فان العديد من دول المعسكر الاشتراكي مثقلة بها ، مثل بولندا ٢٨ مليار دولار ويوغوسلافيا ٢٠ مليار دولار . ومنذ عام ١٩٨٢ ، بدأ رئيس رومانيا تشاوشسكو ، بحملة قاسية من أجل سداد ديون بلاده الخارجية التي بلغت ١٤ مليار دولار . وقد تمكن من خفضها الى ٦ مليار دولار ، ولكن على حساب رفاهية المواطن في رومانيا .

وتصل عدوى الديون الى الولايات المتحدة نفسها ، حيث تصل مجموع ديون الحكومة الفيدرالية الى نحو ١٨٢٠ مليار دولار ، معظمها ديون تم اقتراضها من مصادر تمويل داخلية (منها ١٠٠ مليار دولار ديون خارجية من المتوقع أن تصل الى ألف مليار دولار مع نهاية عام ١٩٩٠) ، وتبلغ مجموع ديون المزارعين في أميركا الشمالية الى ٢٠٠ مليار دولار .

أسباب تضخم الديون

يرجع تعاظم ديون العالم الثالث الى تفاعل عدة عوامل مترابطة ، منها ما هو على المستوى الدولي ، ومنها ما يتعلق بالأوضاع المحلية للدول المدينة . على المستوى الدولي ، نجد أن أهم هذه العوامل هي :

١ ــ ارتفاع نسبة الفوائد على الديون الخارجية.

٢ ــ التضخم المالي والكساد الاقتصادي العالمي.

٣ ــ مشاكل البيئة: المجاعة والجفاف وانفجار عدد السكان والكوارث الطبيعية.

٤ ــ فشل صندوق النقد الدولي في معالجة المشاكل النقدية التي تعاني منها دول العالم الثالث.

أما الأسباب المحلية، فتتلخص فيما يلي:

١ ــ تقلص نسبة صادرات الدول النامية: وذلك نتيجة للحوافز الجمركية والعراقيل التي تضعها الدول الصناعية أمام دخول المنتوجات الأجنبية الى بلادها. مثلا. تبنى الكونجرس الأمريكي عام ١٩٨٥، قانونا خفض بموجبه الواردات الأمريكية من الملابس والنسيج بنسبة ٣٥ بالمئة. وتم اتخاذ قرار مماثل في عام ١٩٨٤، وقرار آخر في عام ١٩٨٢، قلصت فيه الولايات المتحدة استيرادها من الحديد. وفي المقابل، تدعم الدول الصناعية المنتوجات المخصصة للتصدير، مما يسهل عليها ممارسة عملية تنافس قوية للمصنوعات المحلية للدول النامية. فتباع هذه البضائع في أسواق العالم الثالث، بأسعار منخفضة. لاتستطيع المنتجات المحلية في تلك الدول منافستها. كما تقدم الحكومة الأمريكية العديد من المساعدات من أجل تشجيع الصادرات الأمريكية، منها: قروض دون فوائد مقدمة الى بعض الدول من أجل تشجيعها على شراء المنتجات الأمريكية.

٢ ــ الاستدانة بالدولار فقط: رفع ذلك تكلفة الديون أكثر مما يجب. اذ أن كل سنت ارتفع به سعر الدولار، أضاف الى التزامات الدول المدينة ملايين من الدولارات. وقد تصاعد الدولار بدون توقف، طيلة خمسة أعوام على التوالي (من تموز ١٩٨٠ لغاية شباط ١٩٨٥)، محققا زيادة مقدارها ٩٢٪.

٥ ــ الفساد: غالبا ما حصلت الدول المدينة على قروضها بأساليب ملتوية. وقد جرى تبذير الكثير من هذه القروض، سواء بسوء استخدامها أو بسرقتها وتحويلها الى حسابات خاصة في بنوك خارجية. مثلا، يؤكد مقال نشر في جريدة لوموند الفرنسية في تشرين أول ١٩٨٥، بأن أموال أغنياء، أميركا اللاتينية في بنوك زيوريخ ونيويورك: تمثل وحدها ثلث مجموع ديون أميركا اللاتينية.

وقد كشف النقاب في الاجتماع السنوي لصندوق النقد الدولي الذي انعقد في سيؤول بكوريا الجنوبية بين ٨ ــ ١١ تشرين أول ١٩٨٥، بأن ما بين ٨٠ ــ ١٠٠٪ من الأموال التي أقرضتها البنوك الاميركية للدول المدينة في أميركا اللاتينية كالارجنتين والبرازيل، كانت تعود مرة أخرى الى الولايات المتحدة وسويسرا، وتودع في بنوكها بحسابات شخصية لمسؤولين من تلك الدول.

٤ ــ سوء التخطيط: غالبا ما كانت تعطى القروض لتمويل مشاريع لم تتم دراستها دراسة جدية. بعضها إما كان مشاريع خيالية مبالغ بها، أو غير مجدية من ناحية اقتصادية.

وفي عقد السبعينات، عملت المؤسسات المالية العالمية والبنوك الدولية، على اقراض الدول، دون اخضاع تلك العمليات لأية رقابة أو متابعة، وذلك في محاولة لاستغلال أموال النفط الهائلة التي أدت الى توفر فائض في السيولة الدولية وجدت لها سوقا في العالم الثالث، خاصة دول أميركا اللاتينية.

٥ ــ المصاريف العسكرية الضخمة: أدت مخصصات التسلح في الدول النامية الى زيادة الديون الخارجية بشكل لم يسبق له مثيل، فسببت عجزا كبيرا في المدفوعات، وحالت دون استثمار الامكانيات المحدودة لهذه الدول في الزراعة أو الصناعة أو العناية الصحية. مثلا، تضاعفت المصاريف العسكرية للدول النامية ما بين ١٩٧٢ ــ ١٩٨٢ الى أكثر من ١٦٥ مليار دولار، والعديد من الدول التي لم تتمكن من دفع الالتزامات المتوجبة عليها لخدمة ديونها، كالسودان وموريتانيا وبيرو وفيتنام هي من أكثر الدول شراءا للأسلحة.

■ هناك دول مفلسة تماما تعيش على المساعدات الأجنبية

■ الكساد الاقتصادي العالمي من أسباب تعاظم ديون العالم الثالث

شروط صندوق النقد الدولي

وعن الدور الذي يلعبه صندوق النقد الدولي:

تأسس صندوق النقد الدولي عام ١٩٤٥، بعد أن تم الاتفاق على تأسيسه في مؤتمر بريتون وودز Bretton Woods، الذي عقد في نيوهامشير بالولايات المتحدة في تموز ١٩٤٤ بحضور ممثلين عن ٤٤ دولة، لحل المشاكل المتعلقة باعادة تنظيم الأوضاع الاقتصادية لما بعد الحرب. وأوكل للصندوق مهمة التمويل المؤقت للدول الأعضاء لتحسين أوضاعها الاقتصادية. ولكن، انهار نظام بريتون وودز في أوائل السبعينات وبدت في الافق بوادر أزمة اقتصادية عالمية حادة، مما دعا الدول الاعضاء لاجراء بعض التغييرات في أهداف الصندوق للسماح له بمنح قروض متوسطة المدى للدول التي تعاني من عجز في ميزان مدفوعاتها. وهكذا، على مدى الأعوام الاخيرة، تطور النقد الدولي ليصبح شبه بنك مركزي عالمي.

القروض التي يقدمها صندوق النقد الدولي مشروطة. وتتعهد الدول المدينة بالالتزام بسياسة اقتصادية يقترحها الصندوق، تهدف الى تحسين أوضاعها الاقتصادية وتقليص العجز في ميزانياتها. والدول التي لاتتقيد بالخطة الاقتصادية التي يقترحها الصندوق، لاتسلف أية قروض أو لاتتسلم الدفعات الباقية من قرضها. مثلا، امتنع صندوق النقد في أواخر هذا العام عن الاستمرار في امداد

هل تنفجر أزمـــة الديـــون العالمية؟

الفيليبين بباقي الدفعات ، وذلك لأن الرئيس الفيليبيني السابق فرديناند ماركوس لم يقم بالاصلاحات الاقتصادية الموعودة.

وتدرك الدول النامية ، أنها حين تتقدم لطلب أي قرض من الصندوق ، فان عليها اعادة كتابة بياناتها المالية ، لتتفق مع المتطلبات الاساسية لصندوق النقد ، كما عليها التخلي عن حريتها في وضع سياسة اقتصادية وطنية ، ويقع على عاتقها ، أن تثبت للقائمين على الصندوق ، بأنها على استعداد لاتباع « سلوك اقتصادي سليم » .

والشروط القاسية التي يفرضها الصندوق ، والاجراءات الاقتصادية المشددة التي يجبر الدول المدينة على اتباعها ، تجعل العديد من الدول ، غير راغبة بالاستدانة ، مهما ساءت أحوالها . فقد قررت البيرو مؤخرا ، تجاوز صندوق النقد الدولي في مفاوضاتها مع البنوك الاجنبية لاعادة برمجة ديونها من أجل عدم تلقي أية « نصائح » منه .

وفي أواسط شهر كانون الاول ١٩٨٥ أعلنت نيجيريا رفضها لقرض من صندوق النقد الدولي بقيمة ٤ ، ٢ بليار دولار لأن الصندوق اشترط قيام الحكومة النيجيرية بخفض قيمة العملة النيجيرية بنحو ٦٠ بالمائة والغاء الدعم على المنتجات البترولية .

وفي أوائل عام ١٩٨٦ هدد صندوق النقد الدولي السودان ، التي تقدر ديونها بنحو عشرة مليارات دولار ، بأعلانها دولة في حالة التوقف عن السداد ان لم تقم بدفع المتأخر من الديون المستحقة عليها . وقيام صندوق النقد الدولي باعلان دولة في حالة عجز عن السداد

يعني بالنسبة لهذه الدولة حرمانها من امكانية الحصول على أية قروض جديدة من السوق الدولية . وقد كانت الحكومة السودانية قد رفضت في كانون أول ١٩٨٥ مشروع اتفاق لاعادة جدولة الديون السودانية لأنه يقضي بالغاء الدعم على السلع الأساسية واطلاق الأسعار داخليا وخفض قيمة العملة السودانية .

وتتبع تونس سياسة النمو والتطور التي يحبذها الخبراء الدوليون فتوجه ثرواتها من المواد الأولية الى الأسواق الاستهلاكية في العالم الخارجي وتعمل على تشجيع وتطوير المنتوجات الزراعية الموجهة الى الأسواق الخارجية وتنتهج استراتيجية تطوير الصناعات الموجهة للاستهلاك المحلي كبديل عما هو مستورد . وقد أدت هذه السياسة الى

تطوير الاقتصاد التونسي وضاعفت في نسبة النمو والازدهار مما ترك آثاره الايجابية على مختلف الظروف المعيشية (الغذائية ، الصحية ، الدراسية ... الخ) للشعب التونسي ، الا أنها لم تكن كافية لحل المشاكل التي يعاني منها الاقتصاد التونسي . وقد

كانت معظم النصائح التي قدمها خبراء البنك الدولي الى الحكومة التونسية تقليدية مثل مضاعفة تونس لقدراتها التصديرية وتعويم الدينار التونسي وتخفيض رسوم الجمارك وتخفيض نفقات الدولة ، وخاصة فيما يتعلق برواتب الموظفين . ومع أن هذه الاقتراحات قد تحل بعض المشاكل الاقتصادية للحكومة التونسية الا أنه من المؤكد أنها ستزيد المشاكل الاجتماعية والسياسية التهابا .

ويُعزى عداء العديد من دول العالم الثالث لصندوق النقد الدولي ، للعوامل التالية :

١ ـ العوامل السياسية :

في محاولته معالجة المشاكل الاقتصادية للدول النامية والفقيرة ، يخلق صندوق النقد الدولي مشاكل سياسية داخلية حادة للدول

■ القيـــود القـاســـية لصنــدوق النقـــد الدولي تمـثــل خرقـــاً للســـيادة الوطنيـة في الدول النامـيــة

المدينة ، وتعتبر هذه الدول القيود المشددة التي يفرضها صندوق النقد الدولي عليها ، تدخلا في شؤونها الداخلية وخرقا لسيادتها الوطنية . مثلا ، اتخذت دولة جنوب أفريقيا في أواخر شهر آب ١٩٨٥ ، قرارا رسميا بتأجيل دفع أي قسط من الديون المستحقة للبنوك الدائنة ،

والبالغة ٢٤ مليار دولار ، لأن هذه البنوك والمؤسسات المالية تشترط أن تقوم حكومة جنوب أفريقيا باجراء اصلاحات سياسية جذرية ، كشرط أساسي لبرمجة ديونها .

٢ ـ العوامل الاقتصادية :

تتخوف الدول المدينة من التبعية الاقتصادية التي تترتب على الالتزامات المالية لصندوق النقد الدولي ، خاصة وأنها تعتبر بأن البرامج الاقتصادية التي يفرضها الصندوق ،

مصممة بشكل يعيق نموها ، ويجعل اقتصادياتها تعتمد بالاساس على المساعدات الخارجية . وقد صرح يوليوس نيريري رئيس تنزانيا سابقاً ، بأن صندوق النقد الدولي قد أصبح أداة اقتصادية وأيديولوجية في أيدي الدول الغنية للسيطرة على الدول الفقيرة .

٣ ـ العوامل الاجتماعية :

تنعكس سياسة الصندوق التقشفية التي يفرضها على الدول المدينة عادة في قطع الاعانات المالية الحكومية للمواد التموينية كالخبز والحليب والأرز والقمح والسكر والسلع الاساسية كالبترول والغاز . وهذه الاجراءات تؤدي الى ردود فعل قوية لدى المواطن العادي

الذي يتأثر مباشرة منها ، فتزيد من الضغوط الاجتماعية ، وتزعزع الاوضاع السياسية ، كما حدث في مصر في أواسط السبعينات ، والمغرب وتونس في أوائل عام ١٩٨٤ ، وجمهورية الدومينيكان في نيسان ١٩٨٤ وشباط ١٩٨٥ ، حيث أدى اصرار صندوق النقد الدولي على أن تخفض حكومات هذه الدول المخصصات الكبيرة للسلع الغذائية والمواد التموينية الى مظاهرات واضرابات دامية ، استمرت الى أن ألغيت الاجراءات الجديدة .

٤ ـ العوامل النفسية :

تثير الوصاية الاقتصادية التي يمارسها صندوق النقد الدولى على الدول المقترضة ، الامتعاض والاستياء الذى تخلفه تعليمات الطبيب لدى المريض ، فقد ثارت معارضة سياسية قوية في البرازيل ، حين اشترط صندوق النقد الدولى على الحكومة البرازيلية خفض المعاشات بنسبة ٢٠٪ من أجل امدادها بالقروض التي تحتاجها .

أسباب تردى الأحوال الاقتصادية

أما المحاذير والأخطار المترتبة على تردي الأحوال الاقتصادية ، فالواضح أن سوء الأحوال الاقتصادية العالمية يؤدى للنتائج التالية :

١ ـ الأخطار الاجتماعية الاقتصادية : زيادة انتشار الفقر والجوع والمرض والبطالة في دول العالم الثالث ، وتدنى الانتاج الصناعى والزراعى بها ، مما يخفض من اجمالى الناتج القومى .

٢ ـ الأخطار السياسية العسكرية : تؤدى عادة عملية تسديد الديون الضخمة الى تحويل ثروات حقيقية من الملكية الوطنية الى الملكية الأجنبية ، مما يلحق الضرر بمكانة الدولة السياسية والعسكرية . اذ أنه من الصعب الاعتماد فقط على زيادة القدرة على الانتاج لخدمة الديون وسدادها ، خاصة ان كانت مرتفعة جدا . كما يؤدى سوء الأوضاع الاقتصادية نتيجة الديون الباهظة ، الى استنكار الجماهير ، مما يزعزع الأوضاع في هذه الدول ، جاعلا اياها عرضة للانقلابات العسكرية والقلاقل السياسية .

٣ ـ الأخطار الاستراتيجية الايديولوجية : تجعل الديون الدول الفقيرة لقمة سائغة في فم العملاقين الشيوعي والرأسمالى ، وتجذبها للمحور الأمريكي أو السوفياتى ، وتستغل عادة الدول الكبرى ظروف هذه الدول ، إما لامدادها بمساعدات اقتصادية مرتبطة بالتزامات سياسية ، أو لدعم نشاطات الأحزاب المتطرفة لقلب الأنظمة القائمة ، خاصة ان كانت هذه الانظمة موالية للمعسكر الآخر .

٤ ـ الأخطار الدولية الأمنية : زيادة احتمالات المواجهة النووية بين المعسكرين الشرقي والغربى نتيجة للهوة السحيقة في مستوى المعيشة بين الدول الموالية لهما .

أما بالنسبة للحلول المقترحة لأزمة ديون العالم الثالث : في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٥ ، اقترح وزير المالية الأمريكي جيمس بيكر خطة دعا بها الى الاسراع في نجدة الدول المدينة الأكثر خطورة على التوازن المالي العالمى وذلك بقيام البنوك الغربية بمنح هذه الدول مبلغ ٣٠ بليون دولار كقروض جديدة على شرط أن تنتهج هذه الدول سياسة تقشفية حادة من ضمنها تخفيض التضخم المالي وتقليل المصاريف الحكومية وخفض الضرائب لتشجيع الاستثمار . وقد أصدر وزراء احدى عشرة دولة مدينة من أمريكا اللاتينية بعد اختتام اجتماع لهم عقد في مونتيفيديو في كولومبيا في مطلع هذا العام بيانا ختاميا وصفوا به هذا المشروع بأنه « خطوة ايجابية » ولكن غير كافية للسماح لهم بدفع التزاماتهم المالية وفي نفس الوقت تعزيز نموهم الاقتصادى المضطرد . وقد طالب المجتمعون بقروض جديدة تبلغ ضعف المبلغ الذى اقترحه وزير المالية الاميركى بيكر كما طالبوا بخفض نسبة الفوائد .

ومن أجل مساعدة دول العالم المدينة على تجاوز أزمة الديون الدولية ، يجب اتخاذ الخطوات التالية :

النظام الاقتصادي العالمي الجديد هو الحل الأمثل لمعالجة أزمة الديون !

١ ـ شطب جانب مهم من الديون والغاء ديون التنمية في الدول الفقيرة مع تخفيض الفوائد المستحقة الى النصف تقريبا ، مما يخفف عبء الديون على الدول المدينة . ومع أن البنك الدولى في مطلع هذا العام خفض سعر الفائدة على معظم قروضه من ٨,٨٢ الى ٨,٥٠٪ وذلك لتيسير القروض التى تحصل عليها الدول النامية بهدف تحسين مستوى معيشة شعوبها ، الا أن ذلك ليس كافيا .

٢ ـ فتح أسواق الدول الصناعية لصادرات الدول المدينة وازالة الحواجز الجمركية .

٣ ـ تخفيض المصاريف العسكرية ، وتحويل جزء من الميزانيات المخصصة لشراء الاسلحة الى المشاريع الصناعية والزراعية والصحية ، مما يساعد على دفع التطور الاقتصادى الى الامام . في حين أن شراء طائرة عسكرية جديدة قد تمنح النظام السياسى القائم ، بعض الشعور الوهمى بالامن في عالم مضطرب ، الا أنها لاتستطيع القضاء على عدم الاستقرار الناتج عن الفقر والجوع والمرض .

٤ ـ مراجعة نظام النقد العالمي ، ووضع نظام اقتصادى عالمى جديد . يأخذ في عين الاعتبار الاوضاع الاقتصادية المميزة لدول العالم الثالث .

٥ ـ قيام الدول المدينة باصلاحات اقتصادية تشمل تغيير الانظمة المصرفية والمالية والضريبية والجمركية ، وتهدف الى تقليل العجز في ميزان المدفوعات ، والحد من الواردات ، والاستغناء عن القروض ، ومحاولة الاكتفاء الذاتى عن طريق زيادة الانتاج وتشجيع الاستثمار .

من الواضح أنه ليس بمقدور دول العالم الثالث وحدها ، ايجاد حلول للازمة الاقتصادية الناتجة عن تضخم الديون الدولية ، بل يستدعى ذلك توجها جماعياً بين دول الشمال الصناعية ودول الجنوب النامية ، يقوم على مبدأ الاعتراف بالمصالح المشتركة للطرفين ، للاتفاق على استراتيجية شاملة ، تهدف الى صياغة نظام اقتصادى عالمي جديد .

محمد سليمان الدجاني



بقلم: أكرم زعيتر

تمهيد

أحسب بعد أن أوفيت شاعر العربية بدوي الجبل بعض حقه ، وجلوت لكثيرين من أبناء العربية من قراء دوحتنا الظليلة الفينانة صفحة باهرة من سيرته ، واقتبست لهم ما اقتبست من روائعه ، وبعد أن لمست جميل صدى تلك الحلقات ، وبالغ تأثيرها حتى قال لي أديب مرموق : « على قدر نشوتي بما قرأت عن شاعرنا الكبير وله ، كان تبكيتي نفسي وتقريعي إياها على جهلي بأمره » .

بعد ذلك أراني اليوم أطالع « الدوحة » بحديث عن كبير من أكابر أمتنا العربية . إنه الرجل الذي كنت صدر يفاعتي أسمع من يلقبونه بأمير السيف والقلم ثم ــ على تباين العمر بيننا ــ نعمت بمعرفته ، ثم ظفرت بصحبته ، وازدهيت بمودته ، ثم تراصفنا ــ في عز الحرب الثانية ــ في الهجرة إلى تركيا فراراً من الجور الانجليزي والجور الفرنسي .. إنه المجاهد الكبير ، والثائر الخطير ، والسياسي القدير ، الفارس الشاعر العظيم ، والمنشىء الناثر الفخيم ، الأمير عادل ارسلان .

ولست أفصل في هذه المقالات سيرة الأمير عادل مجاهداً وسياسياً ثائراً ، وقد عرفته الحركة العربية في إشراقتها وتأسيس البواكير في جمعياتها ، قطباً من أقطابها ، وأشاد مؤرخوها ببلائه العظيم في نهضتها.

حين منيت البلاد العربية بالاحتلالين الفرنسي والانجليزى وغدا تاريخ الحركة الوطنية جهاداً وقراعاً وكفاحاً ومعارك وثورات جلى الأمير في الميدان ، وذهب صيته في الشجاعة والقيادة والنصر حتى لقب بأمير المجاهدين.

ولكن شهرته مجاهداً وثائراً وسياسياً فاقت شهرته أديباً شاعراً ، وإذا كان تاريخ الجهاد في البلاد الشامية يتلألأ باسم الأمير عادل ارسلان فإن تاريخ الأدب الحديث يذكر بالتمجيد شقيقه ، أمير البيان الأمير شكيب أرسلان ، ويذكر اخاه الأمير نسيب ارسلان وديوان شعره « روض الشقيق في الجزل الرقيق » وقد لا يذكر الأمير عادلاً .. وقد يذكر شعراء هيهات هيهات أن يبلغوا بعض شأوه روعة شعر وسحر بيان.

ولا يستكمل الحديث عن الشاعر الفارس إلا بتمهيد وجيز عن سيرته الذاتية على أن يستوفى القول عن بطولته مجاهداً في مساق الحديث عن روائع شعره وبدائع نثره الذيع نظما ونثرا وهو يخوض غمرة كفاحه الوطني.

الاخوة الثلاثة

إنهم أخوة ثلاثة كبراء ، مناضلون نبغاء ، كتاباً وشعراء : كبيرهم الأمير نسيب أرسلان ، الشاعر الكبير ، والكاتب القدير ، رصيف الكوكبة الأولى من شهداء القضية العربية أمثال : عبد الغنى العريسى والزهراوي وحمد والشهابى ، وكانت صحيفتهم « المفيد » لسان الحركة العربية في اشراقتها تزدان « بافتتاحياته » وتموج بروائع أبياته ، وفي دارته ببيروت يتلاقى سروات النهضة العربية من اداته.

وثانيهم أمير البيان ، وإمام المترسلين كما لقبه خليل مطران ، وكبير المجاهدين تحت راية القرآن : شكيب ارسلان.

وثالثهم الأمير عادل الذى نشأنا فتياناً نعده مثلنا العالي وندعوه أمير السيف والقلم. وفي شكيب وعادل يقول الشاعر معروف الرصافي :

لبعضهم شهرة بالسيف واحدة
وبعضهم شهرتاه السيف والقلم
كعادل وشكيب في اكفهما
جال اليراع وصال الصارم الخذم

سيرة الأمير

ولد الأمير عادل بن الأمير حمود سنة ١٨٨٢ في الشويفات بلبنان ودرس في بيروت في مدرسة الحكمة والفرير فالكلية العثمانية التي غلب عليها اسم كلية الشيخ أحمد عباس الأزهرى (المصرى الأصل) وهي منجبة الشهداء وقادة الحركة العربية الأوفياء ، ثم سافر إلى باريس حيث توفر على تعلم الفرنسية ثم درس في استانبول في الكلية الملكية ، وفي استانبول اشترك فتانا اليافع في تأسيس الجمعية القحطانية السرية ، واختير أميناً لسرها لصغر سنه زميلاً لأقطاب الحركة العربية امثال : عزيز علي المصرى وسليم الجزائرى وشكري العسلي والأمير أمين ارسلان وعبد الكريم الخليل ، رئيس المنتدى الأدبي ، وياسين وطه الهاشمي والدكتور على النشاشيبي وكان هدفها كما قال الأمير في محاضرة له : المطالبة باستقلال من نوع المجر بالنسبة إلى النمسا.

وانتمى بعد حين إلى جمعية العربية الفتاة (السرية) ، وعين فتانا ، وهو في الثانية والعشرين من عمره (سنة ١٩١٤) « قائمقاماً » للشوف ثم ما لبث حتى انتخب نائباً عن جبل لبنان في مجلس المبعوثان العثمانى (مجلس النواب) وفيه كانت له مواقف مشهودة في الدفاع عن المصالح العربية .. ، وعلى اثر انتهاء الحرب ، وقيام الحكم العربى الاستقلالى الفيصلى في دمشق ، يوم غدت دمشق كعبة أحرار العرب ، عين الأمير عادل مساعداً إدارياً لرئيس الحكومة السورية فمستشاراً للملك فيصل ورسوله في المهمات الخطيرة ، حتى احتل الفرنسيون سورية (سنة ١٩٢٠) ، فحكموا عليه وعلى رجالات الحركة بالاعدام غياباً وقد رافق فيصلاً إلى أوربا مع نخبة من مستشاريه : ساطع الحصرى ورستم حيدر واحسان الجابري .. ثم أقام قليلاً في سويسرا ، حتى مقدم الأمير عبد الله بن الحسين من الحجاز إلى عمان فنزح الأمير عادل مع أحرار الاستقلاليين إليها حيث ألف كبير الاستقلاليين رشيد طليع أول حكومة فيها واختير الأمير عادل رئيساً للديوان الأميرى.



صورة تاريخية لبعض رجال العروبة في الاردن عام ١٩٢١ من اليمين : رشيد طليع ، أحمد مريود ، عادل أرسلان ، الوقوف : جميل المرفعي ونبيه العظم.

الأمير الفارس الشاعر عادل أرسلان

ثم قضت ظروف سياسية ملزمة بأن ينتقل الأمير عادل ولفيف من أحرار الاستقلاليين الى الحجاز في كنف ملكه آنذاك الشريف الحسين بن علي . ثم غادر الأمير الحجاز الى مصر فأوروبا فمصر . ولما نشبت الثورة السورية الكبرى نفر من مصر الى ميدان الثورة وتولى قيادتها في اقليم البلان وغدا زعيمها الثاني بعد سلطان ، وفي معاركها تجلت بطولة الأمير وتتالت انتصاراته ، وطبقت آفاق بلاد الشام شهرته وفيها نظم أروع ملاحمه . وظل بعيداً عن بلاده ، بعد الثورة ، عشر سنوات ، انتدب في اثنائها للدعوة الى قضية فلسطين في المهاجر الامريكية . واستنفار حمية الجاليات العربية ثم كانت له جولات لخدمة قضية سورية في أوروبا ومصر والعراق .

ولا ازال أذكر ــ وأنا في دمشق سنة ١٩٣٧ اعمل لثورتنا الفلسطينية ــ وقد قام حكم وطني في دمشق كيف استقبلنا الأمير عادل العائد الى دمشق استقبال الفاتحين ، ورده على تحية الحشود في ساحة المرجة بتحية الشهداء ، شهداء الثورة السورية والقضية العربية « الذين هم أولى بالتمجيد واجدر بالتكريم » ..

وما لبث الفرنسيون حتى خاسوا بالعهود . ونقضوا معاهدة ١٩٣٦ ، وتنكروا للوطنيين ، وجاءت الحرب العالمية الثانية فتواهم للبطش بالوطنيين ، ثم امتلأت المعتقلات بكل من يظن فيهم الكراهية للمحتلين وابعدوا الأمير عادلاً ونخبة من كبار الوطنيين الى تدمر واكرهوهم على الاقامة في قلعتها . ثم أطلق سراحه فلجأ الى تركيا وأقام في استانبول حتى نهاية الحرب .

ولجأتُ الى تركيا وبعض الوطنيين الذين كان الاستعمار البريطاني والاستعمار الفرنسي يتعقبهم على أثر اخفاق الثورة العراقية على الانجليز ، تلك الثورة الموسومة بالكيلانية ، وتعددت لقاءاتنا والأمير عادل في استانبول حيث كنا نتذاكر في ما يجب أن يكون الموقف العربي في الحرب وبعد انتهائها ووضعنا ميثاقاً وطنياً التزمناه . وحفلت هذه اللقاءات بالذكريات حتى إذا استقلت سورية ولبنان عدنا إليهما . وقد تولى الأمير عادل في ذلك العهد الوطني بعض الوزارات ، وانتخب نائباً عن الجولان في « البرلمان » السوري ومثل سورية في مؤتمر فلسطين بلندن سنة ١٩٤٧ واختير نائباً لرئيس الوفد السوري لدى الأمم المتحدة وأدى مهمات سياسية في أوروبا وتركيا ، وكان نائباً لرئيس الحكومة في عهد حسني الزعيم وما لبث حتى استقال وبرر في مذكرات له هذا التعاون بحرصه على تجنيب سورية ما يمكن أن يجره « الدكتاتور » عليها من اساءات واختير بعد انقضاء ذلك العهد سفيراً لسورية في انقره فمكث سنوات يوثق العلاقات بين تركيا وسورية ثم انكفأ الى بيروت وتوفي سنة ١٩٥٤ .

شخصية الأمير

وقبل أن أتحدث عن الأمير الفارس شاعراً أقدمه موجزاً وصف شخصيته بأقلام أعلام كبار من عارفيه . فصديقه الشاعر الكبير خير الدين الزركلي يصفه في قاموس « الأعلام » : « أمير مجاهد . شاعر يلقب بأمير السيف والقلم .. كان ألمعياً ، كريم النفس أبيا . له شعر جيد حلو المعاني ، رفيع الأسلوب ، جدير بأن يجمع وينشر في ديوان » .

ويقول الامام رشيد رضا صاحب المنار في تعزيته الأمير شكيب بوفاة شقيقه الأمير نسيب ، وكان عادل يخوض غمار الثورة السورية : « أطال الله لنا وله بقاء شقيقه الأمير عادل ، رب السيف والقلم ، ورافع الراية والعلم . خواض الغمرات ومقتنص الطيارات ، قائد الكماة الأباة في ميادين الجهاد ، والحماة الرماة ، في مواطن الجلاد » .

وأما الفيلسوف اللبناني العربي أمين الريحاني فيقول : « ومن الأبطال ، أديب مفضال ، كريم النسب والخلق ، شريف الدم والروح عامل بما يقول . هجر الشعر والقلم ، ونبذ رغد العيش وساق روحه الى ساحة الوغى ، راح يعمد وطنيته بالنار . راح يمتشق الحسام ليحقق ويعزز ما كان يخطه القلم قلمه ، وينطق به اللسان لسانه ، وأنا ما غبطت هذا الأخ العربي الصميم غبطته ، ووددت لو انني معه جنباً الى جنب في ظل المدافع ودويها ونيرانها » .

ومما قاله الكاتب الفلسطيني القدير ، الشاعر الثائر الاستاذ منيف الحسيني في جريدته « الجامعة العربية » مرحباً بالأمير الثائر الآتي الى القدس للمعالجة من مضارب المجاهدين : « شجاعة عرفتها الأمة في عظيم بلائه في الثورة السورية ، وأصالة رأي صرف بها شؤون الثورة ، وقاد الثوار الى مواقع الظفر والفخار ، ونظر نافذ في شؤون السياسة قل أن يرزق مثله فحولها . وفصاحة تعود بك الى صفاء العربية ونقائها من هجنة الأعاجم ، وشاعرية فذة لم يعرف التكلف والتصنع إليها سبيلاً ، ولو أن المروءة تجسدت رجلا لكانت ملء إهابه ، ولو أن النبل تقلص انساناً لكان حشو ثيابه . مجلس لا يمله المرء وحديث هو غذاء للعقول وريحان للنفوس ومنظر ترتاح إليه العين فتجد لذة وبهجة مع وقار وهيبة . وبديهة هي مضرب المثل في السرعة والحضور ، ورواية للشعر لو انها كانت في عصر حماد لما سمي الراوية أو حفظ للحوادث وأسماء الاعلام وخبرة بالأنساب والواقع تعيد الينا عهد الأصمعي وابن عبيد .. وكل ذلك في حدود الاربعين ، فتبارك الله أحسن الخالقين » .

البواكير

كان الأمير الفتى ، وهو تلميذ في استانبول يتتلمذ قومياً للقائم مقام اركان حرب سليم الجزائري الذي كان من نوابغ قادة الفكرة العربية ، وكان ينظم اناشيد قومية لناشئة العرب ، وإذا اجتمع بالأمير عادل تباريا في ارتجال الشعر ، ومما ارتجل الأمير في احد اللقاءات :

أتراك تمنعني الصبابة بعد ما
أعددت قلبي للغرام وقالبي
مهلاً سليم ففي « فروق » كواعب
ربي يريك عذاب حب الكاعب
من كل غانية يكاد حجابها
ينشق مقدوداً بسيف الحاجب

فطرب لها سليم وأخذ يغنيها ..

وحدث قبل الحرب العالمية الأولى أن أعتقل في استانبول الضابط المصري الشهير عزيز علي المصري ، وهو مؤسس حزب العهد العربي (السري) الذي انتمى اليه كثيرون من كبار الضباط العرب ، وغايته « السعي وراء الاستقلال الداخلي للبلاد العربية على أن تكون متحدة مع حكومة الآستانة اتحاد المجر مع النمسا » وقد ذاعت شهرته يوم كان يطارد العصابات البلغارية ، ويوم قمع الثورة التي كانت ترمي الى إعادة الحكم المطلق في استانبول

وعرف ببطولته في حرب طرابلس برقة . وقد قبضت الحكومة العثمانية عليه سنة ١٩١٤ ، فأثار القبض عليه استياء شديداً في البلدان العربية ، وسارت المظاهرات هنا وهناك . وقد حكم بالاعدام ثم ابدل الاعدام بالسجن المؤبد .. وقد نظم أمير الشعراء أحمد شوقي قصيدة رائعة خاطب بها السلطان محمد رشاد راجياً انقاذ بطل برقة . ومنها قوله :

هو من سيوفك أغمدوه لريبة
ما كان يغمد سيفك للسلول

وأطلق سراحه على أن يعود الى مصر . وقد قرأ الأمير عادل قصيدة شوقي في « المقطم » فكتب الى شوقي على بطاقة بريد أبياتاً ارتجلها وأرسلها بالبريد من دون توقيع ، وكان المعروف أن السلطان محمد رشاد ، لا حول له ولا طول ، وأن السلطة كلها بيد الاتحاديين .

أما ابيات الأمير على البطاقة فهذه هي :

إن الذى استصرخته في قصره
هَمٌ على المستصرخين طويل
لو نال مقدرة لأطلق نفسه
لكنه من دون ذا مكبول
فإذا شكوت فماله من مبلغ
وإذا قصدت فما إليه سبيل
دعه ولا تسأله شيئاً إنه
لا سائل شيئاً ولا مسؤول
وارحم رعاك الله منه شيبة
هي لا سواها التاج والأكليل

معارضة قصيدة شوقي

وتوفي اللورد كارنارفون سنة ١٩٢٢ وهو الذي اهتدى الى قبر الفرعون « توتنج امون » في وادى الملوك بمصر ، وقيل أن وفاته بسبب عضة بعوضة انطلقت من القبر ، وأرسل أمير الشعراء أحمد شوقي (الذى لا يفتأ خنافس الشعر يتهجمون عليه) رائعته ذات المطلع :

في الموت ما أعيا وفي اسبابه
كل أمريء رهن بطي كتابه

وقد حفظناها طلاباً ، ولا نزال نردد من أبياتها :

ما مات من حاز الثرى آثاره
واستولت الدنيا على آدابه

وفيها ذانك البيتان اللذان تمنى شاعر النيل حافظ ابراهيم أن يكونا له بديوانه كله وهما :

أفضى الى ختم الزمان ففضه
وحبا الى التاريخ في محرابه
وطوى القرون القهقرى حتى أتى
فرعون بين طعامه وشرابه

ولم يكد الأمير عادل يطلع على قصيدة أحمد شوقي حتى عارضها بقصيدة طويلة خاطب بها كارنارفون :

ياراجياً كنز الملوك غنيمة
ضاق الرجاء عليك دون رحابه
ارداك اذ ادركته متهجماً
من كنت ترجو الدهر أن تحيا به

وفيها :

فاعجب لفرعون يردك خائباً
عنه ، وما هذا بكل عجابه
وانصح لقومك حرمة لمحنط
أن يرحموا التاريخ في أعقابه

وفيها :

ما كنت مذكوراً بألسنة الورى
لولا وقوفك ساعة في بابه
قد شاخت الدنيا عليه ولم يزل
بالرغم منها ناعماً بشبابه

وفيها :

الشرق واد للملوك جميعه
تتألق التيجان تحت ترابه
لو تنبت الأرض الصوالج لاعتدت
في الشرق اعظم ما يرى من غابه
لم تكتفوا طمعاً بقطن ترابه
فقصدتم في الجو قطن سحابه

وفيها :

والشرق ما لم تدركوا [illegible]
قد عوه طرا ، إننا ادرى به
أتظل مصر طعينة بقناتها[1]
ويظل طاعنها على ارهابه
وتظل سوريا مدامة شارب
أم ماؤها « عاص »[2] على شرّابه
ماذا رجوت وقد وقفت مسيطراً
تستنطق المكنوز خلف حجابه
لو جثته للعلم لم تلق الردى
فالعلم ملء ثيابه واهابه
ما عاب معتقل اللسان سكوته
إن كان سم الموت بعض جوابه
أو كيف تسلب أمة في أرضها
مَيْتٌ يذود الناس عن اسلابه
مهلاً فما في مصر بعد نهوضها
حيٌّ ولا ميت يُنَلْ بنابه

سل اليرموك

ويروى الشاعر الكبير خير الدين الزركلي ، وهو صديق الأمير ورصيفه في المنافي ، أن الأمير عادل كان في مقدمة من انتبه الى وجوب اتخاذ شرق الاردن قاعدة حرة للعمل في جوار سورية ، وأنه حين بلغه تقدم الأمير عبد الله الى شرق الاردن ، وهو في برلين يتنقل بينها وبين عواصم أوروبا معلناً فضائح ما يسمونه الانتداب . فبادر يخترق البحار حتى بلغ عمان على أثر وصول الأمير عبد الله اليها . ورحب به الأمير كل الترحيب واتخذه رئيساً لديوانه . وفي ساعة ألم من الحال ، وشعور بما يبيت للبلد ، يطغى عليه التشاؤم ــ شأن الأمير عادل في كثير من الاحوال ــ نظم قصيدة خاطب بها الأمير وفيها يقول :

كفى بي أيها اللاحي عذابا
فدع عنك الملامة والعتابا
شبابٌ كله ألمٌ وبؤسٌ
فكيف إذا تجاوزتُ الشبابا
ومن لي بالسعادة بعد خطب
أراني أمتي ذهبت ذهابا
أطالب مهجتي جَلَداً وصبراً
وأعلم انها ذابت وذابا
وأسأل كل بارقة جواباً
وأعلم أنها عَيَّت جوابا
غريب في ديار أبي وجدي
كأني طارق هاج الكلابا
بلاد لم تكن إلا بلادي
ومهدى اذ لبثت بها الاهابا
لعمر الله كلٌّ وليد قوم
إذا لاقى الذي لاقيت شابا

ثم يخاطب الأمير :

أعبد الله إن ترد المعالى
فإن لها هديت اليه بابا
سل اليرموك اين تكون منه
اذا لم تقحم الخيل العرابا
سل اليرموك عن آباء صدق
وما فعلوا تر العجب العجابا
أمامك من اذا نزلوا بأرض
أصابوها انتهاكاً وانتهابا
إذا ما استعبدوا أحرار قوم
ابوا أن يعتقوا منهم رقابا
وخلفك أمة تقضي وتحيا
إذا ما طاش سهمك أو اصابا
اعيذك أن يطيب لك التواني
وأن ترضى بما وعدوا طلابا
فأقبح ما يكون المرء سكراً
إذا كان السراب له شرابا
هو الرق الذي لا ريب فيه
أرادوه فسموه « انتدابا »

أكرم زعيتر

هوامش

(١) قناة السويس (٢) نهر العاصي بسورية

الحلقة القادمة في العدد المقبل

اكتشاف محمد عبده



بقلم : فهمي هويدى

لم ينتبه أحد الى ذكرى وفاة الامام محمد عبده ، التى حلت يوم ١١ يوليو الماضى ، ومرت المناسبة دون أن يشار بكلمة الى ذلك الحدث الجلل ، الذى هزّ العالم العربي قبل ٨١ عاما ، عندما غرب عن الأمة نجمها الساطع ، وسكت الى الأبد صوت أعظم عقل اسلامى عرفه القرن العشرون ، وان ظلت أصداء ذلك الصوت تجلجل في أعماق الأجيال اللاحقة ، حتى يومنا هذا .

وعلى كثرة ما كتب عن تلك الشخصية الفذة والعريضة ، فاننا نحسب أن الفضل في اكتشاف الرجل بحجمه وامتداداته الحقيقية ، يرجع الى المستشار عبد الحليم الجندى ، فى كتابه الهام الذي ألفه عنه سنة ١٩٧٩ بعنوان « الامام محمد عبده » ، واختتم به سلسلة تراجمه لسبعة من الأئمة الذين عرفهم تاريخ الاسلام : أصحاب مذاهب أهل السنة الأربعة ، والامام جعفر الصادق امام الشيعة ، والامام محمد عبد الوهاب .. ثم مجدد الاسلام في القرن العشرين ، محمد عبده .

ويظل كتاب عباس العقاد حول محمد عبده فريدا في تقديمه لشخصية الرجل .. يلحق به كتاب الدكتور عثمان أمين عن الامام بوصفه رائدا للفكر المصري . كما يظل جهد الدكتور محمد عمارة في تقديمه للأعمال الكاملة للامام ، مما لا يستغنى عنه أي باحث أو قارىء جاد . لكن كتاب الجندي يتميز بمنهجه الذي حرص أن يقدم محمد عبده ، ليس فقط الفقيه والمجدد ، ولكن أيضا القائد والقاضى والمصلح والمناضل والأديب . كما انه نجح في أن يقدم « الشيخ الرئيس » في سياق عصره ، من خلال امتداداته الفكرية في مختلف الأنشطة والميادين . وكما ذكر الجندي في تقديمه لمؤلفه عن الامام أبو حنيفة ، فانه قدم لنا « صورة لا سيرة » للامام محمد عبده . ومنهجه هذا يثير اكثر من قضية في كتاب التاريخ الاسلامي المعاصر ، لعل أهمها مسألة « التواصل » في قراءة وقائع ذلك التاريخ ، وكيف أن مسيرته هي في الحقيقة بمثابة حلقات متداخلة ومتفاعلة ، وليست فصولا مستقلة عن سابقاتها ولاحقاتها ، كما توحي بذلك أكثر المعالجات التاريخية المعاصرة التى بين أيدينا .

ضمير الأمة

من الصور التي يرسمها الجندي ببراعة في تقديمه لعصر الامام ، ما ينقل الينا واقع الأزهر في ذلك الزمان (النصف الثاني من القرن الماضى) . وهو في ذلك يعتمد على تقرير رسمي أعدته لجنة لاصلاح الأزهر برئاسة فهمي باشا زغلول ، ويقول فيه : كان الكثيرون من أهل (الأزهر) يعتبرون استبدال الحنفيات بالميضات منافيا للدين ، وتعهد الكتب بالحفظ والصون في مكان خاص مخالفا للدين ، وتعليم العلوم الحديثة مفسدا للدين !

وهو يقارن ذلك بعصر سالف ، كان الأزهر يدرس فيه ، علاوة على علوم الفقه واللغة ، « علوم الحساب والجبر والميقات والمقابلة والمنحرفات ، وأسباب الأمراض وعلاماتها ، وعلم الاسطرلاب والزيج ، والهندسة والهيئة ، وعلم الارثماطيقى وعلم المزاولة ، وعلم وعلاج البواسير ، وعلم التشريح وعلاج لسع العقرب ، وتاريخ العرب والعجم » .

ويستمر في رسم واقع ذلك العصر ، حتى يصل الى الحملة الفرنسية ، وأحداثها داخل حرم الأزهر وشيوخه ، مثل حسن العطار والجبرتى ، وكيف أن مدافع الفرنسيين نبهتهم الى حقائق العالم الذي انفصلوا عنه وأداروا ظهرهم له .

من هذا الباب نطل على محمد عبده في داخل الأزهر ، ونتوقع ما يمكن أن يلقاه وهو ذو العقل الكبير والطموح الواسع ، ثم نتصور ظروف لقائه مع جمال الدين الأفغاني الذى وفد على مصر سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧١م) .. وهو اللقاء الذي كان له دوره المؤثر في مسار العقل العربي والاسلامي فيما بعد .

ومن الجوانب التى يسلط عليها الجندى الضوء في شخصية محمد عبده ، دوره كصاحب قلم ، برز أثر تعيينه محررا أول في جريدة الحكومة الرسمية التى عرفت باسم (الوقائع المصرية) . ونجاحه في استصدار لائحة للمطبوعات (سنة ١٨٨١ م) تخول جريدة الحكومة حق نقد الحكومة والمحاكم والأفراد ! .. وهو في قيادته لسفينة الوقائع ، يستعين بعدد من تلاميذ الأفغاني ، الذين تشبعوا آراءه في التجديد والاصلاح ، وتمثلوا شجاعته وصلابته في الحق . وعلى رأس هؤلاء الشيخ عبد الكريم سلمان (الذى سيرأس الوقائع فيما بعد ويرفض نشر قصيدة لشوقي في مدح الخديوي) ، وسعد زغلول الزعيم الوطني الذي برز لاحقا وقاد ثورة ١٩١٩ .

في الوقائع ظل قلم محمد عبده يصول ويجول ، ناقدا وموجها ، ومعبرا عن ضمير الأمة في كل اتجاه . فانتقد وزارة التربية والتعليم ووزيرها ، حتى شكل مجلس أعلى للمعارف يضع السياسة العامة للوزارة ، وكتب عن نظام السخرة يقول : وليعلم المديرون والأهالي جميعا أن الأهالي ليسوا عبيدا لأحد .. ، وهى العبارة التى غاصت في الضمير الوطنى حتى رددها أحمد عرابي فيما بعد ، وهو يواجه الخديوي توفيق باسم المصريين .

وعندما حدثت مؤامرة احتلال مصر بواسطة الانجليز ، وانحاز الخديوي توفيق للمحتلين ، كان محمد عبده في صدارة الذين اجتمعوا للتصدى للمؤامرة . وفى اجتماعهم تليت فتوى مشيخة

الأزهر بمروق الخديو عن الدين لانحيازه الى الجيش المحارب لبلاده . وكان الامام هو واضع صيغة اليمين التى تقاسمها الجميع للدفاع عن الوطن ، وهو الذي قاد الدعوة للتطوع لصد الخطر الماثل .

وكان ذلك سببا كافيا لمحاكمته ونفيه الى بيروت لمدة ثلاث سنوات . وهو النفى الذى قدر له أن يكون بابا خرج منه محمد عبده ليثرى تجربته ، ويطوف بباريس ولندن وتونس وصقلية ، فضلا عن لبنان .

مصنع الرجـــال

بعد العودة بقليل ، جاء دوره كقاضٍ ، قدر له أن يتـولى المنصب والمحاكم تطبق القانون الفرنسي ، « فأخذ الشيخ يحكم بأصول شرعية تمكنه بعمومها وعدالتها من احتواء احكام القانون الفرنسي أو تفادى تطبيقه . . كان سيحدث صلحا بين الخصمين حتى لا يحكم « بالفـائدة » في المال . . أو يحكم بالعدل لا بالنص في قضية ويسأله المستشار القضائى الأجنبى ، بناء على شكوى ، فيجيبه بسؤال : هل العدل وضع لأجل القانون ، أو القانون وضع لأجل العدل ؟ » . وطارد الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، كان محمد عبده يصدر الحكم ويشفعه أو يسبقه أحيانا بدروس مواعظ يلقيها على المحكوم عليه والجمهور ، إلقاء يشعر الجماهير والمحكوم عليه نفسه ، أنهم في حضرة أب ومصلح كبير .

ويستأثر دور محمد عبده كمصلح باهتمام المستشار الجندى ، الأمر الذي دفعه لأن يقف طويلا أمام جهده في انشاء الجمعية الخيرية الاسلامية (١٨٩٢ م) ، بعدما أسهم الرجل في انشاء جمعية المقاصد الاسلامية اثناء وجوده في بيروت ، والعروة الوثقى إبان اقامته في باريس .

وقد نجح الجندى في ابراز دور الجمعية الخيرية في الحياة الاجتماعية والسياسية بمصر ، وتتبع اعضائها حتى بعد وفاة الامام ، ليصور لنا ثمار الغرس الذي وضعته أيدي محمد عبده ، ومدى التـأثير الـذي أحدثه ليس فقط في العقل المصرى ، ولكن في الواقع المصري أيضا .

وهو يقول ان الجمعية الخيرية الاسلامية ولدت « لتكون جماع فروع شتى للخدمة العامة ، يتألف من مجمعها بحر زاخر من الانجازات التى صنعت مصر الحديثة . . حتى انك لا تكاد تجد اسما لرجل عمل لمصر عملا ضخما في النصف الأول من القرن العشرين ، الـذي يحمل على كتفيه النصف الثاني في شموخ ، لم يكن عضوا في هذه الجمعية » .

التقى على تأسيس الجمعية مع الشيخ الامام ، خمسة من رجال مصر البارزين هم : سعد زغلول وقاسم أمين وحسن عاصم وعلى فخرى ومن بعدهما مصطفى الهلباوى وجميعهم من أعلام القانون وأركان العدل .

وكان للجمعية إسهامها العريض في انشاء المدارس والاهتمام باللغة العربية التى أهملها الانجليز ، وفي إعانة المحتاجين بمختلف الصور ، وفي حث الجميع على إقامة المشروعات المنتجة والخيرية ، ولا يزال باقيا باسمها الى الآن المستشفى العلاجى الكبير المقام على النيل بحى الدقى في القاهرة .

من الجمعية الخيرية خرجت فكرة انشاء الجامعة الأهلية في مصر . وكلف الامام أحد أعضائها (المنشاوى باشا) بشراء الأرض من الحكومة ليقف عليها عشرة آلاف فدان . ومنها خرجت فكرة تمصير الصناعة المصرية ، التى نادى بها طلعت حرب باشا ، الذى كان سكرتيرا للجمعية . ومنها خرج خمسة من رؤساء الوزارات المصرية ، وأربعة من زعماء الأحزاب . وقائمة لا حصر لها من الرموز المشرقة ، التي عرفها تاريخ مصر الحديث .

في الصفحات الأخيرة من الكتاب ، وتحت عنوان « التلاميذ » يقدم لنا المستشار الجندى عرضا لجانب من ثمرات جهد الامام محمد عبده ، مستعرضا أدوار سعد زغلول وعدلى يكن وحسين رشدى ومحمد محمود ، من رؤساء الوزارات والأحزاب الدستورية المصرية ، ثم الشيخ محمد مصطفى المراغى ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، من شيوخ الأزهر الكبار ، الذين تركوا بصمات لا تنسى في مسيرته .

وفى ختام استعراضي تلك الرحلة الفذة كتب المؤلف يقول : . . وبقى محمد عبده في التاريخ الحديث ، كالجبل العالى الذى يملأ الأفق ، ويدعو الناظرين للصعود ، أوكرافد للنيل ، جديد ، يسقى شاربيه من ينابيع الحقيقة السمحة فيوضاً صافية من الحرية لا التعصب ، والاجتهاد لا التقليد ، والايقاع السلفى لا الابتداع غير المسئول .

الحـلقـات المفقـودة

ان أهم ما في كتاب الجندى ، ليس فقط الجوانب التى ألقى عليها الضوء ، فى تقديمه لشخصية الامام محمد عبده ، ولكنه المنهج الذى اتبعه ليرسم الصورة ويسبر أغوار الشخصية التى يتناولها . وقد كان من شأن السلف أن يعتوا بتلك الجوانب في تعريف الاعلام . حتى أننا نستطيع أن نتعرف بيسر على من تعلم الفقه ، ومن خالط ، ومن هم تلاميذ حلقته أو امتداد فكره حتى بعد عدة قرون لاحقة ، وهو ما تكفلت به الى حد كبير كتب طبقات الفقهاء .

منهج التواصل هذا ، نحن أحوج ما نكون إليه في قراءة تاريخنا الحديث . فلم تتوفر لنا دراسة مثلا عن العلاقة بين الوهابيين والسنوسية والمهدية ، وهى التيارات الاسلامية التى ظهرت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، والتى لعب فيها « الحـج » دورا كبيرا ، اتاح فرصة التفاعل والتلاقح بين الأفكار التى انتشرت بعد ذلك في السودان والشمال الأفريقي .

ولم تتوفر لنا دراسة عن العلاقة بين حركة الاخوان المسلمين في مصر ، وجمعية العلماء الجزائريين ، والجماعة الاسلامية في الهند ، وثمة شواهد تشير إلى أن العلاقة قائمة ، بينها على سبيل المثال ان كلا من جمعية العلماء الجزائريين والاخوان المسلمين أصدر مجلة تحمل نفس الاسم « الشهاب » ، وهو ليس من الأسماء الشائعة التى قد يتفق عليها الاثنان بمحض الصدفة .

فضلا عن أن حسن البنا ذكر الشيخ عبد الحميد بن باديس ، رئيس جمعية العلماء ، أكثر من مرة مع تلاميذه . بينما أيضا أن كتب أبو الأعلى المودودي مؤسس الجماعة الاسلامية في الهند سنة ١٩٤١ ، ترجمت بواسطة لجنة الشباب المسلم في جماعة الأخوان ، بعد صدورها بقليل ، ونقلها عن الأردية والانجليزية بعض المسلمين الهنود الذين كانوا يدرسون في الأزهر ، ولهم علاقات وثيقة بقسم الاتصال بالعالم الخارجي في الاخوان .

ولم تتوفر لنا دراسة حول حقيقة الملابسات التى دفعت شخصية جزائرية مثل الفضيل الورتلاني ، لأن تلتقى مع الاخوان في مصر ، والعلماء اليمنيين ، ليسهم الجميع في محاولة الانقلاب التى جرت سنة ١٩٤٨ على الامام يحيى في صنعاء سنة ١٩٤٨ .

ايضا لم تتوفر لنا دراسة حول العلاقة بين الغاء الخلافة الاسلامية في تركيا ، وظهور الاخوان المسلمين سنة ١٩٢٨ ثم علاقة هذا التيار بحزب التحرير الاسلامي الذي ظهر في الاردن ، وعلاقة هؤلاء بجماعتى التكفير والجهاد اللتين ظهرتا مؤخرا في مصر .

والنماذج كثيرة وبغير حصر ، لكنها جميعا تؤكد حاجتنا الى اكتشاف حقائق ذلك النسيج المؤثر في الواقع والعقل الاسلاميين . . وربما ساعدنا ذلك على ان نعرف المزيد عن أنفسنا ، وحاضرنا ، ومستقبلنا .

في مسألة "طابة"

أرض مصرية منذ قرون.. لا يريدون الجلاء عنها طواعية واختياراً

بقلم: درويش مصطفى الفار

لا أظن أن فيما تجري به الأحداث ، وتتناقله الأخبار ، شيئاً أكثر دلالة على الوقاحة والصلف ومغالطة التاريخ ، من مسألة طابة ، التي تعودت الصحافة العربية على أن تكتبها طابا .. فهي بقعة من الأرض العربية المصرية .، منذ قرون كثيرة خلت ، ولكنهم لا يريدون الجلاء عنها طواعية واختياراً ، إلا بعد التحكيم ، وقد لا يخضعون للتحكيم أيضاً ، فهم لا يؤمنون بغير القوة.

جاء في بردية [هاريس] على لسان السلطان رمسيس الثالث (١١٩٨ ــ ١١٦٧ ق م) ما معناه :

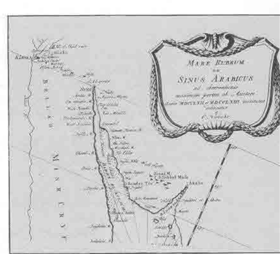
« لقد أرسلت بعثاتي التعدينية إلى أرض [أتيقا] بالقوارب والسفن بحراً ، وعلى ظهور الحمير والآتن براً ، فوجدوا المناجم زاخرة مفعمة بالنحاس ، وأودعوا ما حصلوه في المخازن ، آلافاً من السبائك في لون الذهب الإبريز ، فلما بهرني منظرها أمرت بعرضها على أبناء شعبي لكي يفرحوا كما فرحت ... وكذلك أرسلت بعثات إلى أرض [المفكات] بلاد أمي العزيزة [حت ــ حور] سيدة الفيروز ، ولا أتصور أنه سوف يحظى بمثل ذلك أي ملك بعدي أبداً .. »

وظل علماء التاريخ في حيرة يتساءلون عن أرض « أتيقا » تلك ، حتى سنة ١٩٧٢ م حين اكتشف الباحثون المنقبون في منطقة مناجم نحاس [تمناع] التي تقع على بعد أكثر من ثلاثين كيلومترا إلى الشمال الشرقي من طابة ، في صحراء النقب المحتلة ، معبداً مصرياً قديماً ، يرجع تاريخه إلى الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين ، واستطاعوا أن يحلوا رموز نقوش تذكر الملك سيتي الأول (١٣١٨ ــ ١٣٠٤ م) ورمسيس الثاني (١٣٠٤ ــ ١٢٣٧ ق م) ومرنبتاح (١٢٣٧ ــ ١٢٢٣ ق م) وسيتي الثاني (١٢١٦ ــ ١٢١٠ ق م) ورمسيس الثالث (١١٩٨ ــ ١١٦٦ ق م) ورمسيس الخامس (١١٦٦ ــ ١١٥٦ ق م) ، ومن أهم تلك النقوش ذاك الذي يمثل رمسيس الثالث واقفاً قبالة حتحور يقدم لها الهدايا ، باعتبارها ربة التعدين في مصر القديمة ، وكان أول معبد معروف لها قد اكتشف في منطقة سرابيط الخادم إلى الشرق من ميناء أبي زنيمه على الساحل الشرقي لخليج القلزم أو السويس.

ثم عرفت من عالم آثار أمريكي لقيته يوماً في واشنجتن ، أن الحفائر العلمية في وادي غزة بعد نكبة سنة ١٩٦٧ ، أكدت له بالدليل العلمي القاطع أن آخر نقطة إدارية للحدود بين مصر والشام ، ظلت زهاء أربعين قرناً من التاريخ القديم في منطقة [تل القارعة] قرب مدينة غزة المحتلة .. أي أن خط الحدود بين مصر وبلاد الشام ، كان حقيقة جغرافية معلومة عبر القرون إلى الشرق من الخط الذي اتفقت عليه بريطانيا (العظمى) والباب العالي في الآستانة سنة ١٩٠٦ م بين طابة جنوباً ورفح شمالاً ، بعد أن كانت بريطانيا بحكم احتلالها لمصر منذ سنة ١٨٨٢ م قد تنازلت ــ باسم مصر ــ عن ميناء العقبة إلى الدولة العلية سنة ١٨٩٢ م.

ولقد كانت سنة ١٩٠٦ حافلة بالأحداث ، ففيها وقعت حادثة (دنشواي) المشهورة وانعقد أخطر مؤتمر للمبشرين في الشرق العربي ، ونشر السير وليم فلندرز بيتري كتابه الشهير [أبحاث في سيناء] وقال فيه بأن معبد سرابيط الخادم في سيناء كان منبع أول الحروف الأبجدية التي طورها المهندسون والجيولوجيون المصريون وزملاؤهم من أهل مدين وأدوم ، عن الهيروغليفية ليسهل عليهم كتابة التقارير المنجمية والتعدينية ، وفيها وقع حريق سان فرانسيسكو المشهور ، وكانت حادثة طابة.

وطابة ، في لغتنا الجميلة ، اسم من أسماء



خريطة رسمها الرحالة نيبور سنة ١٧٥٧ ونرى فيها سيناء وخليج العقبة ، ولم تكن طابة قد ظهرت مع الأحداث بعد


القائمقام براملي بك بطل إشعال حادثة طابا .

الخمر ، ولا أدري لماذا اطلق على ذلك الوادي الذي يفيض بعد المطر من أعالي سيناء الشرقية الى قرب رأس خليج العقبة ، ولم أجد لتلك الكلمة ذكراً من معجم البلدان لياقوت إلا قوله :

« وطابة موضع في أرض طيئ ، وقال زيد الخيل :

سقى الله ما بين القفيل وطابة
فما دون إرمام فما فوق منشد

ولا أحسبه يعني طابة تلك التي نحن بصددها ..

فطابة التي نحن بصددها ، جزء من ساحل سيناء على خليج العقبة عند مصب واد يحمل اسمها ، وتحمله كذلك بئر احتفرها هنالك (الأميرالاي) سعد بك رفعت سنة ١٨٩٢ عندما أمر باخلاء العقبة ، وقد كان آنذاك (قومونداناً) لسيناء بأسرها وعلى ساحل طابة اللازوردي ، أنشأ الأفاق العالمي (راقي ولسن) ماخوراً للفساد والفجور ، سماه (نادي الشاطئ) وهو الذي لا يزال الى يومنا هذا مورد الفسقة والمنحرفين من جميع أصقاع الدنيا .

والى الجنوب قليلاً من بئر طابة ، وغير بعيد عن الساحل ، توجد جزيرة فرعون التي احتلها (رينودي شاتيلون) وبنى بها قلعة سماها (حصن جرايا) وصنع في يافا سفينتين


رمسيس الثالث يحيي حت ـ حور الهة التعدين لدى قدماء المصريين . هذا الرسم اكتشف في معبد مصرى بجوار مناجم تمناع للنحاس التى تقع الى الشمال من ايلات في النقب الجنوبي من فلسطين المحتلة

نقلهما على ظهور الابل إلى هناك ليستخدمهما في مهاجمة مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وغرقت احداهما واستولى على الأخرى بطل الاسلام صلاح الدين ، بعد أن استولى على الجزيرة ذاتها ونقل إليها سفناً على ظهور الابل أيضاً ، ليحمي الملاحة الاسلامية في البحر الأحمر ، قبل معركة حطين سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) .

وترجع قصة إختيار بئر طابة كآخر نقطة على خط الحدود بين مصر والشام والحجاز إلى إرهاصات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) . فقد أخذت الدول الكبرى في أوائل القرن العشرين في تخطيط استراتيجيتها العالمية . وكان هم بريطانيا (العظمى) حماية قناة السويس ، شريان الامبراطورية ، وتقليص انتماء مصر العربي ....

فأتبعت سيناء لقلم الاستخبارات التابع لجيش الاحتلال ، وعينت المستر براملي سنة ١٩٠٥ مفتشاً لشبه جزيرة سيناء .

وكان هم المستر براملي الأكبر جمع المعلومات عما يصنعه الأتراك من استعدادات عسكرية في ميناء العقبة بعد أن تنازلت عنها بريطانيا باسم مصر للدولة العثمانية سنة ١٨٩٢ كما أسلفنا .

نزل المستر براملي بعساكره في يناير سنة ١٩٠٦ الى نقطة (المرشش) التي أنشئت

في مسألة "طابــة"

مكانها ميناء ايلات إلى الغرب من العقبة منذ أن إجتاح اليهود جنوب فلسطين كله وسموه النقب ، في ١٠/٣/١٩٤٩) ...

فأثار نزول المستر براملي قائد الحامية التركية في العقبة اللواء رشدي باشا الذي طلب إليه أن يرحل على الفور إلى (سيناء) لأنه يعتبر العقبة مسيطرة على المرشش .. وانسحب المستر براملي ، وكان لانسحابة أثره في ظهور اسم طابة في التاريخ الحديث .. انتدبت حكومة الاحتلال في مصر الأميرالاي سعد بك رفعت للذهاب إلى طابا بحراً ، فوجد الأتراك قد احتلوها ، فلم يستطع النزول إلى البر بعسكره وعاد هو والمستر براملي الذي كان قد حضر براً من تخل بطريق وادي طويبة فثارت ثائرة الانجليز في مصر ..

فأرسلوا الطراد (ديانا) في ١٧/٢/١٩٠٦ بقيادة القبطان (فبس هوربني) الذي ألقى مراسيه عند جزيرة فرعون ، وانتدب (نعوم بك شقير) صاحب كتاب (تاريخ سيناء) للتفاوض مع رشدي باشا ، الذي استقبل هورنبي ضيفاً عليه في العقبة ، ورد له الزيارة في الطراد ..

وبدأت المفاوضات بشأن تعيين خط حدود معترف به بين بريطانيا المتكلمة باسم مصر ، وبين الدولة العلية ، وظل الأمر في أخذ ورد ، حتى حدثت قصة مماثلة في رفح بأن غير الأتراك موضع عمودي الحدود ، فارسل الانجليز طراداً آخر بقيادة القبطان (ويموث) ليقف قبالة رفح ، ويرسل الانذار المؤرخ ٣٠/٤/١٩٠٦ إلى قائد حامية رفح التركي يقول فيه :

« حضرة قومندان العساكر الشاهانية برفح » :

نعلم حضرتكم أننا انتظرنا خمس ساعات في بيت التلغراف تجاه معسكركم لأجل مقابلتكم ولا حضر منكم جواب فعدنا إلى الوابور ، وقد لاحظنا أن عمودي الحدود اللذين كانا قائمين على جانبي السدرة التي عسكرتم بقربها قد رفعا من مكانيهما ، ولاحظنا أيضاً أن عمد التلغراف المصري من خط الحدود إلى طريق بئر رفيح قد بدلت بعمد أخرى . فبالنيابة عن الحكومة المصرية والحكومة البريطانية نحتج على فعلكم هذا احتجاجاً شديداً ونطلب أن تعيدوا عمودي الحدود وعمد التلغراف إلى أماكنها وتحافظوا على الحدود المقررة . وسنرسل نسخة من كتابنا هذا إلى رجال الحل والعقد من المصريين والانكليز في مصر ، وإذا أجبتم مخاطبتنا فالطراد لا يسافر من مينا رفح قبل صباح الغد الثلاثاء الساعة ٩ افرنجية » .

ا . و . ويموث قومندان الطراد متوقفاً
معتمد الحكومة البريطانية
نعوم شقير
معتمد الحكومة المصرية .

يقول نعوم شقير في كتابه (تاريخ سيناء سنة ١٩١٦) :

« فسلم السلطان بمطالب انكلترا في آخر ساعة وأمر فخرجت العساكر من (طابا) وعاد عساكر رفح إلى حدهم وكانوا قد كسروا عمودي الحدود ، فصدر الأمر إلى قائمقام بئر السبع (في فلسطين المحتلة الآن) وقائمقام غزة (أيضاً) بتلافي الأمر فحضرا إلى رفح ونبشا عمودين من خرائب رفح ، عموداً من الغرانيت الأسود طوله ٦ أقدام وآخر من الغرانيت الرمادي طوله ٤ أمتار ونصباهما تحت السدرة بقرب مكان العمودين الأولين . وفي ١٤/٥/١٩٠٦ بعث توفيق باشا الصدر الأعظم الرسالة التالية إلى السير نيقولاس أوكونور سفير بريطانيا العظمى بالآستانة يقول فيها :

« .. جناب السفير . تشرفت بالمذكرة التي تكرمتم بارسالها لي في ١٢ الجاري بشأن احتلال طابا . فاسمحوا لي أن أخبركم أنه لم يخطر قط ببال الحكومة الشاهانية الخروج عن مضمون التلغراف المرسل من المرحوم جواد باشا إلى سمو الخديوي في ٨ افريل سنة ١٨٩٢ . ومع ذلك فإن الرسالة التي تشرفت بارسالها اليكم في ١١ الجاري كانت واضحة كل الوضوح فإن (إخلاء طابا) قد تقرر وصدرت الأوامر بذلك ، وقد قر الرأي على أن الضباط أركان حرب الموجودين الآن في العقبة والموظفين الذين ينتدبون من قبل سمو الخديوي يمرون معاً على الأمكنة اللازمة ليجروا التحريات الفنية على مقتضى القواعد الطبوغرافية ويعينوا على خريطة النقط الطبيعية التي يكون بها ضمان الحال الحاضرة وبقاء القديم على قدمه في شبه جزيرة سيناء على القاعدة التي وضعها جواد باشا في تلغرافه السالف الذكر ، وان يرسموا خطاً للحدود يبتدىء من رفح بقرب العريش ، ويتجه جنوباً بشرق على خط مستقيم تقريباً إلى نقطة على خليج العقبة تبعد على الأقل ٣ أميال من العقبة . وبذلك تكون الرغائب التي أبديتموها سعادتكم في رسالتكم المشار إليها قد تحققت تماماً . هذا وإنا نسأل سعادتكم أن تبلغوا ذلك إلى لندن ، ونأمل أن حكومة جلالة الملك ترى



أول عمود بني لتبيان الحدود ١٩٠٦ بين مصر وتركيا عند رأس طابة

بذلك برهاناً جديداً على رغبتنا الشديدة في دوام حفظ العلائق بيننا على دعائم المودة التامة ، وأن في إبداء حكومة جلالته تمام ارتياحها لذلك دليلاً على القيمة التي تعلقها على حفظ وتوطيد العلاقات الحسنة الكائنة لحسن الحظ بين الحكومتين . أفندم . الامضاء . توفيق » .

وهنا أصدر خديوي مصر عباس حلمي أمراً بتفويض سعادتلو ابراهيم باشا فتحي (من أرباب المعاشات) وعزتلو الأميرالاي أوين باشا الانكليزي على رأس لجنة تضم مهندس المساحة المستر كيلن والمستر ويد والكاتب المستر افنسن والطبيب الانكليزي القائمقام براكنرج بك والمترجم يوسف بك سامح . وتحركت هذه اللجنة من مصر يوم الخميس ١٩٠٦/٥/٢٤ قاصدة العقبة بطريق البحر ، ووصل الجميع إلى جزيرة فرعون مساء السبت ١٩٠٦/٥/٢٦ . وفي صباح اليوم التالي التقت اللجنة بمندوبي تركيا في العقبة اللواء رشدي باشا وياوره محمد اسعد بك صاغ أركان حرب عربي من أهل بيروت والأميرالاي أركان حرب أحمد بك مظفر والبكباشي أركان حرب محمد بك فهمي الكردي الأصل .

وبدأت أعمال المساحة اعتباراً من [أنف الجبل الذي على شاطئ الخليج ويطل على وادي طابا من الشرق] ثم يتمشى على رءوس تلال النقب التي تطل على العقبة إلى المفرق قالوا لأن هذا الحد وحده يضمن سلامة العقبة من الوجهة الحربية .

وحاول الأتراك انتزاع جزء من سيناء . ولم يوافق فتحي باشا ، واستعان بالبدو من سكان المنطقة ، واستغرقت المناقشات المدة من ٨ إلى ٢٢ يوليو سنة ١٩٠٦ . ورجع كل فريق إلى حكومته حتى تم ما يسمى تاريخياً باسم [اتفاق الحدود] في ١٩٠٦/٩/١٣ وفيه :

١ ــ إن الحكومة العثمانية أقرت على أن النقب من [رأس طابا] الشرقي إلى نقطة قرب المفرق يكون للعقبة وأما المفرق نفسه وآبار مايين وعين قديس وعين القديرات وعين القصيمه تكون لجزيرة سيناء .

٢ ــ أن تقام أعمدة على طول خط الحدود للدلالة عليه بحضور مندوبي الفريقين .

٣ ــ إن القبائل القاطنة على جانبي الخط يكون لها حق الانتفاع بالمياه كجاري العادة . وكذلك العساكر الشاهانية وأفراد الأهالي

الكولونيل باركر (باركر بك) ابن أخت اللورد كتشنر أول محافظ انجليزي لشبه جزيرة سيناء إثر حادثة الحدود سنة ١٩٠٦ (كان ينطق اللغة العربية بلهجات البدو)

والجندرمة ينتفعون من المياه التي بقيت غربي الخط الفاصل .

٤ ــ أن يبقى الأهالي والعربان على ما كانوا عليه قبل من حيث ملكية الأراضي والمياه كما هو متعارف بينهم . ووقع الفريقان في صباح ١٩٠٦/١٠/١ على الاتفاق والخريطة المكتوبتين أصلاً باللغة التركية ومعهما ترجمة بالعربية وأخرى بالانكليزية .

وقد جاء في شرح الاتفاقية التي تبودلت رسمياً في رفح في ١٣ شعبان المعظم سنة ١٣٢٤ ــ أول اكتوبر سنة ١٩٠٦ ، انها قد وقعت لتعيين خط فاصل اداري بين ولاية الحجاز ومتصرفية القدس وبين شبه جزيرة طور سيناء .

وفيها يقول شرح المادة الأولى [إن هذا الخط يبدأ كما هو مبين بالخريطة المرفقة بهذه الاتفاقية من نقطة (رأس طابا) الكائنة على الساحل الغربي لخليج العقبة ويمتد إلى قمة جبل (فورت) ماراً على رءوس جبال طابا الشرقية المطلة على وادي طابا] .

وقد بدأت اللجنة في غرس الأعمدة ، وكان عددها واحد وتسعين عموداً ، وكان أولها قد غرس في ميناء رفح بعد ظهر يوم الخميس ١٩٠٦/١٠/٤ وآخرها على رأس طابا يوم الأربعاء ١٩٠٦/١٠/١٧ بعد غروب الشمس .

وفي ١٩٠٦/١٢/٤ تحرك إلى طابا سبعة وثلاثون جندياً مصرياً بقيادة (اليوزباشي) اسماعيل أفندي المفتي ومعه الملازم غالي أفندي زكي والملازم الثاني علي أفندي حلمي من الأورطة الرابعة مشاة ، وخمسة عساكر بتاتين من قسم الأشغال وعسكري تومرجي من القسم الطبي ، وكان وصولهم في ١٩٠٦/١٢/٧ م ، والتقوا مع مندوبي تركيا في ١٩٠٦/١٢/٣٠ م واتفقوا على شكل البناء المطلوب بدل الأعمدة بمشورة القائمقام الفريد باركر الذي عين (مديراً) لسيناء ، والتقى مع اللجنة في طابا التي جاءها من نخل بطريق البر . وكان أول عمود بنوه على رأس طابا يوم السبت ١٩٠٦/١٢/٣١ م وأعطوه رقم (٩١) وكان آخر عمود بنوه على تل رفح عند الميناء في ١٩٠٧/٢/٩ م ، ورقموه بالرقم (١) .

وقد بلغت أجور الجمال التي كانت تنقل المياه ومواد البناء لهذه العمد (٧١٧،٠٤٠ جنيها) وكان جملة ما أنفقته مصر على تحديد التخوم نحو عشرين ألف جنيه ، في زمن كان الجنيه المصري يزيد في قيمته عن الجنيه (الاسترليني) بثلاثة قروش ؟

ويدور في رأسي سؤال :

لماذا اقترح الأتراك أن تكون نقطة الحد المصري بعيدة عن العقبة بما لا يقل عن ثلاثة أميال ، ولماذا قبل البريطانيون ذلك دون امتعاض أو معارضة ؟

هل يكون لمؤسسة [الدراسات الفلسطينية] التي تكونت في بريطانيا سنة ١٨٦٤ وأكملت بدعوى الابحاث اللاهوتية خريطة لفلسطين سنة ١٨٨١ أم للمؤسسة الألمانية المشابهة والتي أنشئت في ألمانيا سنة ١٨٧٨ تحت اسم [الدراسات الألمانية الفلسطينية] دخل ما بحيث يظل هنالك فراغ بين العقبة وطابا يصلح مستقبلاً لإنشاء ميناء لدولة اليهود على شاطئ خليج العقبة ؟

لا أظن أن ذلك أمر غير ممكن ، فهم يخططون في هدوء وتؤدة وبحث علمي منظم ، ونحن لا زلنا نتاجر في بضاعة الشجب والاحتجاج والتنديد والاستنكار وهي بضاعة لا تصنع التاريخ ، ولا تغير خريطة العالم فاعتبروا يا أولي الألباب

درويش مصطفى الفار

حياتها في قصيدة..



في الثاني عشر من شباط فبراير من هذا العام ١٩٨٦ ، وفي أحد مستشفيات مدينة دمشق ، أسلمت عزيزة هارون روحها الى بارئها في أعقاب نوبة مرض مفاجئة لم تمهلها على فراش الداء طويلا .

وعزيزة هارون شاعرة طراز وحدها في هذا الزمن الذي برزت فيه شاعرات عربيات كثيرات ، تميّزن بالثقافة الواسعة والموهبة المبدعة وبالجرأة في التفكير والتعبير ، وتصدرت دواوين شعرهن واجهات المكتبات فوازيّن في المنزلة مشاهير الشعراء من الرجال . لم يتح لعزيزة هارون ما أتيح لزميلاتها من حظوظ الدراسة الاكاديمية أو فرص الانتساب الى معاهد التعليم العالية . فهي قد تثقفت على نفسها واستمدت معارفها من قراءاتها الشخصية ، فنظمت الشعر مدفوعة بموهبتها الأصيلة وبتوهج أحاسيسها قبل كل شيء . ولذلك كانت العاطفة في ما نظمته هي المهيمنة أكثر من الفكر ، وكانت الرقة طابعها أكثر من العمق ، ولذلك حمل شعرها من خصائص الأنوثة أصفاها ، مما تؤثره متطلبات الخلق العربي في المرأة العربية مهما بلغت النبوغ أو الشهرة . من هذه الخصائص أعدد اللين والودعة ، والحنان والخفر ، بعيدا عما اجترأت عليه كثيرات من متفوقات الأدب النسوي في أيامنا هذه من ثورة أو تمرد ، أو من مصارحة جارحة في تحليل دوافع عاطفة الأنثى نحو الرجل الذي تحبه أو تكرهه .

هذه الخصائص نفسها من لين ووداعة وحنان وخفر ، وهي ما نستطيع أن نسميها بخصائص الطفولة ، كانت كذلك خصائص سلوك عزيزة هارون في حياتها ، وخصائص جمال محياها الذي كانت أشعارها صورة منه أو انعكاسا له . وقد ظل جمالها ذاك ، حتى بعد أن قطعت في حياتها شوطا متقدما ، يحمل الطابع الطفولي ، مثلما ظلت أشعارها ، حتى بعد أن خاضت تجارب الحياة وتمرست بمحنها ، غنائية بريئة حتى السذاجة ، بعيدة عن التعقيد الفكري أو تلاطم العواطف الهوج ، ولعل من خصائص الطفولة تلك أن هذه الشاعرة لم تترك لنا ديوانا مطبوعا على كثرة ما أتيحت لها الفرصة لأن تفعل ذلك . فقد كان

بقلم : د. عبد السلام العجيلي

في نفسها تخوّف من أن لا يكون لشعرها المجموع في ديوان أثر قصائدها في نفوس مستمعيها حين كانت تطلع عليهم بمحياها المشرق وتتلوها بصوتها العذب . بل انها كانت تبدو حقا كطفل في دهشتها أمام من تراه يعجب بمقطوعاتها الشعرية ، كأنها ما كانت تتوقع اعجابا بهذا الكلام الذي يندفع على لسانها ببساطة وصدق وعفوية.

وعلى الرغم من تواضع عزيزة هارون ، أو من ضعف اعتدادها بنفسها ، ومن قلة استجابتها الى ما كان يوجه اليها من دعوات الى القاء قصائدها ، فان شخصها وشعرها كانا دوما موضع التقدير في المهرجانات والامسيات الادبية التي شاركت بها في بلدان الوطن العربي المختلفة . وليس من أهون معطيات ذلك التقدير ما كانت تثيره موهبتها ، المقرونة بالجمال المقرون بالخلق الكريم ، من اعجاب تحوّل عند بعض المبدعين الى روائع . ويقطع كثير من المتأدبين ، في سورية بصورة خاصة ، بأن واحدة من أجمل قصائد الشعر العربي في عصرنا الحاضر ، وهي قصيدة « اللهب القدسي » ، انما استلهمها شاعرها الكبير من عاطفة حملها ذات يوم لهذه الشاعرة . وقد زادهم تأكدا من ذلك ان اسم ملهمة القصيدة ، « نعْم » ، الذي ورد فيها حين نشرت في العدد الأول من مجلة شعر عام ١٩٥٧ ، قد أزيحت عنه التعمية عندما ظهر ديوان الشاعر الكبير في عام ١٩٧٨ ، فأصبح « عَزّة »:

مدلّـةٌ فيكِ ، ما فجـرٌ ونجمتـه
مولّـهٌ فيكِ ، ما قيسٌ وليلاه
سكبتِ قلبـكِ في وجـدانه قرأت
يا عزّ ما شئت ، لا ما شاء عيناه

أما كاتب هذه السطور فقد كان من حظه أن استمع في مناسبتين مختلفتين الى رواية صديقيه ، الشاعرة الرقيقة والشاعر الكبير ، عن الظروف التي تمخضت عنها تلك الرائعة التي هي قصيدة « اللهب القدسي » . ما سمعته من الشاعر كان اعترافا عاطفيا مهذبا وعفّاً . أما ما قالته الشاعرة فكان عتبا رقيقا يذكّر بعتب ليلى العامرية على قيسها كما أورده شوقي في مسرحيته « مجنون ليلى » :

قد تغنّى بليلة الـغيل، ماذا
كان بالـغيل بين قيس وبيني

* * * *

هذا الوجه الشاعري الغنائي ، الذي وصفتُه بالليل والوداعة والحنان والخفر ، هو الوجه الظاهر من شخصية عزيزة هارون ، كان يراها به قراء شعرها والمستمعون اليها في الامسيات التي تنشد فيها قصائدها . الا أن ثمة وجها آخر لهذه الشخصية يعرفه ، جملة أو تفصيلا ، من داناها أو من بلغ علمه بعض ما لقيته من دهرها وظروفه . هذا الوجه الأخير ليس كله شعرا غنائيا ، إذ أن فيه المعاناة وقسوة القدر وجور المجتمع ، وفيه كذلك سوء فهم الآخرين وظلمهم في أحكامهم المبنية على الجهل وسوء التقدير .

كل ذلك استهدفت عزيزة هارون له . ولكونها شاعرة . فان الآلام التي تمرست بها تحولت بموهبتها الى عناصر خلق وابداع . حرمانها من الولد ، على الرغم من زيجاتها الثلاث ، كان باعث غنائها الاطفال في شعرها ، لا غناءً بكائيا تندب حظها وحسرتها من الحرمان ، بل أناشيد محبة وعطف واشفاق . اما تلك الزيجات الثلاث ، التي يعدها عليها من لا يعرف الحقائق مآخذ ، فقل أنْ تسربت تأثيراتها بها الى شعرها . حتى أصدقاؤها الخلص وصديقاتها العزيزات ما كانوا ولا كنّ على معرفة بكل ما فعلته تلك التأثيرات بنفسها احساسا وتفكيرا . وحين كانت تُقدَّم اليها عروض بحياة زوجية جديدة من أناس ذوي اسم وقدر ، وذلك بعد تحللها من زواجها الأخير ، كانت تقابل تلك العروض بابتسامة أسى ، متغلبة على المغريات بتذكر ما عانته من قدرها في الايام السالفة . هذا ما كانت تبثه ، في بعض الاحيان وفي مناسبات تضطرها الى ذلك ، الى من يهمهم خيرها من أصدقاء وصديقات ، وتبثه في كلمات قليلة مشحونة لمن يدرك ما وراءها بالمعاني الكثيرة .

الا أنه ، مع كل تباعد عزيزة هارون عن الشكوى ، وفيما يحسبه الآخرون رضى عن نفسها وقناعة في ما تتحدث به أو تنظمه شعرا ، فان المصدور لابد له أن ينفث . ومن نفثات صدر هذه الشاعرة قصيدة نشرتها هي منذ عشرين عاما ، وعلى التحقيق في شهر تشرين الثاني - نوفمبر من عام ١٩٦٦ ، في مجلة المعرفة السورية ، في عددها السابع والخمسين ، عنوانها « الغابة » . اذكر اني كنت قرأت تلك القصيدة عند ظهورها ، منذ عشرين عاما ، فترددت في وجداني اياما كثيرة ، اذ رأيت فيها سوداوية قل ان عبرت عنها صاحبتها قبل ذلك . وعندما بلغني نعيها وعدت الى القصيدة اقرأها من جديد تبينت فيها اكثر من السوداوية والتفجع صورة حياة هذه الشاعرة قصتها علينا في مقاطع كثفت الآلام والاحزان التي كفت لسانها عن التحدث بها الى اقرب المقربين اليها .

من كانت تخاطب الشاعرة بهذه القصيدة التي سأختم بها هذا المقال ، تاركا للقراء ان يتعرفوا من خلال أبياتها الى قصتها المؤسية ! ؟ ليس يهمنا هذا . ولعل هذا المخاطب المجهول لو لبى نداء الشاعرة لتحول مثل غيره وحشا من وحوش الغابة التي تكالبت عليها تمتص دمها وتمزق احشاءها . المهم انها ، على الرغم مما كابدته من وحوش الغابة ، لم تستسلم الى اليأس والقنوط . لقد ظلت ترى في نفسها زهرة لم يدركها الذبول ونجمة لم يدركها الافول ، تأمل في ان تتنفس الحياة مع من يقدّر نضرتها ، فيسكره شذاها ويستنير بضيائها :

تعال الىّ اليـأس بعـد الجـور والظلمةْ
فروحـي لم تزل روحـي واني لم أزل نجمـةْ
أداعب شعـري الحـاني تداعب شعري النسمةْ

قلت اني سأترك للقراء ان يتعرفوا على حياة عزيزة هارون ، او على احد جوانب تلك الحياة ،

حياتها
في قصيدة..

من خلال القصيدة التي اختم بها مقالي . وقبل ذلك اود ان اعرّفهم بطرف من طباع هذه الشاعرة يعين على تقدير دوافعها في بث شكواها بهذا الشكل في تلك القصيدة . وذلك برواية بعض ما شهدته شخصيا منها . فعلى الرغم من ان اقامتي البعيدة عن امهات المدن في سورية لم تكن تتيح لي فرص لقاء كثيرة بعزيزة هارون ، فان صداقتنا العائلية واهتماماتنا الثقافية والادبية المشتركة كانت توثق الصلة بيننا . وكان ذلك يجعل لها عليّ من الحقوق ، عندما توليت في فترة من الزمن بعض المناصب الوزارية ، ما لأصدقائي الآخرين الذين كنت استقبلهم مهنئين وزوارا واحيانا اصحاب حاجات . غير ان عزيزة هارون ، الموظفة في وزارة الاعلام ، تباعدت عن طريق وزير الاعلام الذي كنته طيلة بقائي في ذلك المنصب ، فلم يرَ احدنا الآخر الا بعد تركي له بمدة غير يسيرة وعندما سألتها بعد ذلك عن سبب تواريها عني وتخلفها عندما كنت استفهم عنها ، كان جوابها انها لم تكن تريد ان يؤخذ عليها استغلال الصداقة الشخصية فيما يظن انه مغنم او جاه او نفوذ . .

هذه هي صورة من الترافع الخبي الذي كانت عزيزة هارون تقابل به احداث حياتها ، حتى عندما تحمل اليها الاحداث المزعجات والشرور . فاذا فاضت قريحتها ذات يوم بالألم فعبرت عن مشاعرها في مثل قصيدة « الغابة » ، فذلك يعني ان كيل التحمل والاحتمال عندها قد طفح ، فكانت منه هذه المقطوعات المأساوية الحزينة .

الـغابة

لماذا انـت لم تأت الى الـغـابـة
لتـلقـى قلبـي الـدامـي واوصـابـه

* * *

لقـد قدمـت للنـمـر سني عمـري
فغـلّ الـنـمـر في صدري ومـا صدري
سوى دنـيا من الألحـان والـشـعـر
وذئب الغـابـة الضاري ألم تسمع حكـاياه
فمـنـذ كنـا صغـيرين سمعنـا عن مزاياه



أسـاطير من الـرعـب واهـوالا عرفـنـاه

* * *

لقـد خفت من الـثعلب تسلقت على نخله
كتـيبت من الاسى عني وكنت ليلة طفله
فصوّح زهر ايامي جنون الخوف والعزله

* * *

وفي ليل طويل الـصـمـت لم يغمض به جفني
وثـعـبـان يلف رؤاه من غصن الى غصن
ارقـصـه على الحي فيـسكـر قلبـه حزني

* * *

اداريه وأغـلبه ليرحـم جرحـي الـدامـي

■ كانت دوما موضع التقدير لشخصها وشعرها في المهرجانات والأمسيات الشعرية في مختلف بلدان الوطن العربي

■ على الرغم مما كابدته ، ظلت ترى في نفسها زهرة لم يدركها الذبول ونجمة لم يدركها الأفول

واسقيه الـنـدى المسفـوح من قلبي وإلهامي
ويسـقـيني تبـاريحي ويرشف دمعي الهـامي

* * *

ولـولا طيف جنـية يسـامـرني بليلاتي
لعفـت العيش في بؤسي ولم تزهـر هنيهـاتي
ولم يصبـح عبير الـلحن انـداء بآهـاتي

* * *

عرفت الآن أحـزاني ومـا قاسيت في بؤسي
وكيف نثرت في الغابة بوحي في شذى نفسي
ومـا زال الهـوى يخضل في قلبي وفي كأسي

* * *

تعـال اليّ بعد اليأس بعد الجور والظلمهْ
فروحي لم تزل روحي واني لم ازل نجمـهْ
اداعب شعري الحاني تداعب شعري النسمهْ

* * *

عسى ان جئت تلقـاني أراك حبيب الحـاني
وانـســى بالهـوى نفسي وادرك سر ايماني
وأعـرف أنـني أنثى تعيش بقلب انسـان

* * *

فما زلت اجوب الليل أبحث عن سني عمري
أكـفكف دمـع أشـواقي الى ظل الى زهـر
أجـبو وهـج اشـواقي وينضب منبع السحر

* * *

فواهـاً من كهوف الغـاب من حيّاتـه السود
لقـد عشن بأحـلامي وعـانقن اغـاريدي
وسرن بيقـظتي رعبـا على بؤسي وتشريدي

* * *

وكـم قاسيت في أسري وكنت غريبـة الاسر
افجـر قلبـي الـظمآن احـلامـا ولا ادري

عبد السلام العجيلي
الرقة ـ سورية

الاهتمام بالفقه الإسلامي واجب ديني وعمل حضاري

بقلم : عبد القادر بن محمد العماري

سألني أحد طلبة العلم عن حكم الشرع فيما لو تقدم أربعة شهود على شخص بأنه زنى بامرأة ، ونفذ حد الرجم في الشخص المشهود عليه ، ثم تبين أن الشهود الذين شهدوا كانوا كاذبين في شهادتهم ، وأنهم شهدوا زوراً نكاية بالشخص فهل صحيح أن الشهود الذين شهدوا زوراً يكتفى بجلدهم ثمانين جلدة ويطلق سراحهم بعد أن تسببوا في قتل انسان ؟

فقلت له أولاً : إن الحكم على الشخص بالرجم ليس بسيطاً ، وأنه لا يثبت إلا بصعوبة ، فحتى لو كان الشهود عدولاً ، فعلى القاضي أن يبحث ويتأكد من صحة شهادتهم ، وإذا كان الشخص منكراً التهمة الموجهة إليه ، فمن الصعب اثباتها عن طريق شهادة الشهود الأربعة ، الذين يجب أن يشهد كل منهم بأنه رأى الفعل كالمرود في المكحلة .

فهناك خطوات لقبول الشهادة . أولاً : التأكد من عدالة الشهود وتزكيتهم . ثانياً : تفرقتهم والبحث مع كل واحد على حدة حتى إذا اختلفت شهادتهم ردت ، وأقيم عليهم حد القذف ، لاتهام الرجل بالزنا ، ولا تقبل لهم شهادة أبداً . فلا أعتقد أنه يسهل أن تقوم شهادة على الزنا ، فضلاً أن تكون شهادة مزورة .

وحتى لو كان هناك اعتراف بالزنا ، فيجب أن يكون الاعتراف أربع مرات متفرقات ، ثم أن له الرجوع عن الاعتراف في أي لحظة ، بل ويشجعه القاضي على الانكار ، ويقبل رجوعه عن الاعتراف حتى عند تنفيذ الحد عليه ، بل ان محاولة هربه من تنفيذ الحد يعتبر رجوعاً منه .

وليس غرض الشارع من وضع هذه الحدود الشديدة هو تنفيذها ، بل هو لبيان عظم الجرائم التي جعلت لها هذه الحدود ، فهي عقوبات للتهديد وللتخويف ، أكثر منها عقوبات للتنفيذ . ثم إذا فرضنا أن أشخاصاً شهدوا على شخص بالزنا شهادة زور ، وقتل نتيجة لشهادتهم ، وتبين بعد ذلك أن شهادتهم كانت مزورة ، فيجب أن يقتص من الشهود ، إذ يعتبر ذلك من قبيل القتل العمد ، هذا هو المقرر شرعاً في الفقه الاسلامي ، على اختلاف بين الفقهاء في اعتباره عمداً ، أو شبه عمد ، ولا يقول أحد من الفقهاء أن يجلد الشهود ثمانين جلدة ويطلق سراحهم .

وقال لي طالب العلم السائل ، انه رأى في كتاب باللغة الانجليزية ، لمؤلف انجليزي ، فيه هجوم على الاسلام . ومن جملة ما ذكر في الكتاب أن الاسلام يشدد في مسألة الزنا ، ويحكم بالقتل على الزاني المحصن ، وإذا شهد أشخاص على رجل بالزنا ، ونفذ عليه القتل بموجب شهادتهم ، ثم تبين أن شهادتهم كانت مزورة ، من أجل قتل الرجل ، لا تزيد عقوبة هؤلاء الشهود على جلدهم ثمانين جلدة .

فقلت له : أنا لا ألوم هذا الانجليزي على جهله بالاسلام ، بل لا ألومه على عداوته للاسلام ، فهؤلاء دائماً يسلون خناجرهم وسيوفهم على الاسلام ، بل ألوم المثقفين العرب والمسلمين على جهلهم بتراثهم ، وعدم تصديهم لمثل هؤلاء الأعداء المزورين ، الذين يتعمدون التزوير والتلفيق ، مع زعمهم أنهم علميون ، وأنهم يتحرون الحقيقة ، فجهل بعض المثقفين المسلمين بتراثهم ، أكثر من جهل غيرهم من المؤلفين الغربيين ، وكان واجبهم أن يتعقبوا أخطاء غيرهم ويفندوها ، لا ان يقلدوهم في الأخطاء ويسايروهم .

وقد كنت أقرأ كتاباً لأحد أساتذة الحقوق ، عن جرائم الاهمال ، فإذا هو عندما كان يتحدث عن تطور جرائم الاهمال في القوانين ، وجاء ذكر جريمة الاهمال في الفقه الاسلامي ، لم يرجع الى مراجع الفقه الاسلامي نفسها ، بل اعتمد على كتاب ليون بوشيه الفرنسي ، مما أدى الى أن يذكر معلومات غير صحيحة فيما يتعلق برأي الفقه الاسلامي ، في تعويض المجني عليه ، نتيجة الاهمال من قبل شخص آخر . وقد اجتهد عن حسن نية في تبرير القصور الذي لاحظه ، حسب ما نقله عن ليون بوشيه ، يقول المؤلف نقلاً عن المؤلف الفرنسي : (وبعد الفتح الاسلامي لمصر سنة ٦٤١ ميلادية تغيرت القوانين المصرية ، بما يتلاءم مع الدين الجديد ، دين الاسلام ، فطبقت القواعد الواردة في القرآن الكريم ، وسنة الرسول عليه السلام ، جاء بالقرآن الكريم (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالانثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم) .[1] كما يقول تعالى (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم

الاهتمام بالفقه الإسلامي واجب ديني وعمل حضاري

وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيما)[٢].

يبين ذلك أن مصر بعد أن انتقلت من ولاية رومانية إلى ولاية اسلامية ، اخضعت لقواعد أحكام الدين الاسلامي ، وقد اتخذ الدين الاسلامي جزاءً إنسانيا واجتماعياً في نفس الوقت ، عتق عبد ، ودفع تعويض للمجني عليه ، أو لذويه ، فإن لم يكن لدى الجاني عبد ، وليس من الميسور عليه أن يعوض المجني عليه أو ذويه عما أصابهم من ضرر ، فعليه أن يصوم شهرين ، وعلق المؤلف على ذلك بقوله : من ذلك يتبين أن القرآن الكريم لم يذكر صراحة إلا القتل باهمال ، لذلك يجب أن نتبع القياس والاجتهاد في حالات الضرب أو الجرح باهمال ، ونلاحظ أيضاً أن القانون الاسلامي ، جعل التعويض اختيارياً ، وليس اجبارياً ، فان كان اختيارياً بالنسبة للمجني عليه أو ذويه ، لهم أن يطلبوه أولا يطلبونه ، فقد كان كذلك اختيارياً بالنسبة للجاني فله أن يدفعه أو لا يدفعه ، وان لم يستطع فصيام شهرين ، معنى ذلك أن العصر الاسلامي كان يتميز بأنه عصر ديني ، يؤمن فيه الناس بالله ورحمته ، ويطلبون غفرانه ..)[٣] .

ثم قال بعد ذلك ، ظلت مصر متبعة التشريع الاسلامي ، حتى ظهرت تشريعاتنا الحديثة سنة ١٨٨٣ ميلادية وعدلت سنة ١٩٣٧ ميلادية متبعة التشريع الفرنسي ، آخذة بالمواد ٣١٩ ، ٣٢٠ (ملغاة) عقوبات ، وأصبح الاهمال جريمة يعاقب عليها في مصر ، وللمجني عليه أن يرفع الدعوى المدنية ، مطالباً بالتعويض عما أصابه من أضرار ، كما للنيابة العامة أن تحرك الدعوى العمومية لمؤاخذه الفاعل جنائياً عن خطئه ، المادة ٢٣٨/ ، ٢٤٤/عقوبات ، على القتل والجرح باهمال ..الخ) .

والدكتور عفي الله عنه وإن حرص على أن ينوه بحكمة التشريع الاسلامي في عتق الرقبة ، ونظرته الانسانية في ذلك ، إلا أنه وقع في خطأ كبير في متابعته للأستاذ الفرنسي الذي فهم من الآية أن التعويض اختياري ، فان شاء الجاني أن يدفعه للمجني عليه ، أو لا يدفعه ، ويصوم بدلاً من ذلك شهرين متتابعين ، إذا عجز عن عتق الرقبة ، والآية لا تقتضي ذلك ، فالدية المسلمة إلى أهل المجني عليه ليس الجاني مختاراً في دفعها أو عدم دفعها ، بل هي حق ثابت لأهل المجني عليه ، لا تقبل الاسقاط ، إلا إذا تنازلوا عنها باختيارهم ، كما أنه لو كان للمجني عليه ورثة صغار ، لا يستطيع أحد أن يتنازل عن حقهم في التعويض ، وهذا أمر معروف في الفقه الاسلامي ، فالأمر ليس راجعاً إلى اختيار الجاني ، والآية بينت أن في قتل الخطأ دية وكفارة ، وكل ذلك ملزم به الجاني ، فالدية حق المجني عليه ، والكفارة حق الله ، ولو رجع المؤلف إلى المراجع الاسلامية لما وقع في الخطأ ، والخطأ الآخر الذي وقع فيه المؤلف هو أنه قرر أن الأهمال لم يكن جريمة يعاقب عليها في مصر إلا بعد أن طبق في مصر التشريع الفرنسي ، وقد ظن أنه لا نصوص فقهية اسلامية تعرضت لجريمة الاهمال ، إلا ما جاء في الآية الكريمة ، التي تبع في تفسيرها ليون بوشيه ، الذي أساء فهم الآية ، وجعل التعويض في الاسلام على الجاني اختيارياً ، فإن شاء دفعه ، وإن لم يشأ لم يدفعه .

والمعروف أن القرآن الكريم ليس فيه تفصيلات الأحكام الفقهية ، وانما فيه بعض الأحكام يذكرها لمناسبتها ليقاس عليها ، وتؤخذ تفاصيل الأحكام من السنة ، واجتهادات الفقهاء ، إذ القرآن ليس كتاب قانون قضائي ، حتى تقتصر عليه في الأحكام القضائية ، إذ مهمة القرآن أعم وأشمل ، وكتاب هداية وارشاد ، وليس من مهمته أن يأتي بتفصيلات الأحكام ، وهذه الأحكام القضائية تعتمد على اجتهادات العلماء حسب الوقائع والأحداث ، فيستنبطون الحكم من الكتاب والسنة ، والاجماع والقياس ، والسوابق القضائية في أحكام السلف وأقوالهم من الصحابة والتابعين والذي يجب أن نعترف به أن غلق باب الاجتهاد أثر على حيوية الفقه الاسلامي ونشاطه ، ومع ذلك فإن الفقهاء على مر التاريخ بحثوا في كل المسائل التي تعرض عليهم ، وأصدروا فيها أحكاماً مناسبة لزمانهم مستندين على نصوص عامة وخاصة ، غير أنه ليس هناك حصر وتنظيم للأحكام والفتاوى ، مما جعل بعض الباحثين يتوه في الكتب ، ولا يستطيع أن يستخلص منها ضالته ، ورحم الله عبد القادر عودة الذي قام بجهد مشكور ، عندما ألف في القانون الجنائي الشرعي مجلدين ، كانا بحق فتحاً عظيماً في مجال تقريب الأحكام الشرعية الجنائية ، من فهم الباحثين المعاصرين ، ومقارنتها بالقوانين الوضعية ، فكان هذان المجلدان من أهم المراجع الآن للقضاة والباحثين ، فقد غاص رحمه الله في التراث الفقهي الاسلامي ، واستخرج لآلئ هي أعظم في أصالتها وبريقها ولمعانها ، مما أتت به القوانين الوضعية من نظريات ، وأعتقد أن مؤلف كتاب جرائم الاهمال الذي حظي بشهادة دكتوراه الدولة في العلوم القانونية من جامعة باريس ، ودبلوم معهد العلوم الجنائية من جامعة نانسي بفرنسا ، لو كلف نفسه بالاطلاع على كتاب عبدالقادر عودة ، أو كتابي الشيخ محمد أبو زهرة ، الجريمة والعقوبة في الفقه الاسلامي ، لسهل عليه معرفة حكم الفقه الاسلامي في جريمة الاهمال ، ولعرف كيف سبقت الشريعة الاسلامية أحدث النظريات فيما يتعلق بالموضوع الذي يبحثه .

كيف يدعي أن الاهمال لم يكن جريمة يعاقب عليها في مصر إلا بعد أن أخذت بالقانون الفرنسي ، وهذه نصوص الفقهاء كلها تؤكد وتنص على مسئولية المهمل في الشرع الاسلامي ، إذا ترتب على اهماله ضرر بالغير؟ ومن جملة نصوص الفقهاء مثلاً أنه يؤاخذ الذي يترك غريقاً ولا ينقذه ، ويعتذر بصلاته ، ويحق عليه العقاب ، لأنه يترك اللازم ويعمل ما دونه لزوماً ، كذلك نصوا على مسئولية الطبيب الذي يتسبب باهماله في وفاة المريض ، أو إلحاق الضرر به .

واننا هنا نذكر ما قاله العز بن عبدالسلام فيما يتعلق بالغريق في كتابه (قواعد الأحكام) وقد كان بن عبدالسلام رئيساً للقضاة في مصر في عهد المماليك ، قال : (تقديم انقاذ الغرقى المعصومين عند الله أفضل من الصلاة ، والجمع بين المصلحتين ممكن ، بأن ينقذ الغريق ، ثم يقضي الصلاة ، ومعلوم أن ما فاته من أداء الصلاة لا يقارب إنقاذ نفس مسلمة من الهلاك ، وكذلك لو رأى الصائم في رمضان غريقاً ، لا يتمكن من انقاذه إلا بالفطر ، فانه يفطر وينقذه ، وهذا أيضاً من باب الجمع بين المصالح ، لأن في النفوس حقاً لله تعالى ، وحقاً

> ■ الإسلام أوجب التعاون وكل فعل فيه إنقاذ للنفس البشرية ودفع الأذى عنها

لصاحب النفس . فقدم ذلك على أداء الصوم) .

وجاء في كتاب المحلي لابن حزم ، أن رجلاً استسقى على باب قوم فلم يسقوه ، حتى مات من العطش . فضمنهم عمر بن الخطاب ديته . ومعلوم أن الحكم بالدية إذا كانوا قد امتنعوا عن سقيه نتيجة اهمال . أما إذا كان الامتناع متعمداً من أجل قتله فإن عليهم القصاص ، كمن يحبس شخصاً ويمنعه الطعام والشراب حتى يموت . فإن هذا يقول عنه الفقهاء ترك قصد به القتل . فهو ترك يحمل معنى الايجاب . ونص الفقهاء أن الأم إذا منعت ولدها الرضاع حتى مات فقد قتلته ، إن قصدت ذلك ، وكذلك إذا تركت الأم سرة ولدها من غير ربط . ولا يخفى أن الفقهاء لهم وجهات نظر مختلفة في هذه الأمور . كغيرها من الموضوعات التي تختلف فيها الاجتهادات ، وفي مثله جرائم الترك ، وجرائم الفعل . يقول الشيخ محمد أبو زهرة (وإنه بعد استعراض الآراء المختلفة والمناهج المختلفة ، ننتهي بلا ريب إلى أن فقهاء المسلمين قد سبقوا إلى دراسة الموضوع دراسة وافية من كل ناحية . حتى الأمثلة التي يسوقها العلماء في الفقه الحديث هي بعض الأمثلة التي ذكرها الفقهاء المسلمين قديماً . ولعل النقل الذي نقلناه عن ابن حزم يوضح تمام التوضيح كيف كان يربط ابن حزم بين الترك والجريمة ربطاً يجعله سبباً بها . وكيف يكون بفرض العمد والخطأ . وهو نص لم نظفر بمثله موضحاً مبيناً محرراً في الكتب التي تصدت لبيان وضع هذه الجريمة في القوانين الحديثة . وأنا لهذا أسجل سبق المسلمين إلى تحرير هذه الجريمة بما لم يسبقوا بمثله ، وإنه بالمقارنة بالفقه الحديث والفقه الاسلامي ، نجد الفقه الحديث يتلاقى مع مذهب أبي حنيفة في الجملة . فأبو حنيفة لم يعتبر أن الجريمة بالترك تكون عقوبتها كعقوبة الجريمة بالفعل ، وإن كان يفرض لها عقوبة ، ولا يخليها من معنى الاجرام . ولذلك يقرر فقهاء المذهب الحنفي ، أن من يكون في بادية ، ومعه فضل ماء ، وبجواره شخص لا ماء معه ، ويغلب على ظنه أنه سيموت إن لم يشرب من ماء صاحب الماء ، وامتنع الآخر عن سقيه فقاتله فقتله . فانه لا دية له . لأن المنع اعتداء . فكان طالب الماء حاله حال المعتدى عليه . وهذا يدل على أن أبا حنيفة يعتبر الترك إجراماً . وإن لم تكن عقوبته هي عقوبة الفعل في الجريمة ، والفقه الألماني يتقارب مع مذهب مالك والظاهرية ، وإن كان دونها لأنه اعتبر الترك جريمة إذا كان تركاً لواجب قانوني . بينما هذان المذهبان وغيرهما لا يفرقان في مثل هذه المسألة بين واجب قانوني وواجب ديني . لأن الواجب الديني إذا ترتب على تركه تعريض حياة للتلف ، يتحول إلى واجب قضائي ، وإن ذلك مقرر حتى في مذهب أبي حنيفة ، فإرضاع الأم لولدها واجب ديني عليها ، ولكن إذا كان الولد لا يلقم إلا ثديها ، أو لم يكن للولد ولا لأبيه مال يستأجر به ظئراً لترضعه . ويخشى على الولد الهلاك ، فإن ذلك الواجب ينتقل من الواجب الديني المجرد إلى الواجب القضائي ، الذي يحكم به القضاء ، ونرى من هذا تعميماً في الفقه الاسلامي لم يسبقه سابق ولم يلحقه لاحق) . [4]

ويلاحظ أن القوانين الوضعية في هذا المجال تفرق بين واجبات انسانية خلقية ، وواجبات قانونية ، فإذا كان الذي ترك يملك الترك بحكم القانون لا يعد قاتلاً ، وإن كان الذى ترك لا يملك الترك بحكم القانون ، كترك السرة من غير ربط يعد قاتلاً . أما في الشريعة الاسلامية فإن من يرى انساناً متعرضاً للأذى عليه أن يعمل كل ما في طاقته لمنع الأذى ، لافرق بين الماء والزاد والافتراس . وقد ثبت ذلك بقول النبي ﷺ (من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له ، ويقول الراوي ثم أخذ يعدد الأصناف حتى ظننا أنه ليس لنا حق في فضل أموالنا وكان ذلك في سفر) . فالاسلام أوجب التعاون . وأوجب كل فعل فيه انقاذ للنفس البشرية . ودفع الأذى عنها .

إن التراث الفقهي الاسلامي يجب أن يكون محل اهتمام الحقوقيين العرب ، وليس من واجبهم أن يدرسوه فقط ، بل واجبهم أن يقوموا بنشره باللغات الحية . فإن ذلك واجب ديني ووطني وحضاري ، وقد رأينا كيف أن عدة محاضرات ألقيت في المؤتمر الدولي بباريس قبل حوالي ثلاثين عاماً ، جعلت المؤتمرين يعترفون بسمو الفقه الاسلامي ، وأنه لايقل أهمية عن القوانين الحديثة . ونلاحظ مع الأسف أن كثيراً من المثقفين العرب من الحقوقيين والأدباء والفنانين وغيرهم ممن يهتمون بالثقافة الغربية أكثر من اهتمامهم بتراثهم . بل لا يلقون بالاً لما عندهم . فترى كثيراً منهم يحمل أرفع الشهادات من الجامعات الغربية في الأدب والتربية والفن والتاريخ والقانون . وغيرها من العلوم النظرية . وتراه ملماً بكل صغيرة وكبيرة في حياة الغرب وتاريخه وثقافته وجغرافيته ، وإذا تحدث تجد نصف كلامه باللغة الأجنبية من كثرة ما يستشهد به من الثقافة الغربية ، ويذكر أسماء الأدباء والقادة والمسرحيين والفنانين وغيرهم . وأسماء المناطق والبلدان والجبال والأنهار والمسارح والمتاحف . ولكنه لا يعرف شيئاً عن بلده ، ولا عن تراثه . بل تراه جاهلاً بأبسط المعلومات في الثقافة الاسلامية ، والتاريخ الاسلامي ، ولا أدل على ذلك مما يذكر بأن إحدى الجامعات السعودية استدعت خبيراً في التعليم من إحدى البلاد العربية لمراجعة المناهج التي وضعت للجامعة وأرادوا تكريم الخبير بتنظيم زيارة له للأماكن المقدسة ، فبعد أن انتهى من العمرة ، والطواف بالكعبة . قالوا له غداً إن شاء الله ستسافر إلى المدينة المنورة لزيارة الرسول ﷺ . والصلاة في الحرم النبوي . فقال : لماذا نذهب إلى المدينة أليس الرسول مدفوناً هنا في الكعبة ؟ فقد كان يظن أن قبر الرسول داخل الكعبة ، وأن الناس إنما يطوفون حول الكعبة من أجل أن القبر داخلها . أليس هذا الموقف مما يثير الحزن والأسى ؟

إننا ندعو المثقفين العرب والمسلمين أن يلتفتوا إلى ما عندهم . ولا يتركوا ما عند غيرهم . مما فيه فائدة لأمتهم ، فليس ما عند غيرهم كله مفيد ، كما أنه ليس كل ما عندنا مفيد ، ومع الأسف أننا لا نهتم إلا بما يجب أن نتركه ، ونهيل عليه التراب .

وإننا نرى أن الاهتمام بالايجابي من تراثنا ونشره ، وخاصة في مجال الفقه أمر تتطلبه الحضارة العالمية . ففوق أنه واجب ديني ووطني ، فهو متطلب وعمل حضاري ، والجهل بتراثنا خزي وعار .

عبدالقادر بن محمد العماري

مسؤولية المهمل في الشرع الإسلامي إذا ترتب على إهماله ضرر بالغير

هوامش

(١) البقرة ١٧٨ .
(٢) النساء ٩٢ .
(٣) جريمة الاهمال للدكتور أبو اليزيد على المتيت .
(٤) الجريمة .. للشيخ أبو زهرة

لصاحب النفس ، فقدم ذلك على أداء الصوم) .

وجاء في كتاب المحلي لابن حزم ، أن رجلاً استسقى على باب قوم فلم يسقوه ، حتى مات من العطش . فضمنهم عمر بن الخطاب ديته ، ومعلوم أن الحكم بالدية إذا كانوا قد امتنعوا عن سقيه نتيجة اهمال . أما إذا كان الامتناع متعمداً من أجل قتله فإن عليهم القصاص ، كمن يحبس شخصاً ويمنعه الطعام والشراب حتى يموت . فإن هذا يقول عنه الفقهاء تَرْكٌ قُصِد به القتل . فهو تَرْكٌ يحمل معنى الايجاب . ونص الفقهاء أن الأم إذا منعت ولدها الرضاع حتى مات فقد قتلته ، إن قصدت ذلك ، وكذلك إذا تركت الأم سرة ولدها من غير ربط . ولا يخفى أن الفقهاء لهم وجهات نظر مختلفة في هذه الأمور . كغيرها من الموضوعات التي تختلف فيها الاجتهادات ، وفي مثله جرائم الترك ، وجرائم الفعل . يقول الشيخ محمد أبو زهرة (وإنه بعد استعراض الآراء المختلفة والمناهج المختلفة ، ننتهي بلا ريب إلى أن فقهاء المسلمين قد سبقوا إلى دراسة الموضوع دراسة وافية من كل ناحية ، حتى الأمثلة التي يسوقها العلماء في الفقه الحديث هي بعض الأمثلة التي ذكرها الفقهاء المسلمين قديماً . ولعل النقل الذي نقلناه عن ابن حزم يوضح تمام التوضيح كيف كان يربط ابن حزم بين الترك والجريمة ربطاً يجعله سبباً بها . وكيف يكون بفرض العمد والخطأ . وهو نص لم نظفر بمثله موضحاً مبيناً محرراً في الكتب التي تصدت لبيان وضع هذه الجريمة في القوانين الحديثة . وأنا لهذا أسجل سبق المسلمين إلى تحرير هذه الجريمة بما لم يسبقوا بمثله ، وإنه بالمقارنة بالفقه الحديث والفقه الاسلامي ، نجد الفقه الحديث يتلاقى مع مذهب أبي حنيفة في الجملة . فأبو حنيفة لم يعتبر أن الجريمة بالترك تكون عقوبتها كعقوبة الجريمة بالفعل ، وإن كان يفرض لها عقوبة ، ولا يخليها من معنى الاجرام . ولذلك يقرر فقهاء المذهب الحنفي ، أن من يكون في بادية ، ومعه فضل ماء ، وبجواره شخص لا ماء معه ، ويغلب على ظنه أنه سيموت إن لم يشرب من ماء صاحب الماء ، وامتنع الآخر عن سقيه فقاتله فقتله . فانه لا دية له . لأن المنع اعتداء . فكان طالب الماء حاله حال المعتدى عليه . وهذا يدل على أن أبا حنيفة يعتبر الترك إجراماً . وإن لم تكن عقوبته هي عقوبة الفعل في الجريمة . والفقه الألماني يتقارب مع مذهب مالك والظاهرية ، وإن كان دونها لأنه اعتبر الترك جريمة إذا كان تركاً لواجب قانوني . بينما هذان المذهبان وغيرهما لا يفرقان في مثل هذه المسألة بين واجب قانوني وواجب ديني . لأن الواجب الديني إذا ترتب على تركه تعريض حياة التلف ، يتحول إلى واجب قضائي ، وإن ذلك مقرر حتى في مذهب أبي حنيفة ، فإرضاع الأم لولدها واجب ديني عليها ، ولكن إذا كان الولد لا يلقم إلا ثديها ، أو لم يكن للولد ولا لأبيه مال يستأجر به ظئراً لترضعه ، ويخشى على الولد الهلاك ، فإن ذلك الواجب ينتقل من الواجب الديني المجرد إلى الواجب القضائي ، الذي يحكم به القضاء ، ونرى من هذا تعميماً في الفقه الاسلامي لم يسبقه سابق ولم يلحقه لاحق) .[4]

ويلاحظ أن القوانين الوضعية في هذا المجال تفرق بين واجبات انسانية خلقية ، وواجبات قانونية ، فإذا كان الذي ترك يملك الترك بحكم القانون لا يعد قاتلاً ، وإن كان الذى ترك لا يملك الترك بحكم القانون ، كترك السرة من غير ربط يعد قاتلاً . أما في الشريعة الاسلامية فإن من يرى انساناً متعرضاً للأذى عليه أن يعمل كل ما في طاقته لمنع الأذى ، لافرق بين الماء والزاد والافتراس ، وقد ثبت ذلك بقول النبي ﷺ (من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له ، ويقول الراوي ثم أخذ يعدد الأصناف حتى ظننا أنه ليس لنا حق في فضل أموالنا وكان ذلك في سفر) . فالاسلام أوجب التعاون ، وأوجب كل فعل فيه انقاذ للنفس البشرية ، ودفع الأذى عنها .

إن التراث الفقهي الاسلامي يجب أن يكون محل اهتمام الحقوقيين العرب ، وليس من واجبهم أن يدرسوه فقط ، بل واجبهم أن يقوموا بنشره باللغات الحية ، فإن ذلك واجب ديني ووطني وحضاري ، وقد رأينا كيف أن عدة محاضرات ألقيت في المؤتمر الدولي بباريس قبل حوالي ثلاثين عاماً ، جعلت المؤتمرين يعترفون بسمو الفقه الاسلامي ، وأنه لايقل أهمية عن القوانين الحديثة ، ونلاحظ مع الأسف أن كثيراً من المثقفين العرب من الحقوقيين والأدباء والفنانين وغيرهم ممن يهتمون بالثقافة الغربية أكثر من اهتمامهم بتراثهم ، بل لا يلقون بالاً لما عندهم . فترى كثيراً منهم يحمل أرفع الشهادات من الجامعات الغربية في الأدب والتربية والفن والتاريخ والقانون . وغيرها من العلوم النظرية ، وتراه ملماً بكل صغيرة وكبيرة في حياة الغرب وتاريخه وثقافته وجغرافيته ، وإذا تحدث تجد نصف كلامه باللغة الأجنبية من كثرة ما يستشهد به من الثقافة الغربية ، ويذكر أسماء الأدباء والقادة والمسرحيين والفنانين وغيرهم ، وأسماء المناطق والبلدان والجبال والأنهار والمسارح والمتاحف ، ولكنه لا يعرف شيئاً عن بلده ، ولا عن تراثه ، بل تراه جاهلاً بأبسط المعلومات في الثقافة الاسلامية ، والتاريخ الاسلامي ، ولا أدل على ذلك مما يذكر بأن إحدى الجامعات السعودية استدعت خبيراً في التعليم من إحدى البلاد العربية لمراجعة المناهج التي وضعت للجامعة وأرادوا تكريم الخبير بتنظيم زيارة له للأماكن المقدسة ، فبعد أن انتهى من العمرة ، والطواف بالكعبة ، قالوا له غداً إن شاء الله ستسافر إلى المدينة المنورة لزيارة الرسول ﷺ ، والصلاة في الحرم النبوي ، فقال : لماذا نذهب إلى المدينة أليس الرسول مدفوناً هنا في الكعبة ؟ فقد كان يظن أن قبر الرسول داخل الكعبة ، وأن الناس إنما يطوفون حول الكعبة من أجل أن القبر داخلها . أليس هذا الموقف مما يثير الحزن والأسى ؟

مسؤولية المهمل في الشرع الإسلامي إذا ترتب على إهماله ضرر بالغير

إننا ندعو المثقفين العرب والمسلمين أن يلتفتوا إلى ما عندهم ، ولا يتركوا ما عند غيرهم ، مما فيه فائدة لأمتهم ، فليس ما عند غيرهم كله مفيد ، كما أنه ليس كل ما عندنا مفيد ، ومع الأسف أننا لا نهتم إلا بما يجب أن نتركه ، ونهيل عليه التراب .

وإننا نرى أن الاهتمام بالايجابي من تراثنا ونشره ، وخاصة في مجال الفقه أمر تتطلبه الحضارة العالمية ، ففوق أنه واجب ديني ووطني ، فهو متطلب وعمل حضاري ، والجهل بتراثنا خزي وعار.

عبدالقادر بن محمد العماري

هـوامش

(١) البقرة ١٧٨ .
(٢) النساء ٩٢ .
(٣) جريمة الاهمال للدكتور أبو اليزيد على المتيت .
(٤) الجريمة .. للشيخ أبو زهرة



لقد كانت الفكرة الجوهرية والمحورية لكتاب الشيخ علي عبدالرازق [الإسلام وأصول الحكم] هي دعوى أن الاسلام دين لا دولة ، ورسالة لا حكومة ، ويا بعد ما بينه وبين السياسة وتنظيم المجتمعات !..

وبعض الذين تصدوا لنقد هذا الكتاب بلغوا في معاداة هذه الدعوى ـــ وهي باطلة ـــ مبلغ « رد الفعل » حتى لقد بدت في أقوالهم رائحة تصور الحكومة الاسلامية « حكومة دينية » ، تشبه تلك التي عرفتها أوربا حاكمة « بالحق الالهي » ... ذلك أنهم تحدثوا عن « وحدة » الدين والدولة ، مقابل دعوى « الفصل » بينهما !

لكن هذا الموقع ـــ موقع « رد الفعل » ، الغريب عن روح الاسلام وجوهره ـــ لم يكن هو الموقع الفكري للشيخ الخضر عندما نقض كتاب الشيخ علي عبدالرازق ... فهو قد تبنى موقف علماء الكلام المسلمين ، من مختلف تيارات فكر أهل السنة ، الذين قرروا أن « الخلافة ـــ الإمامة ـــ الدولة » ليست من أصول الدين ولا أركانه ولا عقائده ، وأنها من الفروع .. ومن ثم فلا حاجة لمن يدعي « علمانية الاسلام » بسبب خلو القرآن من الآيات التي تنص على « الخلافة ـــ الإمامة ـــ الدولة » ، فمكان الفروع ، ليس بالضرورة هو القرآن الكريم ... واستمراراً لهذا النهج الاسلامي العريق قال الشيخ الخضر : « إن الخلافة ليست من نوع العقائد (١) ... وبحثها يرجع إلى النظر في حكم عملي لا في عقيدة من عقائد الدين . ومما يترتب على الفرق بين الأحكام العملية والعقائد أن الأحكام العملية يكتفي فيها

■ في صراحة وحسم يقرّر الشيخ الخضر أن الأمّة الإسلامية هي مصدر السلطات

■ الإسلام يوجب الدولة الإسلامية التي تسوس الناس بشريعته

■ الدولة الإسلامية دولة دستورية ورأسها حاكم دستوري ، وقانونها ثمرة عبقريّة فقهائها

■ ما كان يليق بالعالم والقاضي المحقق الشيخ خضر أن يشهد بغيرة الملك فؤاد على الدين الحق

بالأدلة المفيدة ظناً راجحاً . وأما العقائد فإنها لا تقوم إلا على براهين قاطعة ... فلا غضاضة على حكم الخلافة إذا لم يرد به قرآن يتلى ، إذ ليست الخلافة زائدة على إمارة عامة تحرس شعائر الدين وتسوس الناس على طريق العدل ، ولم يكن وجه المصلحة من إقامة هذه الامارة بالخفي الذي يحتاج الى أن يأتي به قرآن صريح ... فالقرآن لم يصرح بحكم الامارة العامة اكتفاء بما بثه في تعاليمه من الأصول التي تبينها السنة ويرجع إليها الراسخون في العلم عند الحاجة الى الاستنباط ، ولأن في الأمر بإطاعة أولي الأمر عبرة لأولي الألباب [2] ... !

فاذا استدل علماء الاسلام على وجوب « الخلافة ــ الامامة ــ الدولة الاسلامية » بضرورتها ، لأن « ترك الناس فوضى لا يجمعهم على الحق جامع ولا يزعهم عن الباطل وازع : يفضي الى تبدد الجماعة ، وإضاعة الدين ، وانتهاك حرمة الأموال والنفوس والأعراض ، فإنهم ــ[بهذا الاستدلال] ــ إنما يطبقون قاعدة شرعية ، وهي قاعدة : « الضرر يزال » أو قاعدة : « ما لا يتم الواجب المطلق إلا به ، وكان مقدوراً ، فهو واجب » ... [3] »

اسلامية الصورة

ومن هذا الموقع الفكري ، الذي يرى وجوب « الدولة الاسلامية » ــ وليس أي دولة ــ دون أن تكون هذه الدولة عقيدة من عقائد الدين أو ركناً من أركانه ــ أنكر الشيخ الخضر إسلامية الصورة التي صور بها الشيخ علي عبدالرازق الخليفة المسلم ، ورفض ما قاله صاحب [الاسلام وأصول الحكم] عن طبيعة سلطات الخليفة في الاسلام ... لقد قال علي عبدالرازق ، عن الخليفة : إن « ولايته عامة ومطلقة ، كولاية الله تعالى ورسوله الكريم » .. وعلق الخضر على هذه العبارة فقال : « إنها من مبالغاته التي تضع للخلافة في نفوس المستضعفين من الناس صورة مكروهة ، ولو كان المؤلف ــ[علي عبدالرازق]ــ يمشي في بحثه على صراط سوي لتحرى فيما ينطق به عن المسلمين أقوالهم المطابقة . وهم لم يقولوا إن ولاية الخليفة عامة ومطلقة كولاية الله . يفعل ما يشاء ، ولا يسأل عما يفعل . والخليفة مقيد بقانون الشريعة ومسئول عن سائر أعماله . وكذلك رسول الله . ﷺ . له خصائص لا يحوم عليها الطير ولا يبلغها مدى البصر ، منها أن تصرفاته نافذة ولا تتلقى إلا بالتسليم ، وتصرفات الخليفة قد تقابل بالمناقشة والنقض والانكار .. [4] »

وفي صراحة وحسم يقرر الشيخ الخضر أن الأمة الاسلامية هي مصدر السلطات التي فوضت بعضاً منها للخليفة والامام ، فلا علاقة لطبيعة سلطاته بتلك التي زعمتها الكهانة والدولة الدينية للأباطرة والملوك الذين جعلوا سلطانهم مستمداً من الله ... لقد زعموا نيابتهم عن الله .. بينما الخليفة الاسلامي نائب عن الأمة ووكيل عنها .. « ولم نعثر على كلمة ــ[في فكر علماء الاسلام] ــ تنبيء ــ ولو بطريق التلويح ــ أن سلطان الخليفة مستمد من سلطان الله ، وقصارى ما يستنتج من كلماتهم عنها ومباحثهم فيها أن الله أوجب على الناس إقامة إمام ، وأن ولايته تنعقد إما بمبايعة أهل الحل والعقد أو بعهد من الخليفة قبله . وأنه إذا سعى في السياسة فساداً ، كان للأمة انتزاع زمام الأمر من يده ووضعه في يد من هو أشد حزماً وأقوم سبيلاً .. » [5]

فالاسلام يوجب « الدولة الاسلامية » : التي تسوس الناس بشريعته ، وتحفظ بيضته .. وفي ذات الوقت ينكر مزاعم القائلين بسلطان إلهي لرأس هذه الدولة .. فلا هي « العلمانية » التي تفصل « الدين » عن « الدولة » ولا هي « الكهانة ــ والدولة الدينية ــ والحكم بالحق الالهي ــ ونيابة الحاكم عن الله » .. وإنما هي « الدولة المدنية » الحاكمة بشريعة الاسلام ... وبعبارة الشيخ الخضر : « إن شارع الاسلام يقصد إلى أن يكون للمسلمين دولة ذات صبغة دينية [6] ... ورياسة غير منفصلة عن الدين ... وإمارة مرتبطة بالدين [7] ... فالاسلام دين وشريعة وسياسة ، وعلى الدولة أن تضع سياستها في صبغة إسلامية [8] ... لأن الاسلام عقيدة وشريعة ونظام اجتماعي ، فهو بالنظر إلى

علاقة الدين بالدولة

أصول العقائد ، التي هي باب الايمان به ، إنما يدعى إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، إذ لا يمكن لبشر أن يدخل في قلب بشر عقيدة إلا أن يقرنها بما يثبتها في النفس من برهان أو إقناع . وأما الشرائع والنظم الاجتماعية ، فإن التجربة ، في القديم والحديث ، دلت على أنها لا تقوم في أمة ولا يطرد نفاذها إلا أن تكون شدة البأس بجانبها والسيوف من ورائها . فلابد للإسلام من دولة ذات شوكة لتقوم على اجراء هذه الشرائع والنظم وتحول بينها وبين قوم لا يبصرون .. »[٩] .

وإذا كانت دعوى صاحب [الاسلام وأصول الحكم] أن الرسول ، ﷺ ، كان « مبلغاً » فقط ، لم يكلف « بالتنفيذ » ، هي دعوى متهافتة لم يقلها قبله قائل ، من الشرق أو الغرب ، من المسلمين أو من غيرهم ، فإن الشيخ الخضر يتحدث عن ولاية الرسول ، رافضاً أن تقتصر على القلوب دون الأجسام —وهي دعوى علي عبدالرازق — ويقول : إن « النظر يقضي بأن الولاية على القلوب لا تكفي في صيانة الحقوق وحفظ النفوس والأموال والأعراض ، وأنه لابد من ولاية يكون شأنها تنفيذ قوانين المعاملات والعقوبات فيمن يطغى به الهوى أو يتخبطه الغضب وإن كان من المؤمنين . فولاية الرسول ، ﷺ ، كانت على القلوب ثم على الأجسام . وكانت ولاية هداية وتدبير لصالح الحياة . وكانت رياسة دينية وسياسية ، وكلاهما من عند الله . ولا بعد بين السياسة والدين إلا في نظر قوم لا يكادون يفقهون حديثا[١٠] ... لقد كان الرسول الأعظم مظهر السلطة التشريعية ، ومصدر السلطة التنفيذية . فالحكمة تجري على لسانه ، ودم النفوس الخبيثة يجري على سنانه . يرسل الموعظة الحسنة تحت مثار النقع ، ويسن القانون العادل وهو يقاتل وحوشاً غابها الرماح ، ولقد كان في تشريعه الحكيم أو عزمه النافذ عبرة لأولي الألباب[١١] .. » !

المقاصد والغايات

وإذا كان « الدين » وضعا إلهيا ، ثابتاً ... فإن « الصبغة الدينية » للدولة الاسلامية وسياستها لا تعني ثبات نظم هذه الدولة وثبات قوانينها ، ولا تعني « الالهية » و « الثبات » لهذه النظم والقوانين جميعاً ... فالثابت هو « المقاصد والفلسفات والغايات » وبعض قليل من الأحكام التي تعلقت بثوابت لا تتغير ولا تتطور بتغير الزمان والمكان — أما ما عدا هذا القليل فهو متغير ومتطور يلعب فيه العقل المسلم والابداع التشريعي للمسلمين الدور الأول والأعظم دونما قيد إلا الروح العامة لشريعة الاسلام والمصلحة المبتغاة للأمة الاسلامية .. فلقد « أجمع المسلمون على أن اصلاح السياسة شطر من مقاصد الاسلام —[ولكن] — هل ادعوا ، مع هذا أن الاسلام رسم للسياسة خطة معينة ووضع لكل واقعة حكماً مفصلاً ؟! . الحق أنهم لم يفعلوا ذلك . بل ملأوا كتبهم ببيان أن الشريعة فصلت بعض أحكام لا تختلف فيها أحوال البشر ، ثم وضعت أصولاً ليراعى تطبيقها على الواقع حال الظروف الحافة بها ، ومن هذه الأصول قاعدة : « رعاية المصالح المرسلة » ، وقاعدة : « العادة محكمة » ، وقاعدة : « سد الذرائع » ، وقاعدة : « المشقة تجلب التيسير » ، وقاعدة : « إرتكاب أخف الضررين » وقاعدة : « الضرر يزال »[١٢] ... ولقد عنيت الشريعة ، في

■ الاجتهاد محكوم بروح الشريعة ومصلحة الأمة المرتبطة بظروف الزمان ومقتضيات المكان

الأكثر ، بتفصيل مالا تختلف فيه مصالح الأمم ولا يتغير حكمه بتغير الزمان والمكان ، وذلك ما يرجع الى العقائد والأخلاق ورسوم العبادات ، ثم جاءت الى قسم المعاملات والسياسات فأتت على شيء قليل من تفاصيله ، وطوت سائره في أصول عامة ثلاثة :

أحدها : أن أحكام هذا القسم تختلف بحسب ما يقتضيه حال الزمان وتطور الشعوب ، فإذا وقعت الواقعة أو عرضت الحاجة نظر العالم في منشئها وما يترتب عليها من أثر ، واستنبط لها حكماً بقدر ما تسعه مقاصد الشريعة ومبادئها العليا .

ثانيها : أن وقائع المعاملات والسياسات تتجدد في كل حين ، والنص على كل جزئية غير متيسر ، علاوة على أن تدوينها يستدعي أسفاراً لا فائدة للناس في كلفة حملها .

ثالثها : أن الشريعة لا تريد أسر العقول وحرمانها من التمتع بلذة النظر والتسابق في مجال الاجتهاد[١٣] ... »

ولذلك وجدنا فقهاء المسلمين يجتهدون ، كل من منظوره ، وعلى ضوء واقعه ، ووفق مقتضيات عصره ، يجتهدون في « وضع » القوانين الاسلامية المسترشدة بروح الشريعة والمحكومة بمنطقها الاسلامي العام .. فهم « ينظرون الى المصالح ويوازنون بينها وبين المفاسد .. كما ينظر إليها أصحاب القوانين الوضعية ، من حيث عظمها وصغرها ، ومن حيث ما يترتب عليها في الخارج من آثار نافعة أو عواقب سيئة[١٤] .. ثم يصوغون القوانين ، التي كونت تراثنا في فقه المعلومات .

فالذين يتصورون أن « أسلمة القانون » في الدولة الاسلامية ، يعني إلزام الحاضر باجتهادات الماضي ، أو إلزام كل عالم الاسلام باجتهاد واحد ، لا يفقهون هذا الجانب من سياسة الاسلام .. بل إن بلوغ عالم الاسلام في التقارب والتضامن والاتحاد درجة إقامة الخلافة الواحدة ، أو الحكومة الواحدة لا يعني وحدة النظم والقوانين إذا ما اختلف الواقع في إطار عالم الاسلام .. ذلك « أن أخذ الأمم الاسلامية بحكومة واحدة لا يقتضي توحيد قانونها السياسي أو القضائي ، بل يوكل أمر كل شعب الى أهل الحل والعقد منه ، فهم الذين ينظرون فيما تقتضيه مصالحه ، ولا يقطعون أمرا حتى يشهدهم من أوتوا العلم بأصول الشريعة لئلا يخرجوا عن حدودها ومقاصدها ... فالتشريع الاسلامي قائم على

رعاية المصالح ، وما هي إلا المصالح التي توضع في ميزانه المستقيم ، وهذا الميزان المستقيم لا يبخس شعباً من الشعوب مصلحته التي يشهد بها العقل السليم ، ولا يفصل حكماً واحداً يجريه على كل شعب وفي كل زمان ، إلا إذا لم تختلف فيه مصالح الشعوب ، فإن اختلفت اختلافاً يعقله العالمون فلكل شعب حكم وسياسة ، وذلك تقدير العزيز العليم..»[١٥] .

فالدولة الاسلامية : دولة دستورية .. ورأسها : حاكم دستوري .. وأمتها : هي مصدر السلطات .. وقانونها إبداع وثمرة لعبقرية فقهائها ، يصوغون أغلبه بالاجتهاد المحكوم بروح الشريعة ومصلحة الأمة المرتبطة بظروف الزمان ومقتضيات المكان ... وهي ، في ظل الخلافة والحكومة الواحدة ، أشبه بعصبة الأمم الاسلامية وجامعة الدول الاسلامية منها بالدولة الواحدة التي يسود فيها القانون الواحد في واقع متغاير رغم وحدة الاسلام ! .

وإذا كان هذا هو حال «الاسلام السياسي» : وإذا كانت تلك قاعدة «سياسة الاسلام» .. فهل بنا من حاجة «لعلمانية» الحضارة الغربية ، تتنكر باستعارتها لطبيعة إسلامنا ؟! .. وألا يرعوى أولئك الذين يزيفون تاريخنا السياسي وفكرنا الاسلامي السياسي - لا لشيء إلا لافتعال التماثل بينه وبين تاريخ الكهانة الكنسية في أوربا العصور المظلمة والوسطى ، بل ويزيفون صورة الاسلام ، بجعله «علمانية» أو «كهانة» .. لا لشيء إلا ليبرروا استعارتهم «للعلمانية» الغربية .. فهم يستوردون «مشكلة» ليستوردوا لها «الحلول» ؟!

هكذا نظر الشيخ الى القضية المحورية والجوهرية في كتاب [الاسلام وأصول الحكم] .. وحدد ، حيالها ، رؤيته لموقف الاسلام .

هنّتان ؟ !

على أن إعجاب الباحث والقارىء بهذا [النقض] الذي نهض به الشيخ الخضر لدعاوى صاحب [الاسلام وأصول الحكم] ، ولقلم الشيخ الذي تجلى عفيفاً ودقيقاً وجيد التذوق والاختيار لألفاظه وعباراته ... إن هذا الإعجاب لا ينقضه «هنّتان» ، ننبه عليهما ، وقع فيهما قلم هذا الشيخ الجليل :

الهنة الأولى : هي أن الشيخ الخضر رغم مجيء كتابه نموذجا في أدب البحث والجدل والمناظرة ، وتميزه بالعفة والترفع عن إلقاء التهم جزافاً .. إلا أنه استخدم عبارة «الوقوع في حمأة الالحاد» على نحو «يوحي» بأنه يتهم بها الشيخ علي عبدالرازق ! ..

ونحن رغم رفضنا للفكرة المحورية والجوهرية لكتاب [الاسلام وأصول الحكم] ، وإيماننا بخطر الكتاب على التوجه الفكري للأمة الاسلامية ، ومعرفتنا بالتأثير الذي يحدثه في دعم «العلمانية» الغريبة عن المناخ الاسلامي والفكر الاسلامي .. رغم ذلك ، إلا أننا ننكر استخدام ألفاظ من مثل «الكفر» أو «الالحاد» في وصف «الاجتهادات الخاطئة» بميدان الفكر السياسي الاسلامي بوجه عام ..

لقد استقر الرأي في علم الكلام الاسلامي على أن مباحث «الخلافة ــ الإمامة ــ الدولة» هي من «الفروع» ، وليست من «عقائد الدين ولا أصوله» .. ومن ثم فإن الخلاف والاختلاف فيها أليق به أوصاف : «الخطأ» و«الصواب» و«الضرر» و«النفع» .. لا «الكفر» و«الايمان» أو «الالحاد» .. الخ الخ .

... «إن الإمامة مستخرجة من «الرأي» ، وليست مستخرجة من الكتاب أو السنة ..»[١٦] .. والجويني ، إمام الحرمين [٤١٩ ــ ٤٧٨ هـ ١٠٢٨ ــ ١٠٨٥ م] يقول : إن الكلام في الإمامة ليس من أصول الاعتقاد»[١٧] .. والإمام الغزالي [٤٥٠ ــ ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ ــ ١١١١ م] يقول : «إن نظرية الامامة ليست من المهمات ، وليست من فن المعقولات فيها ، بل من الفقهيات[١٨] .. أما ابن تيمية [٦٦١ ــ ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ ــ ١٣٢٨ م] فإنه يقول إنها ليست من أركان الاسلام الخمسة ، ولا من أركان الايمان الستة ، ولا هي من أركان الاحسان[١٩] ... وفوق ذلك ، وتبعاً له ، يقول الإمام الغزالي : «واعلم أن الخطأ في أصل الإمامة وتعيينها وشروطها وما يتعلق بها لا يوجب شيء منه التكفير..»[٢٠] .

هذا هو موقف علماء الكلام من طبيعة الإمامة ، وطبيعة الاختلاف في مباحثها ، بدءاً من «أصلها» إلى «تعينها وشروطها وما يتعلق بها» ... وهذا الموقف هو الذي تبناه ــ كما سبقت إشارتنا ــ الشيخ الخضر ، عندما قال : «إن الخلافة ليست من نوع العقائد .. والبحث فيها يرجع إلى النظر في حكم عملي لا في عقيدة من عقائد الدين» وأنها ، لذلك ، يكتفي في مستندها «بالأدلة المفيدة ظناً راجحاً» ...

فإذا جاء الشيخ علي عبدالرازق وقال عن «المملكة النبوية» إنها «عمل منفصل عن دعوة الاسلام ، وخارج عن حدود الرسالة» ... وإذا وصف هذا الرأي بأنه على غرابته ، ليس «كفراً ولا الحاداً» .. فنحن ننكر هذا «الرأي» ، لكننا معه في نفي صفة «الكفر والالحاد» عن قائليه ، لأنه «رأي» في مبحث من مباحث الفروع ، وهو خطأ ، لكنه ، كما قال الغزالي ، «لا يوجب التكفير» ..

ولذلك ، فما كنا نود أن يكون تعقيب الشيخ الخضر على قول علي عبدالرازق هذا هو قوله : إن «تصرف النبي ، ﷺ ، في مثل الجهاد والزكاة والجزية والغنائم يستند الى صريح القرآن ، فلا مفر لمنكره من الوقوع في حمأة الالحاد . ولا أراني في حاجة الى نقل شيء من نصوص الراسخين في علم الشريعة وفتواهم بأن من أنكر حقيقة معلومة من الدين بالضرورة فقد انقلب على عقبه مدبراً عن الاسلام ، ولا يحق له بعد ذلك الانكار أن يتأثم من المسلمين إذا طرحوه من حساب أولياء دينهم الحنيف»[٢١] !

فنحن نعتقد أن الخلاف والاختلاف حول «الخلافة .. والإمامة .. والدولة» لا يدخل في باب انكار «ما هو معلوم من الدين بالضرورة» ، لأن المراد هنا هو إنكار الأصول والأركان .. وليس الخلاف في قضية أو أكثر

■ هل يدخل الخلاف والاختلاف حول الخلافة والإمامة والدولة في باب إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة؟

من قضايا الفروع .. وعلي عبدالرازق ، رغم مجانبته للصواب في بحثه حول الخلافة ، لم ينكر ركناً من أركان الاسلام ، المعلومة من الدين بالضرورة ، وإنما أنكر إسلامية الخلافة ، وهي من الفروع .. فما كان يليق بالقلم العف للشيخ الخضر أن يدخل هذا «الخطأ» ، رغم فداحته ومضاره ، تحت باب «الالحاد» – حتى ولو أخذنا «الإلحاد» بمعناه الأصلي ، وهو «الميل عن القصد» – ولا أن يصف صاحب هذا «الخطأ» بأنه «قد انقلب على عقبه مدبراً عن الاسلام» ؟! ..

تلك هي «الهنّة الأولى في الكتاب» ..

والهنّة الثانية : هي تلك الصفحة التي صدّر بها الشيخ الخضر كتابه ، والتي طبعها «بماء الذهب» ، وسطر فيها إهداء كتابه العظيم «الى خزانة حضرة صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر المعظم» .. ذلك أننا ، رغم إدراكنا لخطأ تقييم مثل هذه الأمور ، التي كانت طبيعية ومألوفة في عصرها ، بمعايير عصرنا ، وهي غير مألوفة ، بل مستنكرة فيه .. إلا أننا نعتبرها «هنة» لنا عليها ملاحظات :

• ففي هذا «الاهداء» يقول الشيخ الخضر : شهدت من حضرة صاحب الجلالة ملك مصر المعظم غيرة على الدين الحق ، وعناية برفع شأن المعاهد العلمية الاسلامية . فقلت : إن في هذه الغيرة والعناية لحماية للدين الحنيف من نزعة ترمي حوله بشرر الكيد والأذى» ..

وما كان يليق بالعالم والقاضي المحقق الشيخ الخضر أن «يشهد» بغيرة الملك فؤاد على الدين الحق ! .. فتلك قضية إن لم يختلف فيها «الشهود» ، فإن اجماعهم ، أو إجماع أغلبيتهم سينقض «شهادة» الشيخ الجليل ؟! ..

• ثم .. ما كان يليق بالشيخ الجليل أن يغفل عن أن «عناية» الملك فؤاد بالمعاهد العلمية الاسلامية – الأزهر – لم تكن بالأمر الخالص للأزهر وعلوم الاسلام ، وإنما كانت – كما ثبت في الواقع – سبيلاً لإفقاد الأزهر استقلاله ، وإحكام قبضته على مشيخة الأزهر ، لاستغلالها في صراعه ضد حزب الوفد وزعيمه سعد باشا زغلول [١٢٧٣ – ١٣٤٦ هـ ١٨٥٧ – ١٩٢٧] الممثل لسلطة الشعب في ذلك التاريخ .

• وأخيراً .. فإن هذا «الإهداء» قد ألقى ظلالاً على هذا العمل العلمي الفذ ، جعلت منه – ولو ظاهراً – جهداً مكرساً لخدمة طموحات الملك فؤاد الأول [١٢٨٤ – ١٣٥٥ هـ ١٨٦٩ – ١٩٣٦ م] في منصب خلافة المسلمين .. ولقد كان الشيخ في غنى عن هذه «الشبهات» التي ألقتها على عمله العلمي الفذ هذه الظلال التي تمثلت في ذلك الاهداء !

هاتان هما «الهنتان» اللتان نأخذهما على كتاب الشيخ الخضر حسين .. وإذا كان «عد المعايب» في عمل من الأعمال هو شهادة تقدير للعمل وصاحبه .. فما بالنا إذا كانت هذه «المعايب» «هنات» .. و «هنات» من هذا القبيل ، لا تقدح في تألق هذا العمل العلمي الفذ : جهداً مخلصاً ونبيلاً وعميقاً في الدفاع عن علاقة ديننا الاسلامي بدولتنا الاسلامية ، ونقض أعظم الشبهات التي أثيرت حول هذه العلاقة في عصرنا الحديث ؟!

محمد عمارة

الشيخ خضر حسين

هوامش

(١) الباب الثاني من الكتاب الأول [ص ٣٣ من طبعة الأصل] .
(٢) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٧٤ ، ٧٥ من طبعة الأصل] .
(٣) الباب الثاني من الكتاب الأول [ص ٢٦ من طبعة الأصل] .
(٤) الباب الأول من الكتاب الأول [ص ١٠ من طبعة الأصل] .
(٥) الباب الأول من الكتاب الأول [ص ١٤ من طبعة الأصل] .
(٦) الباب الأول من الكتاب الثالث [ص ١٩٧ من طبعة الأصل] .
(٧) الباب الثاني من الكتاب الثالث [ص ٢٢١ من طبعة الأصل] .
(٨) الباب الثالث من الكتاب الثالث [ص ٢٤٤ من طبعة الأصل] .
(٩) الباب الثاني من الكتاب الثاني [ص ١٤٣ من طبعة الأصل] .
(١٠) الباب الثالث من الكتاب الثاني [ص ١٦٧ ، ١٦٨ من طبعة الأصل] .
(١١) الباب الأول من الكتاب الثاني [ص ١١٢ من طبعة الأصل] .
(١٢) الباب الثالث من الكتاب الثاني [ص ١٧٧ من طبعة الأصل] .
(١٣) الباب الثاني من الكتاب الثاني [ص ١٥٤ ، ١٥٥ من طبعة الأصل] .
(١٤) الباب الأول من الكتاب الثالث [ص ٢٠١ من طبعة الأصل] .
(١٥) الباب الثالث من الكتاب الثاني [ص ١٧٩ ، ١٨٠ من طبعة الأصل] .
(١٦) أبو حفص عمر بن جميع [عقيدة التوحيد] ص ٥٠٦ طبعة القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ .
(١٧) [الارشاد] ص ٤١٠ طبعة القاهرة ١٩٥٠ م .
(١٨) [الاقتصاد في الاعتقاد] ص ١٣٤ طبعة صبيح – القاهرة – بدون تاريخ .
(١٩) [منهاج السنة] جـ١ ص ٧٠ – ٧٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢ م .
(٢٠) [فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة] ص ١٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧ م .
(٢١) الباب الثاني من الكتاب الثاني [ص ١٤٨ ، ١٤٩ من طبعة الأصل] .

دعائم العلاقات الدولية في الإسلام

بقلم : الدكتور محمد الدسوقي

الاسلام دين الله إلى الناس كافة ، فهو دعوة عالمية بُعث بها محمد ﷺ لاخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ظلمات الشرك والجهالة إلى نور التوحيد والعلم والمعرفة ، ظلمات العنصرية والعصبية الجنسية إلى نور الاخوة والمساواة والوحدة الانسانية .

ولإيمان المسلمين الأوائل بعالمية هذا الدين ، ومايجب عليهم من الجهاد لتبليغ رسالته إلى الناس قاطبة ، حملوا أرواحهم على أكفهم ، وانساحوا فى الأرض لايخشون إلا الله ، ولايكرهون أحدا على الايمان ، لأنه لا إكراه فى الدين .

وفتح الله على المسلمين بلاداً كثيرة ، وانتشر الإسلام فى فترة زمنية وجيزة فى بقعة شاسعة من العالم ، ونجم عن هذا الفتح العظيم ، وانتشار الإسلام السريع مشكلات شتى بين المسلمين وغيرهم ، وكانت هذه المشكلات ، وماتزال تتباين نوعا وكماً باختلاف الزمان والمكان ، ولكن أصول معالجتها كما قدرها الإسلام لاتختلف ولا تتعارض .

أنواع الديار

ويجدر قبل الحديث عن هذه الأصول الإشارة إلى ماتواضع عليه العلماء من تقسيم الديار ثلاثة أقسام : دار الاسلام ودار العهد ودار الحرب (١) :

وهذا التقسيم هو بحكم الواقع لابحكم الشرع ، لأن الإسلام لم يقيد الدولة الاسلامية بحدود جغرافية أو مكانية ، فهو كما أومأت آنفاً دعوة عالمية ، بيد أن تطبيق أحكامه مرتبط بسلطان المسلمين ، فكلما اتسعت دار الإسلام اتسع نطاق تطبيق أحكام هذا الدين ، ومن ثم اقتضت الظروف أن يكون الإسلام اقليميا حتى تعم دار الإسلام العالم بأسره[٢] .

وليس فى هذا التقسيم دلالة على أن الأصل فى العلاقة بين المسلمين وغيرهم هو الحرب ، ولأن الإسلام انتشر بحد السيف كما يزعم جمهور المستشرقين ، ومن سلك سبيلهم من الباحثين .

والذى لاخلاف عليه أن الدار التى تحكم بسلطان المسلمين وهم حماتها وأهل الذمة فيها هى دار الإسلام ، وأن دار العهد هى دار غير المسلمين ارتبطوا مع المسلمين بميثاق[٣] .

أما دار الحرب فقد اختلف الفقهاء فى تعريفها ، فبعضهم يرى أن هذه الدار هى التى لاينفذ فيها أحكام الإسلام ، ولايكون السلطان فيها للحاكم المسلم ، وليس بين المسلمين وأهلها عهد .

ويذهب آخرون إلى أن دار الحرب هى الدار التى تحكم بغير أحكام الإسلام ، ولايتمتع فيها المسلم بالأمن والاطمئنان ويتوقع الاعتداء منها على المسلمين : سواء كانت متاخمة لدار الإسلام أم بعيدة عنها ، لأن تطور أسلحة الحرب فى العصر الحاضر قضى على المسافات بين الشعوب والأمم ، فلم يعد الاعتداء متوقعا من الدول المتاخمة لدار الإسلام دون غيرها من الدول .

ويبدو من ذلك التقسيم أن الدار تكون دار إسلام بسيطرة المسلمين عليها ، وظهور أحكام دين الإسلام فيها ، فلا تحكم بغير ماشرعه الله ، ولايكون لغير المسلمين سبيل عليها ، فإذا لم يتوافر لها الاستقلال والحكم بما أنزل الله فإنها لاتكون دار اسلام بالمعنى الصحيح .

ولا فرق بين دار العهد ودار الحرب إلا من حيث أن الأولى بينها وبين المسلمين معاهدة سلام ، على حين لايوجد هذا بالنسبة للثانية فكانت دار حرب يتوقع منها الاعتداء فى أى وقت . وهما بعد هذا دار واحدة تقابل دار الإسلام . فهما لايعترفان بهذا الدين ، ولايريان المسلمين على حق فيما يؤمنون به ويدعون إليه .

المساواة بين الناس

أما دعائم العلاقات الدولية فى الإسلام أو أصولها الأساسية فهي : أولا : المساواة بين الناس .. يقرر الإسلام أن الناس جميعا سواء فى الإنسانية وفى الحقوق والواجبات . فمصدر النشأة واحد . والمصير كذلك واحد . « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء[٤] » فالناس خلقوا من نفس واحدة فهم بلا مراء سواء ، وما بينهم من تفاوت فى القدرات والطاقات آية من آيات قدرة الله ، وسنة من سنن الكون ، ليتعاون الجميع وفق مايسر له كل إنسان على عمارة الأرض بالخير والبر .

والاسلام فى تقريره مبدأ المساواة بين الناس مهما تكن عقائدهم وألسنتهم وأجناسهم قد سبق القانون الدولى وفاقه ، فهذا القانون فى صورته الراهنة ــ على الرغم من تطور الفكر القانوني وتطلعه نحو أفق رحب من الانسانية والعالمية ــ لايستجيب لمبادىء المساواة بين الدول والشعوب ويفرق بينها من حيث أديانها وأجناسها وألوانها .

ويلاحظ أن انقسام العالم انقساما سياسيا خطيرا بين المذاهب الشيوعية والرأسمالية والحيادية قد ساعد من جديد على ظهور الطائفية فى نطاق القانون الدولي ، وبدأت ظواهر

هذه الطائفية فى التكتلات الدولية الحديثة.

ثانيا.. السلم أصل العلاقات بين الناس..

إن تقرير مبدأ المساواة والوحدة الانسانية يستلزم بالضرورة أن يكون أصل العلاقة بين الناس السلام والوئام. لأن معنى المساواة يفقد قيمته إذا لم يلغ كل أسباب الحروب التى تستغل الإنسان وتسلبه حريته وكرامته..

إن الإسلام دين السلام. وهو أيضا دين القوة والجهاد. لأنه دين العزة. ولا عزة بغير قوة. ولأن الجهاد فى هذا الدين من أجل حماية السلام من الطغاة والقاسطين. فينعم به الناس كافة..

إن تحية المؤمنين فى الدنيا والآخرة السلام. والجنة التى وعد بها المتقون تسمى دار السلام «لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون»[٥] «تحيتهم فيها سلام»[٦].

وتحريم الاعتداء والأمر بالجنوح إلى السلم إذا جنح إليه الأعداء يؤكد حرص الإسلام على توطيد دعائم السلام فى الأرض «ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا»[٧] «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين»[٨] «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله»[٩].

إن مايسمى التعايش السلمي هو أمر دعا إليه الإسلام وعلى أسس من المساواة والأخوة والعدالة والكرامة.

وإذا كان القانون الدولى قد انتهى أخيرا إلى نبذ الحروب فى حل المشكلات الدولية فإن هذا جاء نتيجة للدمار المروع الذى تعرضت له البشرية فى الحرب العالمية الثانية، ومع هذا لايلقى ما انتهى إليه ذلك القانون التقدير واحترام التطبيق. ومازالت القاعدة التى تعيش عليها الغابة وهى: القوة تخلق الحق وتحميه وتضع حداً لكل نزاع هى المعول عليها فى انهاء كل الخلافات بين الامم على الرغم من المنظمة الدولية وجمعيتها العامة وما تصدره من قرارات.

ثالثا: العدالة.. يحرم الإسلام الظلم بجميع أشكاله. ويأمر بالعدل مع الأعداء والأصدقاء فى كل الحالات «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى»[١٠] «أى لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم»[١١]. فعدم العدل فى هذه الحالة ينأى بالمسلم عن خشية الله وتقواه.

وفى مجال العلاقات الدولية يلزمنا الإسلام أن نأخذ بالعدل. فلا نعتدى ولا نغدر ولا نظلم.

وإذا كان من العدل أن نرد على الاعتداء بمثله، «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله»[١٢]، فإن الإسلام كما تنص الآية الكريمة لايجعل رد الاعتداء بمثله أمراً مطلقا. بل يقرن به تقوى الله ومن ثم يكون العدل فى الإسلام انسانيا رحيما. يعاقب من أجرم دون غيره. ولا يعرف التشفى. أو لا يهبط إلى مستوى الهمجية والوحشية ولو كان العدو قد هبط إلى هذا المستوى.

ومن أروع مايروى عن عدالة المسلمين مع أعدائهم فى الحروب أن قتيبة بن مسلم الباهلى القائد الفاتح دخل سمرقند[١٣] من غير أن يخير أهلها بين الإسلام أو العهد أو الحرب. فأرسل أهل سمرقند إلى عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١ هـ) والى أمر المسلمين يشكون إليه أن قتيبة لم يخيرهم. ولو خيرهم لاختاروا فأرسل خامس الراشدين إلى القاضى وقال له: إذا جاءك كتابى هذا فأجلس قتيبة والمحاربين وسلهم فإن تبين صدق شكوى أهل سمرقند، فأمر جيش المسلمين بأن يترك البلاد.

ونظر القاضى فى الشكوى: وتبين له أن قائد جيش المسلمين لم يخير سكان هذه المدينة ذلك التخيير. فأصدر أمراً بخروج الجيش من سمرقند، ثم يخير أهلها بين الإسلام أو العهد أو الحرب.

ونفذ القائد المسلم حكم القاضى. وخرج الجيش من المدينة. وقبل أهلها بعد ذلك العهد. ومنهم من دخل فى الإسلام.

أليس هذا هو العدل الكامل الرائع؟ قاضى المسلمين ينصف أهل الحرب من قائد جيش بترك المدينة التى دخلها دون أن يخير القائد أهلها، فهو من ثم قد ظلم. والاسلام شريعة العدل فى السلم والحرب. فهل يمكن أن يحدث هذا اليوم فى عصر الحضارة والمدنية والمنظمات والقوانين الدولية؟!

حرمة المواثيق

رابعا: احترام العهود والوفاء بها.

للعهود والمواثيق فى الإسلام حرمة مقدسة يجب الوقوف عند حدها، وعدم تضييعها أو التفريط فيها. والنصوص فى ذلك كثيرة يمكن الاجتزاء منها بقوله تعالى: «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ماتفعلون ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة»[١٤].

فهذا النص الكريم يحتم الوفاء بالعهد وعدم نقضه، ويحذر من الخديعة والدخل فى المواثيق، ويشبه الذين يعقدون العهد ثم ينقضونه بالحمقاء تغزل غزلا محكما، وبعد ذلك تنقضه. وفى هذا إشارة إلى أن نقض العهد لايفعله إلا الحمقى. ويشير النص أيضا إلى أن الرغبة فى زيادة الأرض أو القوة لا يصلح أن يكون شىء من هذا سببا لنقض العهد، فالعدالة الإسلامية لاتجعل مصلحة الدولة الإسلامية سبيلا لنقض العهد مادامت شروطه مصونة من الاعداء، ولذلك يحذر الكتاب العزيز من نقض العهد حين يستنصر المسلمون اخوانهم المسلمين ليجاهدوا معهم فى الدين فإن عليهم أن يحترموا مابينهم وبين غيرهم من مواثيق «وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق»[١٥].

ولم تكن هذه المبادىء القويمة فى رعاية العهود مثلا نظرية، بل كانت سلوكا واقعيا فى حياة المسلمين وفى صلاتهم بغيرهم، ومن ذلك ماجاء عن الرسول ﷺ حين حالت قريش بينه وبين أداء العمرة فى العام السادس للهجرة. فقد كتب عليه الصلاة والسلام مع قريش صلحا كان من شروطه أن من أحب أن يدخل فى عهد محمد وعقده فعل، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدها فعل، وأن من أتى محمدا منهم بغير إذن وليه رده محمد إليه، وأن من أتى قريشا من أصحاب محمد لم يردوه.

قصة أبي بصير

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من الحديبية فى ذى الحجة جاءه أبو بصير، وهو أحد المسلمين الذين منعه قومه من اللحاق بالمسلمين. لقد فر ولجأ إلى الرسول بالمدينة. ولكن قريشا كتبت للرسول تطلب منه رد أبى بصير: تطبيقا لنصوص العهد والصلح، وأمر

الرسول أبا بصيرا أن يرجع إلى قومه فيقول له : تردني إلى المشركين يفتنونى فى دينى ، فقال له الرسول : ياأبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ماقد علمت ، ولايصلح فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجا ومخرجا ، ويكرر أبو بصير تردني إلى المشركين ، ويرد الرسول ﷺ : إن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجا ومخرجا .

ويستجيب أبو بصير لأمر الرسول ، ويرجع مع رسولي قريش ، وفى طريق العودة يقتل أبو بصير أحد الرسولين ، ويفر الآخر ، ويرجع إلى المدينة . غير أن الرسول لايقبل منه البقاء فى المدينة مراعاة للعهد ، فينطلق أبو بصير إلى ناحية على ساحل البحر الاحمر على طريق عير قريش إلى الشام ، وسمع المسلمون الذين كانوا فى مكة ومنعوا من اللحاق باخوانهم فى المدينة بقصة أبى بصير ففروا اليه ، وتجمعوا هناك ، وأخذوا لايظفرون بأحد إلا قتلوه ، ولا تمر بهم عير الا اقتطعوها ، حتى ضجت قريش بالشكوى منهم ، وكتبت إلى الرسول تطالب منه أن يكف هؤلاء الرجال عنها ويأخذهم لديه[16] .

هذا هو موقف الإسلام من رعاية العهود والوفاء بها ، ولكن الأمر بالنسبة للعرف الدولى يختلف كل الاختلاف . فالمعاهدات لدى هذا العرف وسيلة القوى ينال بها من الضعيف ، وهى لاتعدو أن تكون قصاصة ورق يمكن نكثها قبل أن يجف مدادها ، فى مطلع القرن الحالى اتفقت بعض الدول على حياد بلجيكا ، وأرادت المانيا أن تمر بجيوشها من الأراضى البلجيكية حتى تحارب فرنسا ، ورفضت بلجيكا ذلك ، واحتجت انجلترا على تصرف المانيا ، وأنذرتها بالحرب إذا لم تعدل عن خرق حياد بلجيكا ، وقال المستشار الالمانى فى رده على انجلترا : إن من الهول ماتنويه حكومة جلالة الملك البريطانى ، ومما يعز على أن أتصور جلالته قابلا دخول حرب مراعاة لقصاصة ورق يسمونها معاهدة ، واتفاق على حياد أرض[17] .

فالمعاهدات قصاصات ورق لاقيمة لها إذا تعارضت مع مصلحة الدولة ، والمصلحة هنا تشمل الغزو والاحتلال ، وهذا يؤكد أن قواعد القانون الدولي – وهى تحض على المحافظة على المعاهدات – لاتلقى الاحترام والالتزام من الأفراد والجماعات .

ارتباط العلاقات الدولية بالعقيدة الاسلامية

خامسا : ارتباط العلاقات الدولية بالعقيدة الاسلامية .

إن مما يميز الإسلام فى تشريعاته كلها أن التزام المسلم بهذه التشريعات سواء ماكان منها متعلقا بما يسمى بالعبادات أو المعاملات يعد جزءاً من عقيدته وايمانه ، ومن ثم تلقى التشريعات الإسلامية من كل فرد فى الامة الاحترام والتطبيق الصادق الذى يراقب الله ويخشاه قبل أن يراقب الانسان ، ويطمع فى مودته ، ورضاه .

والتشريعات الدولية الإسلامية كغيرها من التشريعات التى يأخذ بها المسلم نفسه دون تفريط أو تقصير ، ولايرى فى علاقته بغير المسلم إلا مايراه فى علاقته بالمسلم من حيث العدل فى المعاملة والصدق فى القول والفعل واحترام آدمية الانسان ، ويؤمن بأنه ان لم يكن كذلك فقد خالف أمر ربه ، ولم يلتزم بما كتبه عليه .

أما القوانين الوضعية ومنها القانون الدولى فإنها مبتوتة الصلة بعقائد الأفراد والدول ، ولاتلقى الاحترام غالباً بإيمان صادق أو دافع ذاتى ، ويزداد الأمر بالنسبة للقانون الدولى أنه غير ملزم فى رأى بعض فقهائه[18] ، وأنه لايحول بين الدول وأطماعها السياسية والاقتصادية ، وليس أدل على هذا مما يجرى فى العالم الآن . فليس للقانون الدولى وجود فيما نشاهد من انتهاك لسيادة الدول ، وحقوق الأقليات ، وطغيان العنصرية ، وتحكم الدول الكبرى فى سياسة الدول الصغرى ، مما يؤكد أن هذا القانون حبر على ورق ، وأنه لايلقى الصدق فى الأخذ بقواعده ومبادئه على مافيها من قصور .

تلك أهم دعائم العلاقات الدولية فى الإسلام ، وهى دعائم لحمتها وسداها السلام والوئام والرحمة والعدالة وحماية الفضيلة ، وهى وحدها صمام الأمن للبشرية . ولن تجدى محاولات الحد من انتاج الأسلحة النووية وغيرها ، أو الاتفاق على عدم استخدامها إلا فى الأغراض السلمية . فما لم يكن بين المجتمع البشرى ايمان راسخ بوحدة الإنسانية ، ووجوب التعاون بين الناس كافة على أساس من المساواة والاحترام المتبادل يصبح كل كلام يقال حول التعايش السلمي والتعاون الأممى نفاق سياسي ، ومن ثم ضاعت الثقة بين الشعوب ووقر فى الأذهان أن أية دولة إذا آنست من نفسها القدرة على هزيمة غيرها ودفع أخطار الأسلحة المدمرة عنها فإنها لن تتورع عن شن الحرب ضاربة عرض الحائط بالقوانين الدولية ، ومفاهيم الاخوة الانسانية .

محمد الدسوقي
جامعة قطر

هـوامـش :

١ – انظر نظرية الحرب فى الاسلام للشيخ محمد أبو زهرة ص ٣٠ . ويضيف بعض الفقهاء دارا رابعة ، وهى دار البغي ، يكون الأمر فيها للبغاة ، وهم الخارجون على الإمام الحق بغير الحق .

٢ – انظر من الفقة الجنائى المقارن للمستشار أحمد موافى ص ٩٠ .

٣ – العلاقات الدولية فى الإسلام للشيخ محمد أبو زهرة ص ٥٣ .

٤ – الآية الأولى فى سورة النساء .

٥ – الآية : ١٢٧ فى سورة الانعام .

٦ – الآية : ١٠ فى سورة يونس .

٧ – الآية : ٢ فى سورة المائدة .

٨ – الآية : ١٩٠ فى سورة البقرة .

٩ – الآية : ٦١ فى سورة الأنفال .

١٠ – الآية : ٨ فى سورة المائدة .

١١ – انظر مختصر تفسير ابن كثير المجلد الأول ص ٤٩٥ .

١٢ – الآية : ١٩٤ فى سورة البقرة .

١٣ – سمرقند مدينة تتبع الآن الاتحاد السوفيتى ، وتقع فى الجمهورية الأزبكية ، ومعظم سكانها من المسلمين وينسب إليها عدد من أعلام الفقه والأدب .. الخ .

١٤ – الآية : ٩١ ، ٩٢ فى سورة النحل .

١٥ – الآية : ٧٢ فى سورة الانفال .

١٦ – انظر امتاع الاسماع للمقريزى جـ١ ص ٢٩٧ .

١٧ – نظم الحرب فى الإسلام للاستاذ جمال الدين عياد ص ٣٧ .

١٨ – آثار الحرب فى الإسلام للدكتور وهبة الزحيلي ص ١٠ .



بقلم : فتحي رضوان

أحسب أن الانسان منذ وطأت أقدامه أرضنا ، لم يكف عن التفكير في تغيير العالم الذي يعيش فيه ، والذي يحيط به - مرد هذا أن التغيير الانساني تيار متدفق ، لا يتوقف ، مهما كان نصيب الانسان من العلم والثقافة ، ومهما كانت سنه ، وأيا كان موضعه على الأرض ، فابن الاسكيمو ، وابن الصحراء الرملية ، وابن الغابة ، والذي تدب أقدامه في جزيرة حولها مئات أو آلاف الجزر ، والذي يعيش على شاطئ بحيرة تدانيها وتقاربها العديد من البحيرات ، أو الذي أقام بيته على شاطئ نهر أو بحر ، كل هؤلاء يتصل تفكيرهم ، وينتقل من موضوع إلى موضوع ، ومن فكرة إلى فكرة ، ويعاني أشد المعاناة في حصر الفكر ، وتنسيقه ، وربط بعضه ببعض .

ولذلك كان من غير المستغرب ، أن يفكر الإنسان في تغيير عالمه وهو تفكير سائغ ومقبول . فهو رد فعل لأن الإنسان لابد له في شيء مما يشغل حياته ، ويصوغ ظروفه : فالمكان الذي ولد فيه ، والزمان الذي استقبل الدنيا معه ، ولونه ، وشكله ، واسمه ، ولغته ، ودينه ، كل أولئك أمور مفروضة على الإنسان ، لا يد له فيها ، ولا سبيل الى تغيير أكثرها ، أو تغييرها كلها ، مهما برم بها أو ضاق ذرعاً .

ولكن التفكير في تغيير العالم بدأ بعد أن تعددت وسائل التفكير الانساني ، وتعددت مناهجه ، وتنوعت مذاهبه وطرائقه وارتقت أدواته وأجهزته ، فالمعامل ، ووسائل الكشف ، والأقيسة وثبوت المعلومات ، وتسجيلها ، ونقلها وحفظها ، وتبادلها مع الغير ، وتهيئة الباحثين واعدادهم ، وتزويدهم بالمعاونين وتدريبهم ، وإنشاء المكتبات والمخابر والمجاهير ، كل ذلك جعل التفكير سيداً قطعاً ، لايدع مجهولاً حتى يكتشفه أو يغزوه ، أو يحوم حوله ثم يخترق مجاهله ، وما من بعيد إلا ودنا منه الانسان ، ولا غامض والا وتجلى وباح بأسراره . ولذلك أصبح التغيير الشامل للعالم بأسره ، طمعاً مشروعاً ، وهدفاً معقولاً . وقد تنافس علماء الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، الى جانب علماء الطبيعة والكيمياء والرياضيات ، في تقديم التصورات لما يمكن أن يكون عليه العالم في المدى القريب ، أو البعيد ، وانتقلوا الى مرحلة أخرى فأصبحوا يطرحون هذه التصورات على أنها ما يجب أن يكون عليه العالم ، باعتبار أن العالم بسبب ما وصل اليه العلم ، أصبح أشبه شيء بقطعة من العجين ، يمكن أن تشكل بالصورة التي نؤمن بها ما دمنا نعتمد في تشكيل العالم على العلم ، والخيال المحسوب واستقراء الواقع ، واستنباط حقائق الماضي . وقد خرج على قراء العربية أخيراً الدكتور أنور عبدالملك ، العالم الذي اتسعت دراسته ، فشملت الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، والتاريخ والأدب ، ثم أخرج في هذه المجالات سلسلة من الكتب ، بدأت بريح الشرق ، ثم ثنى بتاريخ الحركة الوطنية المصرية ، ثم بكتاب عنونه (تغيير العالم) ، وهو كتاب جدير بأن يقرأ ، وأن يقف أمامه الباحثون والدارسون ، وقفات طويلة ، لأنه يتكلم عن المستقبل ، وكأنه يقف أمام هذا المستقبل على ربوة عالية للتأمل والتفكير والتصور ، ليسجل الملاحظات والاستنتاجات ، ويرتبها وينسقها ، واضحة ومؤدية الواحدة منها الى الأخرى . وفي الفصل الخامس من هذا الكتاب ، يبدأ في الحديث عن المسح العام لتغيير مختلف أوجه النشاط الإجتماعي والحياة العامة بعد عام ١٩٤٥ .

الاقتصاد الذي يقول عنه الدكتور أنور عبدالملك أنه يتناول توفير القاعدة الأساسية لحياة البشرية على اختلاف أنظمتها الاجتماعية ، ويشرح هذه المقولة ، فيعود بنا

الى فترة ما قبل الصراع الدولي الذي نشب في سبتمبر سنة ١٩٣٩ واستمر حتى مايو ١٩٤٥ ... فيقول : إن النظام الاقتصادي حتى نهاية الحرب ، والذي سجلته اتفاقية (بريتون وودز) في يونيو ١٩٤٤ يقوم على أساس أنظمة اقتصادية متنوعة ترتكز على فكرة السوق المحلية بحيث تستطيع الحكومات المختلفة التحكم بشكل فعال في توجيه الاقتصاد الى مدى بعيد ، ولكن الاعتقاد الدولي السائد أنه لابد من نمط دولي يحتوي هذه الأنظمة المختلفة ، يربطها برباط يشملها ، والقصد من إقامة هذا النظام العام وقاية المجتمع الاقتصادي الدولي من الانقلابات المفاجئة ومن هنا جاء التركيز على توفير قاعدة لضبط أسعار الصرف للعملات المختلفة ، وقد استمر هذا النظام لمدة نصف قرن . وقد ظفرت الدول الصناعية المتقدمة في ظل هذا النظام بالسيادة التي مكنتها من لعب الدور الأول إذ نجحت في زيادة الانتاج لمواجهة متطلبات السوق الداخلية والعالمية على السواء . في حين ظلت دول آسيا وأفريقيا تلعب دور المورد الأساسي للمواد الخام . ودور سوق المستهلكين الذين لا يتاح لهم بحكم هذا الدور ، إلا مرتبة التابع .

إلا أن أوضاع العالم تغيرت بسبب الحرب العالمية ، وعقبها ، فقد تهدم الهيكل الاقتصادي الأوربي ، من أساسه ، وأصبح في حاجة إلى إعادة بنائه ، وقد صاحب هذه الظاهرة الضخمة ، اندلاع حرب التحرر ، لأكثر من سبب . في خلال الحرب كانت الدول الكبرى مضطرة لحشد التأييد لها من شعوب آسيا وأفريقيا ، التي تتمتع بكثافة سكانية لا نظير لها في دول أوربا ، وكانت أوربا مضطرة أن تسرف في الحديث عن الحرية وحق تقرير المصير ، والتنديد بأساليب القهر والتسلط . هذا الى جانب الضعف الذي طرأ على دول الاستعمار القائدة والمهيمنة كبريطانيا وفرنسا ، وبلجيكا وهولندا . وقد بدت هذه الدول التي لبثت حقباً ، وصورتها مقرونة بالقوة والتسلط . فلما أثخنتها الحرب جراحاً ، وتهاوت مدنها ، وتحطمت

نحن نعيش في عصر جديد هو عصر ما بعد الثورة الصناعية

إنتاج السيارة في اليابان يتم في ٥٠٪ من الوقت الذي تحتاجه السيارة في أوروبا

جيوشها ، كبيوت من الورق ، رأت شعوب أفريقيا وآسيا ، هذه الدول ، وهي تترنح ، والفزع يملأ قلوب قادتها وشعوبها من جوائح الجوع ونذر الثورات .

ولكن محنة الحرب ـ كالعادة ـ دفعت عجلة البحث العلمي والتطبيقي بصفة خاصة لمواجهة احتياجات القتال ، فدانت للانسان قوى لم تكن قد أسلمت قيادها له ، ولا كانت قد فتحت خزائنها المملوءة بالأسرار الهائلة والنافعة ، فقد تفتتت الذرة ، وانبعث من جوفها ، عالم مترامي الآفاق من الطاقات الكفيلة بتحويل العالم مادياً ، الى عالم آخر يكاد يكون منقطع الصلة بعالم ما قبل الحرب .

ففي عالم ما بعد الحرب أصبح الحديث مألوفاً عن الوصول إلى القمر ، والأجرام الأخرى ، وكافة المحطات الفضائية الدائمة ، مع سلسلة من الصناعات المنتجة لعدد هائل من البدائل الاصطناعية للمنتجات الطبيعية ، وكان هذا بداية عصر النمو غير المسبوق للصناعات الكيمائية ، وقد تلاه ، كما يقول المؤلف ـ عصر الالكترونيات ـ وتطبيقاتها المتتالية بسرعة في مختلف قطاعات الانتاج والاتصال بالجماهير ، وبالجملة تغيير العالم لا في المجتمعات الصناعية وحدها ، بل في كل المناطق قاطبة ، ويكلف الدكتور أنور نفسه مشقة البحث عن اسم لهذه المرحلة فيذكر ثلاثة أسماء هي : المرحلة الثانية للثورة الصناعية ، واسم مرحلة الثورة العلمية والتكنولوجية ، ثم مرحلة المجتمع ما بعد الصناعي ،

ويسجل المؤلف كظاهرة اختلاف بين العصرين ، في الانفتاح بين الوحدات الاقتصادية الوطنية التي عاشت دهراً وراء أسوار الحماية الجمركية ، وفي هذه الفترة برزت الولايات المتحدة كقوة هائلة ، مهيمنة على مساحة كبيرة من العالم ، ابتداء بأوربا التي خرجت من الحرب حطاماً وفي أشد الحاجة الى معونة مالية واقتصادية وإدارية ، لتقف على قدميها ، وتحاول لعق جراحها ، واستئناف حياة جديدة ، ولما كانت الولايات المتحدة بعيدة عن ميدان الحرب ، فقد خرجت سليمة تماماً ، وخرجت أجهزتها وقد انتفضت بالتقدم العلمي في الحرب ، فقدمت المعونة لأوربا عن طريق مشروع مارشال ، وعن طريق الشركات المشتركة بين شركات الولايات المتحدة وشركات أوربا ، وكان ذلك بداية عهد الشركات المتعددة الجنسيات ، التي وصلت بفضل اتساع ميدان نشاطها وتضخم رؤوس أموالها ، وتعدد المناطق التي تعمل فيها ، الى تحقيق أرباح خيالية ، جعلت منها قوى تفوق الدول الكبرى قبل الحرب العالمية الثانية ، كما تناطحت الدول الكبرى بعد هذه الحرب ، وقد أتيح لليابان بعض ما أتيح للولايات المتحدة ، فإن موقعها على طرف العالم الشرقي قلل من آثار الدمار في هيكلها الاقتصادي ، ويقول الدكتور أنور عبدالملك ، الذي يفرد لليابان حيزاً كبيراً من اهتمامه ، ودراساته :

« أما اليابان وهي القوة الاقتصادية التالية في القطاع الرأسمالي فقد اختارت لنفسها استراتيجية تهدف الى تركيز الاستثمار الذي يعتمد على الابتكار التكنولوجي وذلك بناء على تخطيط حكومي محكم تدعمه وزارة الصناعة والتجارة الخارجية بالتعاون مع الاتحاد العام للصناعات ، كان الهدف ولا يزال هو مضاعفة الانتاج الى أبعد درجة ، فصناعة السيارة الواحدة في اليابان تستغرق ٥٠٪ من الوقت اللازم لصناعة مثلها في فرنسا حسب أرقام سنة ١٩٨٤ ، والواقع أن اليابان ، ظاهرة لا تزال تحتاج الى دراسة خاصة ، وتأمل أعمق مما

كيف نغير العالم؟

تظفر به . فاليابان خرجت من الحرب تقريباً بهياكلها الاجتماعية ، وانطوائها النسبي على نفسها ، وخصائص شعبها الذي يتمتع بصفات رفيعة منها : التقشف الطبيعي الناجم عن العقيدة الدينية أو الأخلاقية ، ثانياً الجد في العمل ، وقلة العادم والفاقد من الوقت والمادة وثالثاً الانقياد للنظام والاستمتاع بهذا الانقياد ، كأنه لون من العبادة . وقد أضيف الى هذه الخلال الباهرة ، حافز صامت ودفين ولكنه متحرك وفعال ، ذلك هو حافز الثأر من أمريكا والغرب كله لا لأنها أنزلت باليابان الهزيمة فقط ، وإنما للإذلال الرهيب بسبب القاء قنبلتي نجازاكي وهيروشيما في ٦ من أغسطس سنة ١٩٤٥ . ويقول المؤلف بعد ذلك : إن اليابان استطاعت في بضع سنوات بعد الحرب أن تحقق تراكماً هائلاً من الأرباح غير الموزعة وهو التراكم الذي استعملته لإقامة شبكة قوية واسعة من الشركات والمؤسسات في مختلف أنحاء العالم ، وكذا تحقيق مشروعات كبرى مثل تعميق وتوسيع قناة السويس بعد حرب أكتوبر في مدة قصيرة جداً وبسعر فائدة قياسي في انخفاضه بالمقارنة مع سائر الدول الرأسمالية .

ومؤدى هذا الكلام أنه بعد الحرب العالمية الثانية ، وبعد الثورة التكنولوجية التي بدأت في أثناء الحرب وبعدها أصبح العالم الجديد صورة من العالم القديم ، مع تغيير في التفاصيل ، فالهيمنة المركزية التي كانت لأوربا ، انتقلت إلى أمريكا ، بعد أن ألحقت بها أوربا ، واستطاعت أمريكا من خلال علاقات أوربا القديمة والموروثة بدنيا المستعمرات المنتشرة في آسيا وأفريقيا ، وإلى جانب أمريكا وأوربا المكملة لها أو التابعة بمعنى من المعاني ، تقوم اليابان ، امتداداً للنظام الرأسمالي الأوربي الأمريكي ، فهي تصطنع في الجوهر أساليبه وتستعمل تكنولوجيته ، وتتعامل معه منافسة له . وإلى جانب هاتين الكتلتين أو الكتلة ذات القسمين ، يقوم النظام الاشتراكي ، قوة جديدة ، وخارجة عن نطاق الهيمنة المركزية ، وهو ينشيء صلات ذات طابع مستقل عن طابع علاقات الدول الرأسمالية بالعالم الثالث . ولكنه لا يزال عاجزاً عن احلال التغيير المطلوب في العالم . فما هي إذن الوسيلة التي يمكن أن تحقق التغيير المأمول ؟

يعرض الدكتور أنور عبدالملك ، ثلاث أفكار لتحقيق هذا التغيير يجملها فيما يلي :

أ ـ فريق أول يرى أن السوق العالمية هي بمثابة ظاهرة جديدة يطلقون عليها اسم ـ الاقتصاد ـ العالم ـ أو الاقتصاد العالمي فالعالم دائرة واحدة مهما تنوعت الأنظمة الاقتصادية ـ الاجتماعية وتعددت الوحدات المعنية وهذه الدائرة تعد واحدة من حيث تمركزها حول مركز قيادي واحد . ويترتب على هذه الرؤية أن تغيير الاقتصاد لا يمكن أن يتم بحال من الأحوال إلا إذا تم التغيير أولاً في قلب الاقتصاد المهيمن أي الولايات المتحدة الأمريكية .

ب ـ فريق يرى أنه وإن كان مركز الهيمنة هو الولايات المتحدة إلا أن أساس القرار والعمل لا يزال بين أيدي الدول والشعوب على تنوعها . ويؤكد أصحاب هذه النظرة أن الاعتماد على الذات ، والصيغة الاجتماعية للنظام القائم في كل بلد ، ومستوى القيادة السياسية واتجاه القرار المسير للاقتصاد الوطني هي العوامل التي تلعب الدور الأكبر في امكان تداخل الاقتصاديات .

جـ ـ ويقول الدكتور أنور عبدالملك :

أو تأتينا الريادة من أقصى الشرق : من الصين واليابان ، في كسر الهيمنة الغربية عن الاقتصاد العالمي . فقد استطاعت اليابان منذ عصر الامبراطورميجي دفع عجلة الانتاج الصناعي والابتكار التكنولوجي الى درجة جعلتها أقوى العناصر الخارجية المؤثرة على السوق العالمي في قطاعات عديدة .

■ الصين أصبحت من أكبر المصدّرين للإنتاج الزراعي بعد أن كانت تعاني من مجاعات سنوية

والأمر على هذا النحو تماماً في الصين بعد ثورتها التي جعلت منها بلداً مصدراً للمنتجات الزراعية وهي التي كانت تعاني مجاعات شبه سنوية ، تحت شعار ماوتسي تونج « يستخدم كل ما هو عالمي ، كل ما هو وطني » .

ونحن نرى مع مؤلف تغيير العالم أن هذين البلدين الضخمين النائيين يرسمان لنا طريق تغيير العالم ، بمنهجهما الجديد ، ونظامهما المبتكر ، وبالتحديث والانتفاع بالثورة الصناعية ، وما بعدها وبالتقدم التكنولوجي ، والمساهمة فيه والاضافة إليه .

نعم ... هذا هو الطريق الذي يفرض علينا ، أن تكون علاقتنا وروابطنا بالصين واليابان ، أدق وأعمق وأكثر تنسيقاً ، وتفهماً وتعاوناً .

فتحى رضوان

تعقيب

لم يتعرض الكاتب الكبير فتحي رضوان للامكانيات العربية الوفيرة ، ونحن نتساءل هنا : أليس في قدرة الأمة العربية إذا أحسنت الاستفادة من إمكانياتها البشرية والجغرافية والمادية المتنوعة ، ووحدت كلمتها في السياسة والاقتصاد وسائر المجالات الأخرى ... أليس في قدرة هذه الأمة بما تملك من قوى بشرية وطبيعية أن تلعب دوراً رئيسياً في التغيير المنشود للعالم إلى جانب الأمة اليابانية والأمة الصينية ؟ ... إن الأمة العربية تتميز على الصين واليابان بأنها في قلب العالم وليست على أطرافه البعيدة . وهذا الوضع يعطيها امتيازاً حضارياً كبيراً ، ويتيح لها الفرصة الواسعة لكي تلعب دوراً تاريخياً لو أنها نهضت وسارت في الاتجاه الصحيح نحو التطور واستخدام امكانياتها الكاملة في هذا المجال .

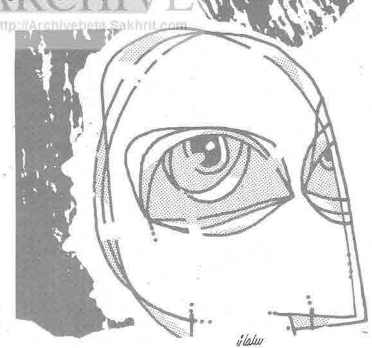
« الدوحة »

شعراء يثيرون الدهشة والتساؤل :

الصعاليك

بقلم : مجيد طوبيا

في القاموس المحيط : « صعلكه أفقره . والصعلوك الفقير » .. وفي لسان العرب : « الصعلوك الفقير الذي لا مال له ولا اعتماد » .. بينما يقترب الصحاح نحو المدلول العرفي للكلمة اذ يقول : « ذؤبان العرب صعاليكها الذين يتلصصون » .. فالذؤبان هم الصعاليك ، والصعاليك ليسوا مجرد فقراء وانما يتلصصون ويعتدون كالذئاب ، فالعرب يتحدثون عنهم على أنهم فئة خاصة . شعارها الاعتداد بالنفس دون الأهل والقبيلة . ووسيلتهم العدوان بقطع الطريق أو السطو أو الغزو أو القتل حيثما تمكنهم الغرة ، أو بالتلصص إن لم يجدوا الى ماسبق وسيلة . وغايتهم الغنى أو مآرب شخصية .. أما الدكتور عبد الحليم حفني فهو يوجز معرفا الصعلكة بأنها « احتراف السلوك العدواني بقصد المغنم » ..



لم يكن العرب في الجاهلية — في أغلب الأحيان — يعترفون بأبنائهم من الاماء ، اعتزازا بخلوص أنسابهم وتنقيتها من أى دم غير عربي ، خاصة اذا كان المولود أسود ، كما حدث لعنترة بن شداد الذي قضى شطرا كبيرا من عمره عبدا ، ولم يكن اعتراف شداد به ابنا خروجا على هذه العادة وإنما كان اضطرارا أملاه ظرف كان يهدد كيان القبيلة وحياتها .. وأمثال عنترة كانوا يسمون أغربة ، جمع غراب ، لأنهم أخذوا من الغراب لونه ..

وهؤلاء الأغربة كانوا يخرجون الى الحياة فيجدون أنفسهم عبيدا . وأقسى ماكان يصادفهم أن الذين يتسلطون عليهم ويستعبدونهم ليسوا الا اخوة لهم في الواقع وانما من أم أخرى !! .. فكان العاجز منهم يظل خانعا حتى الموت ، أما القوى فكان يتمرد ويتصعلك .. وأغلب الظن أن شخصا مثل عنترة بن شداد كان الحائل بينه وبين الصعلكة اعتراف أبيه بنسبه . فإن عنترة كان يملك من القوة والإباء والنفور من الهوان ما يملكه أقوياء الصعاليك ..

الصعاليك



أحد هؤلاء الأغربة رجل اسمه «الشنفرى» .. كان قد أسره «بنو شبابة بن فهم» من قومه ثم انتقل الى «بنى سلامان» ليعيش فيهم عيش العبيد يرعى ابلهم، وقد شغله العمل وعدم الاحتكاك الكبير بالناس لفترة عن الإحساس بوضعه الاجتماعي.

ويبدو أنه وقع فى حب ابنة الرجل الذى كان يعيش فى كنفه، ويبدو أن سطوة الحب جعلته ينسى الفارق الاجتماعي ويحاول التقرب منها، وما إن ناداها بقوله «يا أخية» حتى صفعته مترفعة عن أن يكون أخاها أو اهانة له على التفكير فى الزواج منها!! .. وكانت النتيجة أن ثار لكرامته ثورة عارمة، وصب هذه الثورة على بنى سلامان جميعهم، وأقسم أن يقتل منهم مائة رجل، واندفع الى الصعلكة، وقتل منهم تسعة وتسعين رجلا ثم قتل هو! ومن طريف مايروى أن أحد بنى سلامان مر بقبره فاصطدمت رجله بجمجمة الشنفرى فعقرت رجله فمات، فكملت به المائة!



لخص التبريزى رأى العرب فى الشنفرى قائلا: «يضرب به المثل فى الحذق والمهارة».. وكان أحد رفقة ثلاثة من الصعاليك اشتهروا بأنهم أقوى الناس وأعداهم، وأحد شخصين لكل منهما ديوان شعر، هو وعروة بن الورد، وهو صاحب لامية العرب التى يعتز بها الشعر العربي كله والتى فتنت المستشرقين حتى ترجمت الى خمس لغات أجنبية، وحتى أفرد الزمخشرى لها كتابا لشرحها هو «أعجب العجب فى شرح لامية العرب».

وإن كان دافع الشنفرى للصعلكة كما يبدو دافعاً شخصياً، فالوضع لم يكن هكذا بالنسبة للآخرين..

أسرع من الخيل

كان ابن خلدون من أول المنادين بأن الإنسان فى خلقه وسلوكه ولغته ونفسيته ابن بيئته، وأن البيئة بكل ماتحتويه من أرض ومناخ وخصب وراء كل اختلاف وتغاير بين البشر.. وأخبار العرب حافلة بالغارات التى تبدأ لسبب أو آخر ثم تأخذ طابع التسلسل، تغير جماعة على أخرى رغبة فى مالها فتضطر الجماعة الأخرى للانتقام بغارة ترد على الجماعة المعتدية وهكذا تبدأ السلسلة، فلم يكن السطو والغزو وقطع الطريق شذوذا أو انحرافا فى عرف المجتمع الجاهلي وانما كان ميدانا مرموقا يتنافسون فيه ثم لايلقى الأشداء من المجتمع بعد ذلك الا كل تهيب واكبار، وقد تفوقت «هذيل» على غيرها من القبائل فى شهرتها بالغارات والخلعاء والصعاليك، وكان الصعاليك يملكون القوة والبأس ولبعضهم قوة نادرة هى سرعة العدو بحيث يسبق الخيل، وذلك كما فى أخبار الشنفرى والسليك وأبى خراش وتأبط شرا وغيرهم!

وعلى هذا فان الصعلكة لم تكن حدثا من الأحداث الطارئة أو العارضة فى حياة المجتمع العربى قبل الاسلام، وانما كانت ظاهرة نبعت من ظروفه وتكويناته، فنجد أن الصعلكة لازمت كل العصور الجاهلية وكل أماكن الجزيرة العربية تقريبا..

وإن كان الفقر من أهم أسباب وجودها فان غيبة القانون كان لها المعول الأكبر، فلم يكن للعرب دولة جامعة يشعرون معها بالانضباط، فلا قانون جامع ولا دين جامع، وبانتفاء وجود دولة ينتفى وجود القانون، وكل ما كان هنالك هو العرف الاجتماعي، وكان تنفيذه يتأثر باعتبارات ذاتية، والصعاليك كانوا أقدر الناس على انتهاك هذه الأعراف بما لهم من قوة ومهارة، ولا تربطهم بهذا المجتمع الا مايرون فيه منفعة لهم، فيقول أحدهم:

وإنى اذا ضن الأمير على بإذنه
على الأذن من نفسى اذا شئت قادر

وكان اهتزاز العرف يتضاعف مع ظهور زعامات غير متزنة، فقد ساد «أبو جهل بن هشام» ودخل دار الندوة وما استوت لحيته اى وهو بعد حدث طائش، وساد أبو سفيان وكان بخيلا، وعامر بن الطفيل كان بخيلا قاهرا، وكان كليب بن وائل ظالما وكان سيد ربيعة وقد احتجز المراعى ومواقع الماء لنفسه من دون الناس جميعا بما فيهم قومه!

وما دام السيف هو أبرز الشرائع فان عدم التوازن بين الفقر والغنى يتزايد، فكلما كان الفرد أشد بأسا أتيح له الحصول على أكبر قدر من كل شيء، وأخبار الثراء الفاحش تفيض بها الروايات.

ومع وجود هذا الثراء الفاحش الى جانب الفقر الشديد وفى غيبة القانون أصبح أرباب المخائض أى أصحاب الابل فى البادية وكذا أصحاب التجارة فى المدن والبلاد، أصبحوا مطمعا للصعاليك ينهبون منهم ماقدروا عليه.. فيقول أحدهم: «وسيق بأموال التجار زعيم» .. وعندما تاب «يزيد بن الصقيل العقيلى» عن الصعلكة نراه يمن على أصحاب المخائض بعد توبته ويبشرهم بالأمن والاطمئنان:

ألا قل لأرباب المخائض أهملوا
فقد تاب مما تعلمون يزيد

فاذا أضفنا الى ماسبق طبيعة الأرض والحياة حيث البيئة فى الجزيرة قاسية، برد شديد وحر أشد منه وكل شيء فى الصحراء قاس عنيف، فلا عجب أن تنجب أبناء قساة أشداء.. وإن كانت الهجرة والتنقل صفة عامة

في بوادى العرب لضعف ارتباط مصالحهم بالأرض نفسها فان الهجرة للصعاليك قوام حياتهم . فالصعلوك « جل ماله سلاحه » .. وهدفهم من التنقل هو البحث عن الأماكن التى يزاولون فيها نشاطهم ثم الأماكن التى يحتمون فيها نتيجة لهذا النشاط . لأن : « كل بلد أوطنت كبلادى » !

عوى الذئب

ولقد أثار الصعاليك فى المجتمع الجاهلى موجة من الرعب والفزع . لكن ذلك لم يحط من قدرهم فى المجتمع : بل أحاطهم بهالة من الرهبة والاعجاب وأصبحوا أمنية القبائل ، وفى أخبار امرؤ القيس أنه حينما أراد أن يثأر لأبيه جمع جموعا من ذؤبان العرب وصعاليكهم !

وكانت للقبائل مجامع عامة للشورى كدار الندوة فى مكة . وكالمجامع المشهورة فى الأسواق وخاصة سوق عكاظ ، وكانوا يتباحثون فى أمورهم العامة والمشتركة ويعلنون قراراتهم وما يستحدثونه من عرف . ومع ذلك فلم يثر موضوع الصعلكة .. ولم يرو التاريخ أن قبيلة من القبائل حالت بين أبنائها وبين سلوك الصعلكة ، وأما موضوع الخلع الذى كان يخلعون به أحدهم فلم يكن لسلوك الصعلكة من حيث هو وانما تفاديا للمغارم التى يجرها !

ومع مجىء الاسلام كانت اليد التى تحمل الشعلة يدا قوية حازمة . وكانت أساليب الصعلكة من أبرز مشاكل البيئة حينئذ . حتى أن الرسول ﷺ جعل فى مقدمة ما يبشر به أنه يحقق للعرب الأمن حتى يسير الراكب من صنعاء حتى حضرموت لايخاف الا الله والذئب على غنمه .. لذا فقد شاعت التوبة بين الصعاليك ..

ولكن هذا لايعنى موت الصعلكة ، فان من عواملها ما هو طبعى ملازم للحياة .. فما ان بدأت سلطة الدولة تضعف وقبضتها تتراخى مع ظهور الفتن فى أنحاء الدولة . ومنذ بدأت الخلافات بين على ومعاوية . ثم نشوب الحرب بين العلويين والأمويين . والأمويين والعباسيين . والعباسيين والعلويين ، بالاضافة الى ماتخلل ذلك من فتن الخوارج والمذاهب المنحرفة الى آخر السلسلة ، ما إن حدث ذلك حتى هيأت هذه الظروف للصعلكة أن تستعيد كثيرا من مكانتها ، الأمر الذى أعطى القوة لعدد من الصعاليك ، مما جعل الأطراف المتطاحنة تحرص على أن تكسبهم فى قواها ، كما فى أخبار « عبدالله بن الحر » الذى تودد اليه كل من معاوية وعبدالملك بن مروان وعماليهما ، ولكنه ظل حصنا مستقلا عن الانطواء تحت أى سلطان . وكذلك طلب منه الحسين بن على العون فى القتال فأبى وظل معتصما بقوته واستقلاله (وذلك على حد ماجاء فى خزانة البغدادى نقلا عن كتاب اللصوص للسكرى) ..

الخلاصة أنه بعد عصر الخلفاء الراشدين وبعد أن أصبح الصعاليك مجرد جزء من الفتن خف لهيب النظرة الدينية اليهم ، لأن هذه النظرة توزعت على الفتن العديدة ، ولم تكن الصعلكة أهمها ولا أخطرها .. وقد احتفظ الصعاليك بالطابع العام لشخصية الصعلوك : الصلابة والتمرد والاعتداد بالنفس الى حد الاستهانة بالموت . فان أحس أنه لايستطيع الصمود هاجر الى أى مكان يحتفظ فيه باستقلاله وعزته « فى الأرض منأى للكريم من الأذى » .. فهو يؤثر جيرة الوحوش رغم خطورتها على بنى آدم اذا ضيقوا عليه : يقول الأحيمر :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذا عوى
وصوّت انسان فكدت أطير

والعيش شح

■ غيبة القانون في العصور الجاهلية كانت من أهم أسباب وجود الصعلكة

■ ما إن جاء نور الإسلام حتى شاعت التوبة بين الصعاليك

وصعاليك الجاهلية كان فيهم الشعراء الذين يفرض شعرهم نفسه على المجتمع وعلى التاريخ ، كالشنفرى وتأبط شرا والهذليين وعروة بن الورد العبسى .

ولقد أضفى عروة على الصعلكة كثيرا من الاحترام والتقدير بما تحلى به من خلق فريد فى السخاء والعطف على الفقراء ، وكانت عصابته كثيرة العدد لأنه كان بمثابة مدرسة يتخرج فيها الصعاليك ، واشتهر بأنه مأوى خيرا لهم . ولذلك لقب بعروة الصعاليك ــ والصعاليك هنا الفقراء ــ وصاحب الأغانى يقول : « كان عروة اذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا فى دارهم المريض الكبير والضعيف . فكان يجمع أشباه هؤلاء من دون عشيرته ثم يكنف عليهم الكنف ويكسبهم ، ومن قوى منهم خرج معه فأغار .. حتى اذا ذهبت السنة الحق كل انسان بأهله » .. وكان ينفق على جميع هؤلاء المستين والمرضى من التصعلك لأنه لم يكن غنيا بل كان أكثر المتحدثين عن الفقر والحاجة ..

لذلك قال معاوية بن أبي سفيان : « لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج اليهم » .. وهو الوحيد بين شعراء الصعاليك الذى وصلنا ديوان مطبوع له ، وهو القائل : « انى رأيت الناس شرهم الفقير » .. وقال عنه عبد الملك بن مروان : « من زعم أن حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة » .

ولم يكن الكرم ونجدة الناس والمحتاج والاحساس بالفقراء من صفات عروة فقط . فهذا « مالك بن الريب » ــ وقد عاش فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ــ يسأله الوالى قائلا :

ــ ويحك يا مالك ، ما الذى يبلغنى عنك من العداء وقطع الطريق ؟ !

أجاب :

ــ أصلح الله الأمير ، العجز عن مكافأة الاخوان !

ولهذا قيل : « أن كل صعلوك جواد » .. و « مالك » هذا كان يقطع الطريق مع رفقة اشتهر منهم « شظاظ الضبى » الذى ضرب به المثل فقالوا : « الص من شظاظ » و « أبو حردبة المازنى » الذى قال أحد الراجزين فى الخوف منه : « الله نجاك من القضيم ..... ومن أبى حردبة الأثيم ، ومالك وسيفه المسموم » !

ومن الشعراء المخضرمين « عبدة بن الطبيب » وهو من بنى تميم ، عاش فى الاسلام زمنا ليس بالقصير وساهم فى بعض الوقائع والحروب ، وشعره من أجود ما قال العرب .. وهو صاحب البيت المشهور فى رثاء « قيس بن عاصم المنقرى » :

الصعاليك

وما كان قيس هلكه هلك واحد
ولكنه بنيان قوم تهدما

وفى رأى الأصمعى أنه أرثى بيت قالته العرب .. وهو القائل أيضا :

والمرء ساع لأمر ليس يدركه
والعيش شح واشفاق وتأميل

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يردد الشطر الأخير متعجبا من حسن تقسيمه وما به من حكمة .

أما « توبة بن الحمير » فكان من اللصوص البارزين ، ولكن شهرته بعشق ليلى الأخيلية غلبت عليه ، خاصة انها كانت شاعرة لم يقدم عليها من شاعرات العرب سوى الخنساء .. وقد رثته ليلى قائلة :

فتى كان أحيى من فتاة حيية
وأشجع من ليث بخفان خادر
فنعم الفتى ان كان توبة فاجرا
وفوق الفتى ان كان ليس بفاخر

جمع توبة بين عاطفة الحب الرقيقة السمحة وبين صفات التصعلك العنيفة القاسية .. وعندما وفدت ليلى على عبد الملك بن مروان وهى كبيرة سألها :

ـ ما رأى توبة فيك حين عشقك ؟

فقالت :

ـ ما رأى الناس فيك حين جعلوك خليفة ؟

فضحك عبد الملك حتى بدت له سن سوداء كان يخفيها .

إن شعر الصعاليك أشبه ما يكون بالمذكرات الشخصية التى يدون الشخص فيها أفكاره ومشاعره ، ولهذا لم يبد فى شعرهم تشتت أو تفكك رغم انه يتحدث فى موضوعات شتى ، فقد يتحدث الصعلوك عن الفقر والسلاح والوحوش والناس ، ولكننا نحس انه يتحدث عن كل ذلك من زاويته هو ولايتحدث عن شيء حديث الواصف فحسب ..

فعند تصوير حالهم مع الفقر نجد تأبط شرا

■ شعر الصعاليك أشبه بالمذكرات الشخصية التي تعتمد على الصدق الفني

يصف نفسه بأنه لايملك من الزاد الا تعلة تحول بينه وبين الموت حتى برزت أضلاعه من النحول والتصقت أمعاؤه من الجوع :

قليل ادخار الزاد الا تعلة
فقد نشز الشرسوف والتصق المعا

فهو يتحدث عن أثر الفقر عليه هو وليس على انسان آخر .. كذلك عروة بن الورد نجده لايملك من الدنيا غير درعه وسيفه :

وما لى مال غير درع ومغفر
وأبيض من ماء الحديد صقيل

ومالك بن حريم يرى أن الفقر مذلة لصاحبه بين الناس بينما المال يرفع الخسة ويجعل الذميم حميدا ، وهى خبرة استقاها من تجربته الخاصة مع البشر :

أنبئت والأيام ذات تجارب
وتبدى لك الايام ما لست تعلم
بأن ثراء المال ينفع ربه
ويثنى عليه الحمد وهو مذمم
وأن قليل المال للمرء مفسد
يحزّ كما حز القطيع المحرك
يرى درجات المجد لايستطيعها
ويقعد وسط القوم لايتكلم

وهى ذات المعانى التى قالها شكسبير على لسان الملك لير بعد ان تخلى عن جاهه وعرف طعم الفقر والعقوق .. وهو ذات المعنى الذى قاله عروة بن الورد :

دعينى للغنى أسعى فانى
رأيت الناس شرهم الفقير
وأهونهم وأحقرهم لديهم
وان أمسى له كرم وخير
ويقصى فى الندى وتزدريه
حليلته وينهره الصغير
وتلقى ذا الغنى وله جلال
يكاد فؤاد حاجبه يطير
قليل ذنبه والذنب جم
ولكن الغنى رب غفور

ويقول أيضا :

المال فيه مهابة وتجلة
والفقر فيه مذلة وفضوح

وما داموا قد ذاقوا الفقر فقد عرفوا الجوع .. وتأبط شرا يحدث ذئبا عن هزال جسمه :

كلانا اذا ما نال شيئا أفاته
ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل

ويلاحظ أن صعاليك العصر الاسلامى لم يتحدثوا عن الجوع الشديد المضنى مثل السابقين .. لكنهم جميعا يشتركون فى النفور من الهوان ، يقول عروة بن الورد :

خاطر بنفسك كى تصيب غنيمة
ان القعود مع العيال قبيح

ويقول :

فسر فى بلاد الله والتمس الغنى
تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا

ولماذا الخوف من المنية مادامت آتية ولاريب ؟ ! .. ولهذا يقول الشنفرى : « اذا أتتنى منيتى لم أبالها ... » ... ومثله عروة بن الورد :

وان المنايا ثغر كل ثنية
فهل عن ذاك من متأخر ؟ !

لأنه كما يقول العقيلى :

اذا ما المنايا أخطأتك وصادفت
حميمك فاعلم أنها ستعود

فيكون أبو خراش صادقا فى قوله :

مخافة أن أحيا برغم وذلة
وللموت خير من حياة على رغم

وعلى هذا يكون « فى اللين ضعف والشراسة هيبة » .. وأيضا :

اذا أنت لم تنفع فضر فانما
يُرَجَّى الفتى كيما يضر وينفع

لماذا ؟ .. لأن :

وما العجز إلا أن تشاور عاجزا
وما الحزم الا أن تهم فتفعلا

العفة وصدق التجربة

صدق الصعاليك في شعرهم ليس مجرد صدق فني ، بمعنى القدرة على التخيل والتقمص ، وانما هو صدق حقيقي ، وتجربتهم تجربة واقعية ، وكافة مشاعرهم تقدم من وجهة نظرهم الذاتية .. لهذا نجد أن « أبا خراش » لايخجل من الاعتراف بواقعية وصدق أنه أحيانا يفر من أعدائه ، ولكنه فرار المقاتل الحكيم :

أقاتل حتى لا أرى مقاتلا
وانجو اذا ماخفت بعض المهالك

والصدق مع النفس وتمردهم جعلهم يفضلون وحوش الصحراء عن الناس ونفاقهم . لا لشيء الا لأن هذه هي تجربتهم المعاشة .. فيقول الشنفرى انه استعاض عن الناس بجيرة ذئب قوى ونمر أملس وضبع طويل !!

وكل هذا لايعني أن شعرهم خلا من الحس الاجتماعي ، فهذا عروة يفخر بإكرامه الضيف : « فراشي فراش الضيف والبيت ... » .. ومديحهم رغم ندرته لم يكن قط من أجل الارتزاق وكان عفا أبيا . كذلك الحال بالنسبة للهجاء ، فلا نعلم صعلوكا جنح الى الاسفاف أو جعل سببه حرمان من عطاء لأنهم لايطلبون عطاء أو ضيافة ..

كذلك شأنهم في الغزل .. ومن المعاني التي كانت موردا للشعراء فيما بعد وصف بكر بن النطاح لامرأة بيضاء لها شعر أسود غزير :

فكأنها فيه نهار ساطع
وكأنه ليل عليها مظلم

ليس شعرهم وحده الذي يصور هذه المثالية الرفيعة في اخلاقهم ، فأخبارهم أيضا تؤكده ، وزوجة عروة بن الورد تخاطبه قائلة : « اني لا أعلم امرأة ألقت سترا على خير منك ، أغفل عينا وأقل فحشا وأحمى لحقيقته » رغم انها كانت قد هجرته مختارة عليه قومها وذلك في قصة تخييرها بين زوجها عروة وقومها .

وكان معظم غزلهم في زوجاتهم .

يوم أن بكى قيس

كان أول طابع تقليدي يلتزمه الشعر القديم هو استهلال القصيدة بالغزل ، وهو أمر لم يلتزمه شعر الصعاليك الا اذا كانت القصيدة نفسها غزلا .. قصيدة الشاعر الصعلوك تلتزم غالبا بغرض واحد لاتعدو تصويره وجوانبه وملابساته .. ففي لامية « عبدة بن الطبيب » نجد أن الظروف التي أحاطت بها أن زوجه « خولة » رحلت الى المدائن فسعى اليها فلما رفضته عاد الى باديته في الحجاز ثم قال القصيدة التي نجدها لاتتعدى وصف الرحلة وسببها . فتبدأ بحنينه الى خولة واصفا رحلته اليها والمطايا والمعيشة والصيد للحصول على الطعام أثناء الرحلة . ثم يصف مالقيه من البذخ والترف في بلاد العجم وما رآه في مجلس شراب من ستائر وتماثيل وسقاه ، ثم يأسه من خولة ونفض يده منها بقوله :

فعد عنها ولا تشغلك عن عمل
ان الصبابة بعد الشيب تضليل

ولامية الشنفرى أيضا لاتعدو تصوير حياته منذ كان أسيرا الى باقي ظروفه ..

والاستاذ الدكتور عبد الحليم حفني يذهب الى أن شعرهم هو أساس القصة في الشعر العربي ، وأنه لو وجد من الشعراء من تابعه لكان للقصة في الشعر العربي شأن غير ماكانت عليه .. وأبرز مثال على ذلك قصة « قيس بن منقذ بن الحدادية » مع ابنة عمه « نعم » والتي سجلها في قصيدة طويلة : فهو قد بدأ بوصف بطلة القصة وأخلاقها . ثم هيأ لجو الوداع وما صاحب ذلك من ضجة . ثم تسلله تحت الستر وفزعها من هذا المسلك . ثم لوعته حين سمع مؤذن الرحيل ، فحوار الفراق . واصفا في دقة كل أطراف القصة وأشخاصها .. ومن هذه القصيدة نقتطف الأبيات التالية :

أجدك ان نعم نأت أنت جازع
قد اقتربت لو أن ذاك نافع

ويقسم على أنها المهذبة المؤدبة :

وقد جاورتنا في شهور كثيرة
فما شولت والله راء وسامع

أما لماذا بكت ؟؟ فقد :

بكت من حديث بثه وأشاعه
ورصعه واش من القوم راصع

ويدلل على انه مظلوم :

وكيف يشيع السر مني ودونه
حجاب ومن دون الحجاب الأضالع

وجاءت لحظة تحرك القافلة :

وما راعني الا المنادي ألا أظعنوا
والا الرواعي غدوه والقعاقع

فماذا فعل قيس ؟؟

بكى من فراق الحي قس بن منقذ
وازراء عيني مثله الدهر شائع

ثم كان الحوار الأخير بينهما :

فقلت لها يانعم حلي محلنا
فان الهوى يانعم والعيش جامع
فقالت وعيناها تفيضان عبرة
بأهلي بين لي متى أنت راجع
فقلت لها تالله لا يدرى مسافر
اذا أضمرته الارض ماالله صانع
فشدت على فيها اللثام وأعرضت
وأمعن الكحل السحيق المدامع

وقد قام الاستاذ الدكتور عبد الحليم حفني بنشر بحثه الرائع « شعر الصعاليك ـ منهجه وخصائصه » في ٤٣٠ صفحة من القطع الكبير أوضح فيه أنه استقى مراجعه من كتاب « تاريخ الادب العربي » للمستشرق بروكلمان وذلك في سياق حديثه عن ثلاثة من شعراء الصعاليك هم تأبط شرا والشنفرى وعروة بن الورد .. ويؤكد بأنه لايعلم أن أحدا في القديم أفرد الصعاليك ببحث مستقل سوى « السكري » في كتاب اللصوص ولكن هذا الكتاب لم يصل الينا وانما نقل عنه بعض العلماء القدامى ومنهم البغدادي في خزانة الأدب .. كما لايعلم أن أحدا في الحديث فعل ذلك سوى الدكتور يوسف خليف في بحثه عن الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي فحسب وهو جزء من موضوع .. والطبعة الأولى من كتاب الدكتور عبد الحليم حفني والتي بها هذه المقدمة أودعت بدار الكتب المصرية عام ١٩٧٩ .

مجيد طوبيا

■ شعراء الصعاليك لم يلتزموا بالطابع التقليدي للشعر القديم

■ هل صحيح أن شعرهم هو أساس القصة في الشعر العربي؟

الماء مشكلة الشرق الأوسط المزمنة التي تبحث عن حل

بقلم: الدكتور السيد فهمي الشناوي

الماء «جوهر» نادر في الشرق الأوسط. ومن ثم فهو غالي الثمن جداً. وتزداد قيمته كلما ازدادت الصحاري اتساعاً. والصحاري تكون ثلثي مساحة الشرق الأوسط على الأقل، وتتناثر بين أقاليمه لتمنع الوحدة والاتصال بينها، وتقسم الشرق الأوسط إلى قطع أشبه بالفسيفساء.

وحتى الدول الشرق أوسطية التي وهبها الله نهراً جياشاً مثل النيل، تعاني ٩٦٪ من مساحة أرض مصر من التصحر. وتعاني أقاليم في السودان والحبشة من الجفاف رغم أنهما على بعد حجر من مسار هذا النهر الخالد!

ولعل أكثر دول المنطقة انتباهاً إلى أهمية الماء وندرته وغلو ثمنه هو الكيان الاسرائيلي، ويدرك العرب هذه الحقيقة أيضاً من قديم الزمن، ولكنهم اكتسبوا تأقلماً عليها.

■ قصة الماء في المنطقة منذ آلاف السنين والمشاكل القائمة من حوله

■ إقامة مشاريع على الأنهار والواحات من أهم عوامل النهضة العربية المنشودة

وليست الصحاري وحدها هي التي تعوق الزراعة والانتاج الغذائي في الشرق الأوسط. فهناك أيضاً مناطق جبلية والمستنقعات والبحيرات والأراضي العقيمة.

وكل امبراطوريات الشرق الأوسط وحضاراته العظيمة مثل الحضارة المصرية القديمة والحضارة البابلية. انما نشأت من السيطرة على الماء في مجاري أنهار النيل ودجلة والفرات، وعلى تطوير نظم الري وقوانين مجتمعات الري والرعي والزراعة والتراث الذي نشأ حول واحات المياه هنا وهناك.

وفي العصر الحالي أصبحت السيطرة على مياه الأنهار وتطوير استخداماتها ووضع العلم والتكنولوجيا في خدمتها. أصبح كل ذلك أكثر أهمية وأفعل في إحداث عملية التغيير الحضاري من أي نظريات سياسية. وأصبح توفير الغذاء أو العجز عن توفيره هو الاختبار الذي نجتازه وهو التحدي العملي الذي يواجه أي نوع من الايديولوجيا الفكرية. وأصبح هو الامتحان الذي لابد أن يجتازه منظرو السياسة والاجتماع والعلم، وهو الصخرة التي تتحطم عليها موجات أي نظرية سياسية.

والزراعة المناسبة للشرق الأوسط تختلف عن زميلتها المناسبة لأوربا: ففي الشرق الأوسط طاقة شمسية جبارة. فلابد إذن من

اللجوء الى زراعة تستثمر هذه الطاقة وتراعي في نفس الوقت ندرة الماء . بينما في أوربا الماء يهطل من السماء بغير حساب ، وتكاد لا توجد طاقة شمسية تذكر. وهذا التباين أوضح ما يكون في الفارق بين البقرة الفرزيان وبين الجمل العربي . البقرة الفرزيان لا ينقصها المرعى ، ويوفر لها الماء الوفير شربها واغتسالها ونظافتها بينما الجمل يختزن الماء القليل في سنامه كأنه عملة صعبة أو كنز ثمين .

وإذن يتعين على انسان الشرق الأوسط أن لا يهجر الجمل ، ويجري وراء البقرة الفرزيان فتكون النتيجة أن يهمل تربية الجمل ، حتى يندثر . وأن تستحيل الحياة على بقرته المستوردة ، أو أن تعيش عنده حياة مكلفة وعسيرة وقصيرة. والمقصود من هذا أن يتكيف انسان الشرق الأوسط بالمعطيات المتاحة لديه ، ويستثمرها . فإن ذلك أجدى من الجري وراء الغرب وتقليده ، فيصبح كحمار الأسفنج عندما قلد حمار الملح . فغرق الأول حيث نجا الأخير !

وتنقسم محاصيل الشرق الأوسط الزراعية إلى مجموعتين : مجموعة تصدر الى الخارج مثل القطن والحمضيات ، وهذه تزرع على ماء الري ، ومجموعة أخرى غير قابلة للتصدير لتستهلك محلياً مثل الزيتون والتين وهذه تزرع على ماء المطر.

ومن ثم يدخل ماء الري كعامل أساسي في اقتصاديات التصدير وجلب العملة الصعبة . ومن ناحية أخرى فنحو نصف سكان الشرق الأوسط يعملون في الزراعة ، ومن ثم فتطوير الزراعة وتثويرها يصبح هو العامل الأول والفعال في تشغيل الناس ، وفي زيادة الانتاج ، وفي عملية النمو وعملية التمدين . هذا التطور والتنوير تتاح له فرص أكثر كثيراً في الزراعة القائمة على الري . وكمثال واضح لهذه العملية النهضوية نذكر أن الزراعة المصرية في عهد محمد علي قامت بثورة تمدين هائلة فقد أنشأ في بضع سنين قناطر محمد على الخيرية في رأس مثلث الدلتا ، وعدة قناطر على النيل في الصعيد وترعة الابراهيمية ، لتخلق واحة الفيوم وثلاثة رياحات في الدلتا المنوفي والبحيري والآشموني ، لتخلق الدلتا خلقاً . وأدخل زراعات القطن والتيل والبصل ، لتصبح من المحاصيل الأولى في جودتها في العالم .

هذا التطوير الهائل في الزراعة الذي تشبهه بثورة ايديولوجيتها هي « مضاعفة الانتاج لا الاستهلاك » ـ هذه الثورة كانت هي أساس بنى عليه تطوره الصناعي والعسكري ، والذي كان يمكن أن يحول مصر إلى يابان جديدة لو استمر في مساره .

إلى هذا المدى يمكن لزراعة الري أن تحدث تطويراً ونهضة بدون حاجة إلى الايديولوجيات المتضاربة والقائمة على جدل ثقافي .

توزيع المياه

إذا علمنا أهمية مياه الري في الشرق الأوسط في العملية النهوضية ، فعلينا أن نتتبع مواقع الماء في هذه المنطقة

تنحصر مياه الأنهار ، في وادي النيل وفي العراق فحسب .. وتروى زراعة اليمن وعسير من مياه الأمطار الصيفية ، وزراعات الجزائر والمغرب ولبنان من مياه الأمطار الشتوية .

وتكون مياه الواحات درجة وسطى ما بين مياه الأنهار وما بين مياه الأمطار ، وتغذي مياه الواحات زراعات الجزيرة العربية .

ومن ثم فالبحث عن المياه واستغلالها وإقامة مشاريع على الأنهار والواحات هو من أهم عوامل النهضة المنشودة . ومجال الأمل فيها كبير جداً .

ومن الظواهر التي يجب الالتفات إليها أن منابع أنهار النيل والفرات تقع خارج نطاق مصر ونطاق العراق . ولما كان من يسيطر على منبع النهر يمكنه أن يسيطر على مصبه ، كانت دائماً سياسة وادي النيل والعراق تتأثر بالقوى الدولية المؤثرة في مواقع منابع هذه الانهار . وكانت دائماً حركة النهضة مرتبطة بالسيطرة



نهر دجلة

■ كيف تواجه الزحف التكنولوجي والتطور العلمي في عمليات إنتاج الرغيف واللبن والبيض ؟

■ من مطامع إسرائيل الخفية في طابا استغلال مياه عذبة هناك في مفاعلاتها النووية

على منابع هذه الأنهار . فنهضة محمد على ارتبطت بزحفه إلى منابع النيل في خط الاستواء . وبالعكس أيضاً بدأت موجة الانحسار عندما توجه ببصره شمالاً نحو الشام فالأناضول .

وأما منابع دجلة والفرات فانها تقع في تركيا في جبال ارارات التي تصل إلى ارتفاع ستة عشر ألف قدم ، وهذا الارتفاع يحولها إلى مخزن ثلج هائل تغذي مياهه كلا من دجلة والفرات وأنهار تركيا وايران . ومجموع مياه هذه تفوق مجموع مياه نهر النيل .

وفي ايران سلسلة جبال تختزن ثلوجاً ، يغذي بعضها أنهار ايران ، ويضيع البعض الكثير في صحارى مالحة .

وأما مياه الشام ــ سوريا ولبنان وفلسطين والأردن ــ فانها أيضاً ترد من جبال تركيا أي خارج الشام .

والتكنولوجيا الحديثة

وإلى جانب الأنهار واستغلالها في الزراعة هيأت التكنولوجيا الحديثة فرصا كثيرة في اكتشاف مياه جوفية أو أنهار تحت السطح . وفي نقل المياه دون فاقد من خلال مواسير خاصة وفي سرعة ضخ المياه دون حاجة إلى مجهود جثماني يقوم به حيوان الزراعة .

قارن الشادوف وهو جردل ماء ينضح به الفلاح المياه من النهر إلى الأرض مستهلكاً كل عضلاته بمضخة تقوم بما يساوي هذا المقدار الكمي ملايين المرات في دقائق معدودة . قارن الساقية التي ترفع عشرين متراً في الساعة مستهلكة رأس مال يتمثل في زوج ثيران ، قارنها بمضخة ترفع آلاف الآلاف باستهلاك لايذكر . ودون حاجة إلى أن يخصص لها الفلاح مساحة من زراعة البرسيم التي يغذي عليها ثيرانه ، وهذه المساحة التي يمكنه إذن إستزراعها قمحاً أو ذرة لنفسه ولأولاده .

ان عملية تحويل الشواديف أو السواقي إلى نظم ميكانيكية هي في حد ذاتها استغلال مالي مضمون إلى جانب أنه تحويل زراعي نحو محاصيل يستخدمها الفلاح بدلاً من محاصيل حيوانية تحترق بالمجهود العضلي للحيوان ، دون أن تتحول إلى ناتج من لبن أو لحم .

وتظهر أهمية الري الميكانيكي والزراعة الميكانيكية الحديثة في العراق بالذات حيث ظهر عجز في عدد الفلاحين نتيجة التحول البترولي في الربع قرن الأخير .

وتظهر أهميته أيضاً حديثاً في سوريا والأردن وفلسطين حيث تقوم الزراعة على استغلال المياه الجوفية كمورد رئيسي للمياه .

ومع قلة اليد العاملة بالزراعة ــ سواء نتيجة التحول البترولي أو التحول الصناعي أو انتشار التعليم ــ تقوم التكنولوجيا بالتعويض عن غياب الجهد العضلي للفلاح . فالري بالرش والتنقيط لايحتاج إلى عمال زراعيين ، يجرون خلف المياه أو يطهرون الترع والمصارف والحرث الميكانيكي لا يحتاج إلى فلاح يمسك ، بالفرقلة ، خلف الثيران من الصباح إلى المساء وهكذا نرى أن الفلاحة تتحول تدريجياً إلى ميكانيكا ذات طابع خاص : فيها جانب كبير من الطابع الصناعي دون التعرض لمخاطر الصناعة من تلوث أو إجهاد أو استغلال ، ومن ثم فهي ستصبح منافساً قوياً للصناعة التقليدية . بل إن كثيراً من العمليات الزراعية المحضة مثل تربية الدجاج التي كانت تقوم بها الفلاحة داخل المنزل أصبحت الآن هي « صناعة دجاج » داخل عنابر ، وعبر عدة أسابيع محدودة ، تقوم خلالها الآلات بكل العمليات التربوية وتحويل البيض إلى كتاكيت والكتاكيت إلى دجاج .

إذن هناك زحف تكنولوجي وتطور علمي في عمليات انتاج الرغيف وانتاج البيضة . وأي تخلف تكنولوجي سوف يؤدي إلى نقص في الرغيف واللبن والبيضة وما يتبع ذلك .

ومن قبل التكنولوجيا هناك انجاز علمي بعيد الأثر في مصير البشرية . ألا وهو إنشاء الخزانات والسدود ولابد أن التكنولوجيا الحديثة سوف تطور هذه الخزانات والسدود تطوراً خيالياً لايخطر على البال في القريب العاجل أو الآجل .

فالخزانات والسدود على أي نهر تعني أمرين : غذاء وطاقة .

وكلما كان الجفاف في قارة ما أو في حوض نهر ما شديداً ، كلما لزم أن يكون الخزان كبيراً . وكلما كانت القنوات المائية تجف في الصيف عنها في الشتاء ، كلما لزم أن يكون الخزان متسعاً . وكلما ازدادت الأفواه التي تطلب الطعام وازدادت الحاجة إلى الطاقة ، كلما لزم انشاء خزانات أضخم وأضخم . وفي مرحلة يصبح تضخم الخزان هذا مسألة سياسية . لأنه يحدد المياه والطعام والطاقة لعدة دول . ويصبح مثل هذا الخزان هو البديل السلمي « لمعاهدات الدفاع المشترك » أو « لاستعمار » القرون الوسطى أو « للتاج الموحد » .

والواقع والملاحظ أنه بإنشاء الخزانات الكبيرة تفككت الأمبراطوريات القديمة وتهاوت التيجان التي كانت تتربع فوق عدة شعوب وانتهت فتوح وغزوات .

ومع ذلك فإنه مع ظهور الخزانات ، انتهى عصر كانت المياه فيه تنساب على طبيعتها وبالجاذبية وبقوانين الأواني المستطرقة . وكان الفلاح يرفعها إلى أرضه

■ حققت حرب ٦٧ لإسرائيل اغتصاب ٧٠٠ مليون متر مكعب سنوياً من الماء العذب



جمال عبدالناصر






محمد علي




شارون

السد العالي

بوسائل ري بسيطة أو بدائية . بدأت بعد الخزانات تظهر وسائل حديثة لنقل المياه ، ثم لرفعها للأرض ثم لتوزيعها نقطة نقطة على كل نبتة ، ثم محاولة حساب كل نقطة واحدة وكل نقطة منصرفة من تحت كل شجرة وبالكمبيوتر !! . وأصبحت وسائل الري ونظمه هذه مكلفة غاية التكليف ، بحيث تحتاج إلى تجميع زراعات كثيرة في وحدة كبيرة يمكنها شراء ماكينات ضخ وتوزيع المياه : بملايين الدولارات . وأصبح المالك الصغير غير قادر على مسايرة هذا التطور منفرداً ، كما كان بالشادوف الذي يديره بذراعه أو بالساقية التي يديرها بجاموسته .

وأصبحت الزراعات الجديدة في عهد الخزانات الضخمة عودة من جديد إلى الإقطاع ، وإن كان اقطاعاً من نوع جديد : زراعات مجمعة أو مزارع تعاونية أو شركات استثمار أو زراعة حكومية أو قطاع عام زراعي يقابل القطاع العام الصناعي ! وسوف يترتب على وجود مثل هذا القطاع العام في عالم الزراعة تغيّر اجتماعيٌ جديدٌ ، لايقل أهمية عن نشوء البروليتاريا في عهد الصناعات الكبيرة !

هناك إذن تغيير في الزراعة نحو الزراعات المجمعة والكبيرة تنهي عهد الفلاح المستقل ، سواء كان مالكاً صغيراً أو كبيراً أو مزارعاً ، يشبه إلى حد كبير ما حدث من تحول عندما انتهى دور الحرفي الصغير كالاسكافي الذي يصنع الحذاء يدوياً إلى صناعة مميكنة تنتج آلاف الأحذية في اليوم الواحد . وكما أن ثمن الحذاء عندما تحولت صناعته من الحرفة اليدوية إلى الصناعة الميكانيكية لم ينخفض ، فكذلك ثمن الغذاء لن ينخفض في عهد الزراعة الجماعية ، لأن كل تطور علمي في عالم الصناعة أو الزراعة يزيد شهية الأفراد فقيرهم وغنيهم إلى الاستهلاك المريح وأحياناً الاستهلاك ببذخ .

وهذه العوامل جميعها من زيادة في الانتاج الزراعي تصحبها زيادة أكبر كثيراً في الاستهلاك الغذائي نتيجة تفتح شهية طبقات جديدة سوف تزيد الأسعار ، وسوف تلقي ظلالها الاجتماعية على مجتمع الشرق الأوسط ، الذي يتطور بسرعة وبطريقة حتمية نحو زيادة الاستغلال الزراعي .

والمشاكل السياسية

● مشاكل مصرية سودانية : مشاريع الري على النيل الأبيض ، يعود عائدها على مصر ، بينما مشاريع النيل الأزرق يعود مردودها على السودان . وفي مرحلة الوجود الاستعماري البريطاني كانت بريطانيا تشجع مشاريع النيل الأزرق لخلق توتر بين العنصر السوداني والعنصر المصري . كمثال : خزان سنار على النيل الأزرق الذى تم بناؤه عام ١٩٢٥ . مع ذلك لم تتم اتفاقية توزيع مياهه بين مصر والسودان إلا عام ١٩٢٩ ، ولم تنتقل ملكية مياهه كاملة للسودان إلا عام ١٩٥٩ بعد ٣٤ سنة من بنائه !

خزان جبل الأولياء على النيل الأبيض ــ لصالح مصر ــ أنشىء عام ١٩٣٥ . وبعد اتفاقية السد العالي انتقل كلية إلى السودان مع خزان سنار . واقتسمت مياه السد العالي بين مصر والسودان بنسبة ٥٥ إلى ١٨ وانتقلت ملكية الخزانات في جبل الأولياء وسنار كاملة إلى السودان ، وأنشأ السودان خزانين جديدين عند الرصيرص وخشم القربة .

ومثل قيام السد العالي داخل أرض مصر ، بعيداً عن السودان ، انسحاباً من مشاكل الري مع السودان !

وبالتالي مثل ذلك عهداً جديداً من السياسة أسقطت نظريات وحدة وادي النيل والتاج المشترك !

• مشاكل الري في الشام : منابع الفرات تمر في سوريا ، وتنشيء سوريا خزاناً على الفرات داخل أراضيها ، تترتب على ذلك مشاكل مع العراق ومع لبنان ومع تركيا .

• مشاكل اسرائيل والعرب على نهر الأردن : شرعت اسرائيل في تحويل مياه نهر الأردن . وكان هذا هو الدافع لانعقاد أول مؤتمر قمة عربي عام ١٩٦٤ . وتكرر مبدأ القمة العربية في المشاكل السياسية . وعندما قرر العرب في مؤتمر قمة ٦٤ تحويل روافد النهر بعيداً عن اسرائيل ، كان هذا سبباً حقيقياً لحرب ٦٧ . وانتهت الحرب بالكف عن هذا التحويل .

ومن مطامع اسرائيل الخفية في طابا استغلال مياه عذبة هناك في مفاعلاتها النووية : قال شارون ــ صاحب ثغرة الدفرسوار وصاحب ضربة مفاعل العراق النووي وصاحب غزوة لبنان قال : يهمنا أن نصل إلى مياه بئر طابا العذبة فهي وحدها التي ستؤمن لتجاربنا الذرية النجاح والحياة في ديمومة ودون ذلك ستظل اسرائيل ضعيفة .. فهو يربط القوة باستعمال القنبلة الذرية وحدها !

• مشاكل مياه شط العرب : لم تكف المناوشات بين العراق وايران في شط العرب قبل تفجر حرب الخليج الدائرة الآن منذ ٦ سنوات . ولاشك أن هذه المناوشات الدائمة والمستمرة على حرية الملاحة في شط العرب وتحديد الحدود كانت عاملاً مزمناً في سوء العلاقات .

• المياه في مصر القديمة : قال هيرودوت مصر هبة النيل . سيدنا موسى ألقى في النيل سيدنا موسى كاد يغرق بقومه في مياه « خليج السويس » لولا معجزة عززه بها الله عندما فرق الماء بعصاه . أضخم جيوش العالم ــ جيش قمبيز افتقد الماء في مصر في سيوة فمات ودفن هذا الجيش وإلى الآن لم يعثر له على أدنى أثر .

• المياه في مصر المعاصرة : منذ شقت قناة السويس تجمعت حروب العالم كلها حول القناة ! تكونت بعد شق القناة امبراطورية صورية تمتد من السويس إلى باب المندب . تنافس على عرش هذه الامبراطورية فرنسا ثم انجلترا ، وتحاول اسرائيل السيطرة عليها ، وتقوم الآن قوة دولية متعددة الجنسيات بالخفارة عليها . وتقوم قوة انتشار سريع بالوقوف استعداداً قريباً منها .

أثرت هذه القناة ــ قناة السويس وامبراطورية البحر الاحمر على سيناء والوادي المقدس طوى الذي كان أرض السلام سابقاً قبل فتح القناة .

كل ايجابيات عبدالناصر تركزت حول محاولاته السيطرة على الماء : انشاء السد العالي ، تأميم القناة ولقد كانت الهزيمة عام ٦٧ بسبب المياه أيضاً عندما دعى العرب إلى تحويل روافد نهر الأردن .

كانت ايجابية السادات هي « عبور » مياه قناة السويس عام ٧٣ .

• المياه في تاريخ الامبراطوريات : تحولت الدولة الأموية العربية إلى امبراطورية يوم عبر معاوية « البحر » إلى قبرص وكريت . ويوم عبر طارق بن زياد « البحر » إلى أسبانيا .

كانت الدولة العثمانية امبراطورية في مرحلة سيطرتها الكاملة على البحر الأحمر حتى منعت أي سفينة غير اسلامية من دخوله من باب المندب وأجبرت مثل هذه السفينة على تفريغ بضاعتها على سفينة اسلامية ! وكانت الدولة العثمانية دولة أوربية عزيزة الجانب عن طريق « تحكمها في « مياه » البسفور والدردنيل . كانت بريطانيا العظمى امبراطورية وقت أن سيطرت على مياه البحار .

تتنافس روسيا وأمريكا اليوم على تأكيد قوة كل منهما على القارات الثلاث عن طريق تواجد أسطول متجول لكل منهما في البحر الأبيض بين هذه القارات الثلاث .

الخلاصة

الماء عنصر أغلى من الذهب ، وأغلى من البترول . بل أغلى عنصر في الوجود . ويمثل الماء عدل ورحمة اللّه بالبشر فكل مخلوق يتناول نفس القدر من الماء بالمساواة المطلقة ومن رحمة الله اللانهائية أنه لا يمنعه حتى عن الكافر !

والحياة نفسها سواء في الانسان أو الحيوان أو النبات مرتبطة بالماء . والجسم الانساني ما هو إلا قربة ماء أذيب فيها بعض الجير والعناصر الأخرى ولكن بتشكيلة الهية فذة .

والماء يحقق احتياجات ٥ مليار مخلوق بالتساوي ومليارات الحيوانات بالتساوي ومليارات الزروع والشجيرات بالتساوي . وأهم من ذلك أن هذا الماء يتبخر إلى سحاب ، ثم يهبط من جديد إلى الأنهار . وهو بهذا يحافظ على نفسه عبر التاريخ كله . لا قطرة ماء واحدة تنقص عما بدأت به الخليقة كلها .

مثل هذا العنصر الغالي جداً والذي هو رحمة مزجاة إلى الجميع تدور حال القوة لدى الأفراد والجماعات والأمم والامبراطوريات ، حول حسن استخدامه والسيطرة عليه والتعامل معه كنعمة لا مثيل لها .

ان من يملك زمام الماء يملك زمام التاريخ .

السيد فهمي الشناوي

حاشية هامة

• يتكلف متر الماء المكعب المستخرج بازالة ملوحة مياه البحر دولارين !

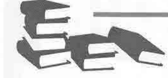
• قبل حرب ٦٧ حولت اسرائيل مياهاً من نهر الأردن بواقع ١٢٠ ألف دونم في الأردن وزادت ملوحة مياه النهر بعد قلة وبطء جريان المياه في المجرى .

• حققت حرب ٦٧ لإسرائيل اغتصاب ٧٠٠ مليون متر مكعب سنوياً من الماء العذب من مياه سوريا والأردن ولبنان وأدى هذا القدر إلى توسعها في انشاء المستوطنات في الضفة الغربية زيادة على إحداث دفعة قوية للزراعة الاسرائيلية . وهذه المتغيرات من أهم النتائج غير المنظورة لهذه الحرب .

• من نتائج حرب ٦٧ تحطيم سد خالد بن الوليد المقام على نهر اليرموك مما أثر على توليد الطاقة إلى جانب تعجيز الري .

• لا يقل المخزون المحتمل للزراعة العربية أهمية عن المخزون النفطي وحزام القمح العربي من العراق إلى سوريا إلى الجزائر إلى مراكش سهل التحقيق لوصحت العزيمة .

• منابع المياه وخزانات المياه العربية قد تكون عرضة لعدوان حربي في المستقبل خاصة من اسرائيل ولابد من العمل على حمايتها .



بقلم : الدكتور محمد البهي



الدعاء لله

كثير من المسلمين ـ فى حاضرنا ـ يتجهون الى الله بالدعاء ، ويتضرعون اليه كى يحقق لهم رغبة من رغباتهم اليومية ، أو رغبات العمر . ثم ينامون على أمل ، ويصبحون فلا يرون شيئاً تحقق . ثم تمر الأيام ولم يفقدوا الأمل بعد ، ويضيفون الى دعائهم بالأمس وأمس الأول دعاء اليوم ، وغد ، وبعد غد . وتظل النتيجة هى النتيجة .. تظل الرغبة فى حيز الرغبة ، ويظل الأمل فى حيز الأمل ، وواقع الحياه لا أثر فيه لرغبة أو أمل . وأخيرا يرجعون الى قول الله تعالى : « وقال ربكم : ادعونى استجب لكم » .. وكذا الى قوله : « واذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » (البقرة ١٨٦) . ويقفون عند ذلك . وربما تجول بخاطرهم هواجس شك ، أو على الأقل تدور فى نفوسهم حيرة : هم سألوا الله سبحانه على نحو ماذكر القرآن ، ولم يستجب كما وعد ، أيضاً فيما ذكره القرآن . ولكنهم لم يسألوا أنفسهم أولاً : هل هم عباد الله ، كما تنطق الآية الثانية ذاتها : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب » ؟ إنهم لم يسألوا أنفسهم . ولو سألوها ، ثم سألوا القرآن الكريم عن عباد الله لعرفوا حقيقة الأمر : لماذا كانت حيرتهم ؟ إذ يقول الله فى كتابه فى شأن عباده : « ياعباد ! : لاخوف عليكم اليوم ، ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين » (الزخرف ٦٨ ، ٦٩) فيؤمن الله عباده ـ فى الحياة ـ من الخوف ، ومن الحزن معا ، فعباد الله لايصل إليهم قلق نفسى بسبب الخوف من شىء .

فالإيمان الصادق بالله ، والتطبيق الواعى لمبادئه ـ كما جاء القرآن الكريم بهذه المبادىء ـ هو الأساس فى الوصف بعباد الله ، وهو الأساس بالتالى فى استجابة الله لدعاء عباده .

وصدق الايمان هو نتيجة امتحان واختبار لما فى الحياة التى نعيشها من فتنة وبلاء ، وإغراء وشدة معاً ، سواء أكان إغراء الجاه والمال ، والولد ، والمرأة .. أو كانت شدة الضيق ، والفقر ، والمرض ، ويصور الايمان الصادق مايحكيه القرآن عن تحدى الله سبحانه لإبليس فى أنه لايستطيع أن يكون له أثر على عباد الله ، لصدق ايمانهم بربهم وحسن ثقتهم فيه ، وتوكلهم عليه : فيما يذكره بقوله :

« واستفزز من استطعت منهم (أى من الذين يخف إيمانهم فيتبعون الشيطان أو الهوى والشهوة) : بصوتك (أى بصوت دعايتك ، ووعدك ، ووعيدك) وأجلب عليهم بخيلك ورجلك (أى بكل ما أوتيت من أنواع القوة المادية) وشاركهم فى الاموال والأولاد (أى مشاركة شيوع) وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلاً (الاسراء ٦٤ ، ٦٥) فيعطى الله لإبليس الفرصة فى أن يستخدم كل وسيلة للإغراء من الأموال ، والأولاد ، والوعود الخادعة .. وكل وسيلة أخرى للإرهاب من القوة المادية فى العدد والعدة ومن قوة الاذاعة والاعلام ، وذلك للحيلولة دون الايمان بالله . فمن عدا عباد الله عرضة لقبول تأثير الاغراء ، أو الارهاب . أما عباد الله بإيمانهم بالله ، وتوكلهم عليه سبحانه .. فهم بمنجى من هذا التأثير .

والغرض من حوار إبليس ـ مصدر الشر ـ مع الله سبحانه وتعالى هنا هو تصوير أن الدنيا بمفاتنها وإغرائها ، وكذلك بما يقع فيها من اكراه ، وارهاب ، من شأنها أن تؤثر على ضعاف الايمان ، دون أقوياء المؤمنين .

والتطبيق العملى الواعى لمبادىء الايمان الصادق يحكيه قوله تعالى فى وصف سلوك عباد الله : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاماً . والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، والذين يقولون : ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً . انها ساءت مستقرا ومقاماً . والذين اذا أنفقوا (أى على أنفسهم وأهليهم) لم يسرفوا ، ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً . والذين لايدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله ، الا بالحق ، ولا يزنون .. الى أن يقول : والذين لايشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراما . والذين اذا ذكروا بآيات ربهم ، لم يخروا عليها صماً وعميانا . والذين يقولون : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما » (الفرقان ٦٣ ـ ٧٤) .

فعباد الله هم :

الذين لايزهون بأنفسهم خيلاء وكبرا .

والذين يغضون الطرف عن أخطاء الحمقى

والذين يحافظون على أن يكون ليلهم قربى الى الله وعبادة اليه ، دون أن يكون لمؤامرة أو تدبير سوء

والذين هم يعتدلون فى انفاق مالهم محافظة على ذويهم وأقربائهم من بعدهم ، ورعاية لأصحاب الحاجة عداهم فى وجودهم .

والذين لايباشرون الجرائم الاجتماعية

والذين لايشهدون بالزور

ولا يقضون قليلاً أو كثيراً عند لغو القوم

والذين اذا ذكروا بآيات الله فى مشورة تقدم اليهم لم يغفلوا شأنها .

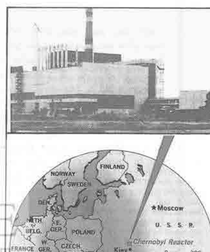
والذين يتجهون الى الله فى شئونهم الخاصة فى : أن يسعدهم فى بناء أسرهم ، وتوجيه أولادهم .

فمن ليس من عباد الله من المسلمين اليوم لاينتظر استجابة الدعاء الى الله ، لأنه ـ من ليس من عباد الله ـ حول دعاءه الى الله : الى « شعار » فقط . والدعاء الى الله هو : ختام عمل ، وليس بداية قول .

التلوث بالإشعاعات النووية

بقلم: المهندس
سعد شعبان

السحابة الذرية بعد انفجار هيروشيما



مفاعل تشيرنوبيل

■ احتراق المُفاعل النّووي السوفيتي بمثابة دَقّ ناقوس الخطر لمراجعة وسائل الأمان في كل مفاعلات العالم

حادث احتراق المفاعل النووي السوفيتي في تشيرنوبيل في ٢٦ أبريل ١٩٨٦ ليس الأول من نوعه وبالتأكيد أنه لن يكون الأخير.

ولكنه أثار ضجة اعلامية كبيرة في الدول الغربية لأن الاتحاد السوفيتي فرض تعتيماً اعلامياً على الحادث لمدة ثلاثة أيام حتى اكتشف الأمر بواسطة أجهزة القياس الاشعاعية في السويد، ثم بواسطة أقمار الاستشعار من بعد. والسبب المرجح لاحتراق المفاعل السوفيتي هو خلل أصاب جهاز التبريد فيه، أدى إلى ارتفاع هائل في درجة الحرارة فنتج عن ذلك اندلاع الحريق. والأمر المعروف عن هذا النوع من المفاعلات أن قلب المفاعل يعمل بوقود نووي هو عنصر «اليورانيوم ٢٣٥ المشع» تغلفه طبقات من عنصر «الزركونيوم» بينما يهدئ التفاعل مادة الجرافيت أي الكربون النقي. ويقوم الماء بعملية التبريد من الخارج. وفي حوادث احتراق كهذه لا تجدي وسائل اطفاء الحريق التقليدية، بل يجب أن تتبع وسائل خاصة.

■ تكررت حوادث المفاعلات النووية مئات المرات في كل الدول وما أُخْفِيَتْ أخباره أكثر مما عُلِم

ولذلك يسمى هذا النوع من المفاعلات باسم مفاعلات الماء الخفيف والجرافيت، ويتحول الماء بعد قيامه بالتبريد إلى بخار، يستخدم في ادارة التوربينات البخارية، لتوليد الكهرباء.

وهذا النوع من المفاعلات، مضى على استخدامه في العالم أكثر من ٢٥ سنة ولا يستخدم إلا في الاتحاد السوفيتي وحده.

ولقد فرض حظر على تصديره حتى إلى دول الكتلة الشرقية لانه يستخدم إلى جانب توليده للكهرباء، في انتاج مادة البلوتونيوم، وهي المادة التي تعمل كوقود نووي في عدة أغراض عسكرية.

ويتكون مفاعل تشيرنوبيل من أربع وحدات، بدأ اقامتها منذ عام ١٩٧٨، وآخرها وهي الوحدة الرابعة التي احترقت والتي لم يبدأ تشغيلها إلا عام ١٩٨٤ وما زالت هناك وحدتان من نفس النوع تحت الانشاء في نفس الموقع. وقدرة كل وحدة من هذه الوحدات ١٠٠٠ ميجاوات.

غير أن أهم ما يميز هذا النوع من المفاعلات هو افتقاره إلى وسائل الأمان الواقية، إذ لا يوجد به قبة وقائية كما هو متبع في تصميم المفاعلات المستخدمة في الدول الغربية والولايات المتحدة، وهي القبة الخرسانية الضخمة التي تمنع الاشعاعات من التسرب خارج المفاعل، حتى لو حدث لقلب المفاعل خلل أدى إلى انصهاره.

فضلاً عن أن العمل في مثل هذا النوع القديم من المفاعلات يعتمد إلى حد كبير على الجهد البشري، بدلاً من الاعتماد على التحكم بالحواسب الاليكترونية. لذلك تسربت مع غازات الحريق بعض المواد المشعة وتكونت منها سحابة مشعة هي التي شكلت عنصر الخطورة على الأهالي في المناطق المجاورة.

ولأن السحابة المشعة اتسعت، وتقاذفتها الرياح فقد انتقلت إلى كثير من الدول المجاورة، كبولندا ورومانيا والدول الاسكندنافية كلها، وامتدت السحابة في اتجاه آخر فغطت ألمانيا وفرنسا حتى وصلت إلى جنوب ايطاليا. ولقد حدث ذعر جماهيري على مستوى العالم المتحضر، عندما أمطرت السماء في كثير من هذه البلاد، خوفاً من احتمالات انتشار التلوث الاشعاعي بماء المطر وامتداده إلى كثير من الأراضي بتسرب هذه المياه إلى جوف الأرض.

ولقد أسفر الحادث عن بضع عشرات من القتلى و (٣٠٠) مصاب.

ويظن البعض خطأ أن الحريق كان من الممكن أن يؤدي إلى انفجار المفاعل فيكون

آثار الانفجار في تشيرنوبيل كما التقطته الأقمار الصناعية



التلوث بالإشعاعات النووية

كقنبلة نووية مدمرة ، وهذا ظن لا يقوم على شيء من العلم لأن تركيز المواد القابلة للانشطار في المفاعلات النووية لا يزيد عن ٧٪ في حين القنبلة الذرية تحتاج إلى مواد يكون تركيزها حوالي ٩٠٪ .

ولقد سارعت السلطات السوفيتية الى اخلاء المدن والقرى المحيطة بالمنطقة من سكانها ، كإجراء وقائي ، واهتموا في أول الأمر بالاطفال والسيدات الحوامل . ولقد قدر المراقبون أن عدد المهجرين بعيداً عن مركز الاشعاع كانوا ١٠٠ ألف في دائرة نصف قطرها ٣٢ كيلو متراً عن المفاعل وأن أغلب من أصابهم الاشعاع باصابات جسيمة نقلوا الى موسكو للعلاج ولقد تصاعدت الاجراءات بالتوصية باجهاض كل سيدة كانت حاملاً وتأثرت بالاشعاع .

ولقد سيطرت السلطات السوفيتية على المفاعل المحترق بالقاء كميات ضخمة من الرمل المبلل المختلط بكميات من الرصاص ومعدن البورون بواسطة طائرات الهيليكوبتر . كما أقامت حاجزاً خرسانياً حول قلب المفاعل غرز تحت سطح الأرض حتى عمق ٣٠ متراً ، ليكون جدارا واقياً يمنع استمرار تسرب الاشعاع . وقد ملىء الفراغ تحت قلب المفاعل بالنيتروجين المسيل ليزيد في أحكام الحصار حول مصدر الاشعاع .

الخلل في المفاعلات النووية

لقد لفتت الضجة الاعلامية التي صاحبت احتراق المفاعل السوفيتي الانظار إلى خطورة الاشعاعات النووية ، ولكن كم من سحابات أخرى كانت تغطي رقعاً من العالم . دون أن تكتشف أو أن يعلن عنها . لقد كان ذلك شائعاً خلال الخمسينات والستينات عند اجراء التجارب النووية حتى تم الاتفاق بين حكومتي الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، على ايقاف اجراء التجارب النووية في أعالي الغلاف الجوي والفضاء والتحول باجرائها الى باطن الأرض . وقبل هذا الاتفاق أجريت عشرات التجارب التي لم يعلن عنها . ولا شك أنه كان يصاحب كلا منها سحابات مشعة وأنها أهلكت كثيراً من الحرث والنسل ، ولكن في صمت .

ومنذ سنوات قليلة وقع حادث انفجار المفاعل النووي الأمريكي « ثري مايلز ايلاند » في ولاية بنسلفانيا عام ١٩٧٩ . ولكن الفارق أن هذا المفاعل كان من نوع مخالف للنوع السوفيتي وله قبة خرسانية وقائية منعت تسرب الاشعاعات .

ولقد كشفت الأخبار أن إحدى التجارب النووية الأمريكية التي أجريت مؤخراً تحت الأرض قبل احتراق المفاعل السوفيتي بأسبوعين وعلى وجه التحديد يوم ١٠ ابريل ١٩٨٦ ، صاحبها بعض الخلل ونجم عن ذلك بعض القلق واضطرت السلطات الأمريكية الى اجلاء ١٠٠ شخص من منطقة التجارب في صحراء نيفادا . ولم يكشف الستار عن هذا الحادث إلا بعد حريق المفاعل السوفيتي بأكثر من أسبوعين .

ثم كشفت الأنباء أيضاً عن خلل في مفاعل سويدي ، وحادث آخر في ألمانيا وقع في مايو ١٩٨٦ ، وثالث في بريطانيا ، ورابع في فرنسا ، وخامس في كندا .

والحقيقة أن التاريخ شهد عدة حوادث أصابت عدداً من المفاعلات النووية بالخلل في دول متعددة كان أولها في كندا عام ١٩٥٢ ، وثانيها في روسيا عام ١٩٥٤ وواحد منها في بريطانيا عام ١٩٥٧ . ثم توالت ثلاث منها في الولايات المتحدة في أعوام ١٩٦١ ، ١٩٧٥ ، ١٩٧٩ على التوالي ، وواحد منها في اليابان عام ١٩٨١ حتى وقع حادث المفاعل السوفيتي في ابريل ١٩٨٦ .

■ السيطره على المواد النووية كالسيطرة على مارد ألف ليلة وليلة في قمقم ، ومصيره أن يُطيحَ بكل ما حوله

■ من المواد ما يظل مُشعّاً لعِدّة قرون وبعضها تتوقف إشعاعاته خلال ساعات

وهناك احصائيات تشير الى أن (١٧١) خللاً نووياً قد وقع خلال الثلاث سنوات الأخيرة وأنه أمكن تدارك بعض آثار هذه الحوادث أو اخفاء البعض الآخر .

وربما كان الحادث السوفيتي هو أكثرها اشعاعاً وهذا ما عبرت عنه الاجراءات التي اتخذتها السلطات السوفيتية من ترحيل عدة آلاف من المواطنين القاطنين على مقربة من مكان الحادث وتحذيرهم من عدم تناول الخضروات وخاصة الورقية كالخس والسبانخ والفواكه التي كانت على الأشجار ، وعدم الاستحمام بمياه الانهار ، وعدم التواجد في المنتزهات وعدم شرب الألبان أو تناول اللحوم من الحيوانات التي كانت في المنطقة .

ولعلنا نتذكر أن بعض الكوارث النووية أتت من الفضاء فبعض الأقمار الصناعية العسكرية وبعض سفن الفضاء فيها محركات تعمل بالطاقة النووية . فمنذ سنوات قليلة سقط قمر صناعي سوفيتي من طراز « كوزموس » فوق كندا ، وقد ظل البحث عن أجزائه بين كثبان الجليد مدة تزيد عن ستة شهور وتكلفت عمليات البحث عنها عدة ملايين من الدولارات .

والحقيقة المجردة أن الحوادث تعتبر أمراً عارضاً ، كما يحدث للسيارات والطائرات ، ولكن بالنسبة للمفاعلات فهناك فرق ، لأن الاشعاع النووي عواقبه مدمرة ، ونتائجه وخيمه . لأن تكنولوجيا الطاقة النووية ، لم يحكم الانسان السيطرة على كل أبعادها بعد ، ومازالت قدراته العلمية دون التغلب على كل أضرارها .

المفاعلات النووية وأنواعها

لكي يقام مفاعل نووي في أي دولة غير الدول الكبرى ، فإن الأمر يقتضي بعض الترتيبات التي يمكن أن يقال انها تصل إلى الوقوف في طابور طلب الاستئذان في الانضمام الى ما يطلق عليه اسم « النادي الذري » وعضوية هذا النادي ليست مطلقة ، ومن مقتضياتها أن يخضع المفاعل لنوع من التفتيش بواسطة الوكالة (الدولية للطاقة الذرية) ذلك





ملابس خاصة للوقاية من الاشعاعات



قضبان التحكم في المفاعل السوفيتي

أن قلب كل مفاعل لابد أن يحوي المادة النووية القابلة للانشطار وهذه المواد النووية المشعة مواد نادرة الوجود في الطبيعة ، وتفرض على تداولها قيود دولية . كما أن استخراجها من الأرض واستخدامها في الصناعة يتم بإجراءات معقدة . والدولة التي تمتلك مواد مشعة تمتلك ثروة غالية القيمة . ففي بعض المستعمرات الأفريقية مثلاً تتم عمليات استخراج لهذه المواد النووية في سرية وبأساليب ملتوية لا يدركها أهل البلد أنفسهم . بل أن بعض الدول الكبرى تتشبث بمستعمرات لها ، من أجل هذه المواد النووية بالتحديد لأنها نادرة الوجود .

وتمثل المواد المشعة حجر الزاوية في قلب المفاعل ، ففيها يتم تحويل الطاقة النووية إلى طاقة احرار ، يقذف نوايا ذرات المادة المشعة بالنيوترانات فتحدث انشطاراً في ذراتها يؤدي في النهاية إلى ارتفاع مهول في درجة الحرارة تعجز ملايين الأطنان من المواد البترولية أو المواد المشتعلة عن توفيره . وبالتالي فانه يلزم أن تتوفر عملية تبريد لتهدئة هذه الحرارة المتأججة في قلب المفاعل . وذلك قبل أن تستغل درجة الحرارة العالية في التحول إلى بخار يمكن أن يدير مجموعة توربينات لتوليد الطاقة الكهربية .

ولقد كانت درجة حرارة قلب المفاعل السوفيتي الذي احترق ٤٠٠٠ درجة مئوية ، وهناك طرق تبريد مختلفة ، تستخدم لتبريد قلب المفاعلات النووية ، وعلى هذه الطرق يتوقف نوع المفاعل .

والمعروف أن هناك طرقاً مختلفة للتبريد ، فقد سبق استخدام التبريد بالماء الثقيل بعد الحرب العالمية الثانية في بريطانيا وهناك التبريد بالماء العادي مع استخدام الجرافيت كمهدىء كما هو الحال في المفاعل السوفيتي الذي احترق وهي طريقة قديمة كما أسلفنا .

كما أن هناك طريقة فرنسية لاستخدام الماء العادي ما زالت مستخدمة إلى الآن . غير أن أحدث وسائل تبريد المفاعلات هي تلك المستخدمة في الولايات المتحدة والتي يستخدم فيها الماء المضغوط .

ولقد أفلحت الولايات المتحدة في تصدير تكنولوجيا التبريد بالماء المضغوط وسمحت بتصدير مفاعلات من هذا النوع خارج أراضيها ، فقد باعت ٣٠ مفاعلاً منها لدول شيوعية .

ولقد استخدمت نفس التكنولوجيا في الاتحاد السوفيتي ، بعد أن أقام عدداً لا يقل عن (٢٥) مفاعلاً تعمل بالجرافيت والماء على غرار المفاعل الذي احترق .

وفي خطة الاتحاد السوفيتي اقامة ٤٨ مفاعلاً جديداً حتى عام ١٩٩٠ ليوفر ١٤٪ من الطاقة المستخدمة فوق أراضيه المترامية الأطراف .

غير أن الفارق الرئيسي بين المفاعل السوفيتي الذي احترق والأنواع الحديثة لا يتمثل في طريقة التبريد فحسب ، بل أيضاً في افتقاره إلى مزيد من وسائل التأمين والتحكم .

وأهم استعدادات التأمين أن المفاعلات السوفيتية ليس فيها المبنى الاحتوائي أو وعاء الاحتواء الوقائي الذي يصنع من طبقات سميكة من الخرسانة المسلحة ويبطن بالرصاص ويكون على هيئة قبة تمثل الحاجز الوقائي الذي يقي المفاعل من هجمات الطائرات حتى لو أسقطت القنابل فوقه .

وإن كان يوجد في العالم حالياً ما يقرب من (٣٧٥) مفاعلاً نووياً موزعين على ٣٢ دولة ، فإن الاحصائيات تشير إلى أن (١٧٥) مفاعلاً أخرى تحت الإنشاء .

وجدير بالذكر أن الاقبال المتزايد على اقامة المفاعلات النووية هو الرغبة في الحصول على طاقة كهربية رخيصة ، هذا بالرغم من أن الثمن الأساسي لاقامة أي مفاعل يعتبر باهظاً ، كما أن متوسط تكاليف تشغيله تبلغ ٣٠ مليون دولار سنوياً ، فضلاً عن أن تكاليف التأمين السنوية تبلغ ثلاثة أمثال هذا المبلغ لأن السيطرة على المارد القابع في قلب المفاعل والمتمثل في انطلاق الطاقة من نوى الذرات تكنولوجياً ما زالت معقدة والسيطرة عليها ليست سهلة .

وتشير الاحصائيات إلى أن أسبق دول العالم إلى استخدام الطاقة النووية هي فرنسا ، حيث تعتمد في توليد ٦٥٪ من الطاقة اللازمة لها على المفاعلات النووية ، ويوجد فوق أراضيها حالياً ٤٤ مفاعلاً بينما يوجد (١٧) أخرى تحت الانشاء ، ثم تليها فنلندا ثم السويد فاليابان هذا من حيث نسبة توليد

التلوث بالإشعاعات النووية

الطاقة أما من حيث عدد المفاعلات فإن الولايات المتحدة تستخدم ١٠١ مفاعل ولديها ٢٩ تحت الإنشاء والاتحاد السوفيتي لديه ٥١ مفاعلاً و ٣٤ تحت الانشاء ، وانجلترا فيها ٣٧ مفاعلاً ٢ تحت الانشاء .

وأهم العناصر النووية المشعة المستخدمة في أغلب المفاعلات النووية هي « اليورانيوم ـ ٢٣٥ » التي يتم انشطارها انشطارا متسلسلاً في قلب المفاعل ومادة اليورانيوم الموجودة في الطبيعة يكون تركيز عنصر اليورانيوم ـ ٢٣٥ فيها بنسبة أقل من ١٪ . فاذا زاد تركيزه عن ذلك فإنها تعرف باسم « اليورانيوم المخصب » .

وفي بعض المفاعلات يستخدم كوقود عنصر « يورانيوم ـ ٢٣٨ » فينتج عن ذلك مادة « البلوتونيوم » التي هي في حقيقتها « يورانيوم ـ ٢٣٩ » وهي مادة استراتيجية تستخدم للأغراض العسكرية .

ويتم التحكم في سرعة الانشطار الذي يتم داخل المفاعلات بواسطة قضبان تحكم . وفي أغلب المفاعلات المستخدمة حالياً لا يستغل أكثر من ١٪ من الطاقة النووية الكامنة في ذرات المواد المنشطرة .

المواد المشعة

المواد المشعة توجد في الطبيعة مختلطة بالصخور في باطن الجبال أو برمال بعض الشواطئ أو الصحاري . وقد عرفت المواد المشعة منذ عام ١٨٩٥ بواسطة العالم الألماني « رونتجن » الذي يرجع إليه فضل معرفة الأشعة السينية أو أشعة اكس المستخدمة في الطب حتى الآن .

ومن بعده كشف العالم الفرنسي (بيكريل) عن الطبيعة المشعة « لعنصر اليورانيوم » عام ١٨٩٦ .

ثم أثبتت مدام كوري وزوجها عام ١٨٩٨ نظرية استخلاص المواد المركزة الاشعاع كالراديوم والتي تزيد اشعاعاتها (٢ ½ مليون) مرة عن اشعاعات اليورانيوم .

وبعد ذلك رسخت المعلومات عن تحول المواد المشعة إلى طاقة بفضل العالم « اينشتين » الذي رسم للبشرية كيف ينطلق المارد من القمقم بحسابه العلاقة بين المادة والطاقة . وأمام هول ما توصل إليه هذا العالم المبرز واكتشافه امكانية استخراج الطاقة من براثن ذرات المادة التي عجز الانسان عن مشاهدتها تحقق حلم قديم .. عبر عنه المثل العامي « يجعل سره في أضعف خلقه » وتمثل ذلك في معادلة بسيطة في مفرداتها وتركيبها هي :

الطاقة الناتجة من تحول المادة = كتلة المادة × مربع سرعة الضوء .

$$(\text{ط} = \text{ك} \times \text{س}^2)$$

ونظراً لأن سرعة الضوء هي أكبر سرعة عرفتها البشرية وتعادل ٣٠٠،٠٠٠ كيلومتر في الثانية الواحدة ، فإن الطاقة المتولدة من تحول كتلة صغيرة تعتبر مهولة للغاية .

وتمت في الولايات المتحدة تجربة أول قنبلة ذرية في صحراء نيومكسيكو في ١٦ يوليو ١٩٤٥ . ونتج عنها تدمير شديد وضوء مبهر وحرارة قدرت أنها تفوق أكثر من مليون درجة مئوية . ثم نفذت التجربة في نهاية الحرب العالمية الثانية بانطلاق المارد النووي مزمجرا ومميتا ومحدثا خراباً لم يعهده الانسان من قبل على مدى الأجيال السابقة .

فقد محت قنبلتان ذريتان ألقيتا فوق مدينتي هيروشيما ونجازاكي اليابانيتين كل كائن حي فوق رقعة تجاوزت مساحتها ٢٠ كيلو متراً مربعاً وقدر عدد الضحايا بأكثر من

■ العالم اينشتاين هو الذى وضع معادلة استخراج الطاقة من نواة الذرة

■ أخطار الإشعاعات النووية تتراوح بين القيء والإسهال والأورام والموت البطيء



المفاعل النووى

٢٠٠،٠٠٠ شخص ماتوا لتوهم في المدينتين ، ولكن الذين لقوا حتفهم كانوا أسعد حظاً من الذين بقوا أحياء فهؤلاء قد ذاقوا ألواناً من العذاب وتجرعوا آلاماً لم يعرفها البشر من قبل ، وظل بعضهم يعاني من العذاب والتشوهات عشرات السنوات ، وانتشرت في أغلبهم أورام السرطان ولوكيميا الدم .

ولقد تعارف العلماء على أنواع الاشعاعات التي تصدر من المواد المشعة وهي :

أشعة ألفا :

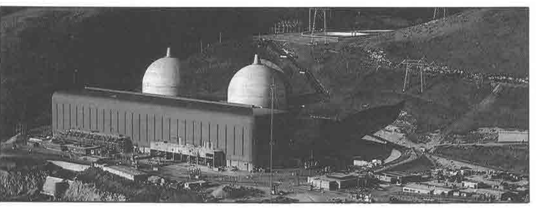
وهي فيض من الجسيمات المحملة بشحنات كهربية موجبة ولها القدرة على النفاذ بضعة سنتيمترات في الهواء ، أو النفاذ بضع ملليمترات في بعض المواد ، وسرعتها تقرب من $\frac{1}{30}$ من سرعة الضوء أي نحو ١٠،٠٠٠ كيلومتر في الثانية الواحدة .

أشعة بيتا :

وهي فيض من الجسيمات السالبة التكهرب تعرف بدقائق بيتا وسرعتها تقرب من سرعة الضوء ولذلك فهي أكثر قابلية للنفاذ في المواد التي تعترضها ، ويمكن أن تحدث حروقاً جلدية ويمكنها كذلك أن تنفذ من الجسم وتحدث اضراراً في أنسجته ، ولكن إذا وجدت أمامها رقائق من المعدن فانها تستطيع أن توقفها .

أشعة جاما :

ويمكن اعتبارها كسيل من الدقائق المتعادلة كهربياً أو حزمة من الاشعاعات الكهراطيسية



القبة الاحتوائية فوق مفاعل نووي

طولها الموجي غاية في الصغر حتى ولا تتعدى لذلك فإن لها قدرة نفاذ عالية في اختراق الأجسام والأشعة السينية.

ومعنى ذلك أن كل مادة مشعة، تتحول إلى مادة أخرى بعد زمن معين لأن المادة الأصلية يعتريها بعض التحلل، وقديماً حاول العلماء تحويل اليورانيوم إلى راديوم ونجحوا في ذلك، وكذلك حولوا الراديوم إلى رصاص، لأن كل عنصر مشع تتفكك نسبة صغيرة من نوى ذراته في كل ثانية، وتتحول إلى اشعاع، فإذا كان نشاط التحول شديدا فإن ذلك يتم خلال ساعات، وإذا كان النشاط صغيراً فإن الاشعاع يظل سنوات أو قروناً.

فالراديوم مثلاً عنصر سريع التفكك، الجرام منه يتحول إلى نصف جرام خلال عام ونصف أما اليورانيوم فيتم ذلك خلال ٤٠٠٠ مليون سنة، وكما أمكن للعلماء معرفة طبيعة الإشعاعات، فقد أمكن أيضاً الحصول عليها صناعياً كما حدث بالنسبة للاشعة السينية (اكس). فإذا وقعت أشعة ألفا مثلا على ألواح من معدن الالومنيوم، فإنه يصدر عن ذلك مجموعة من الجسيمات مكونات ذرية تعرف بالبوزيترونات أي الالكترونات الموجبة، لكن إذا أوقف تسليط أشعة ألفا فإن الألومنيوم يظل يشع، ومعنى ذلك أن النشاط الاشعاعي يظل متسلسلاً، لأن ذرات الألمونيوم تحولت من حالة الاستقرار إلى حالة الاشعاع.

التلوث الاشعاعي

يختلف عن عملية الانشطار في المفاعلات النووية ما يقرب من ٣٥ عنصراً في حقيقتها نظائر مشعة مختلطة، وكلها ذات نشاط اشعاعي شديد، وصداها نظائر عناصر الروبيديوم، والسيزيوم والاسترونشيوم، والباريوم والجارولينيوم والزكينيوم والنيوبيوم والموليبدنيوم.

والحقيقة أن نظائر العناصر أصبحت كثيرة العدد وتقرب من ٢٠٠٠ نظير أكثر من ثلاثة أرباعها مشع.

ولقد تعارف العلماء على قياس النشاط الاشعاعي بوحدة يطلق عليها اسم الرونتنجن، نسبة إلى العالم الألماني مكتشف أشعة اكس.

والمعروف أن هناك اشعاعات طبيعية تأتي من الفضاء الخارجي نتيجة لحدوث الانفجارات في الشمس وملايين النجوم الأخرى التي حولنا وتصل إلى سطح الأرض، وقد اطلق العلماء عليها اسم «الأشعة الكونية» cosmic rays، ويمكن أن يتحمل جسم الانسان منها ما قدره ٢ رونتنجن بلا ضرر، بينما يتعرض سكان المناطق الجبلية إلى قدر أكبر من هذه الاشعة بين ٢٠، ٤٠ رونتنجن. ومن المعروف أن جسم الانسان يستطيع أن يتحمل جرعات من الاشعاعات الصناعية على فترات متباعدة، ولكن الجرعات المركزة منها تميت.

ولقد توصل العلماء إلى وحدة أخرى تقيس تأثير الأشعة على أنسجة الجسم، وأطلقوا اسم «ريم» (rem) والانسان يمكنه أن يتحمل اشعاعات من الطبيعة تحدث (١٠٠) ريم مضافاً إليها اشعاعات صناعية تحدث (٨٠) ريم، ولكن إذا كثرت الاشعاعات عن (١٠٠) ريم فمن المؤكد أن الجسم يصاب بالأمراض.

ويمكن تقسيم تأثير الاشعاعات الصحية إلى درجات على النحو التالي:

من ١٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ ريم:
تحدث تغيرات جوهرية في الدم تظهر خلال ١٤ يوماً وتكون فرصة الموت محققة بنسبة ١٠٠٪.

من ٦٠٠ إلى ١٠٠٠ ريم:
يحدث انخفاض في عدد كرات الدم البيضاء وتظهر تسلخات وفقاقيع على الجلد خلال مدة بين ٤، ٦ أسابيع، وتكون احتمالات الموت بين ٨٠، ١٠٠٪.

من ٢٠٠ إلى ٦٠٠ ريم:
يحدث انخفاض في عدد كرات الدم البيضاء، وتظهر تسلخات على الجلد وتكون احتمالات الموت بنسبة ٥٠٪.

من ١٠٠ إلى ٢٠٠ ريم:
ينخفض عدد كرات الدم البيضاء، ولا تظهر أعراض سريعة على الجسم ولكن احتمالات الاصابة بالسرطان بعد مدة طويلة كبير.

أقل من ١٠٠ ريم:
تظهر أعراض الدوخة، والقيء، ولا توجد هناك أخطار.

نخلص من ذلك إلى أن التلوث الاشعاعي أصبح على قمة ألوان التلوث التي تتلف البيئة، لأن عواقبه المرضية وأثره على الصحة وخيم، وتداركه بالعلاج الطبي غير مجد، أو بطيء.

سعد شعبان

هامش

- رئيس تحرير مجلة المهندسين بالقاهرة.
- عضو لجنة الفضاء باتحاد الطيران الدولي بباريس.
- عضو لجنة الفضاء بأكاديمية البحث العلمي بالقاهرة.
- جائزة الدولة في تبسيط العلوم.

خواطر تسرّ الخاطر



بقلم: زكريا تامر

مدارس للكبار والصغار

الأمهات مدرسة ، والآباء مدرسة ، والأقارب مدرسة ، وسكان الحي مدرسة ، وأهل المدينة والقرية مدرسة ، والعصي مدرسة ، والكتب والصحف والمجلات والاذاعات والتلفزيونات مدرسة .

كل ما هو موجود على سطح الأرض مدرسة لا مهمة لها إلا تعليمنا ، ولم نكن بالكسالى ، انما كنا التلامذة النجباء الذين يهرعون من المهد إلى اللحد من امتحان إلى امتحان ، وعند الامتحان يكرم المواطن أو يهان ، وبعضنا أهين ، وبعضنا لم يكرم .

تعلمنا كيف نتكلم ونزحف ونبصر ونسمع .
تعلمنا كيف نسير على الأقدام والأيدي والرؤوس .

تعلمنا كيف نمضغ الطعام ونطحنه بالأسنان والأضراس ونبتلعه ، فإذا لم نجد أيّ طعام ، لا نتذمر ونحتج ونثور ، انما نأكل الهواء ، والهواء كثير ورخيص الأسعار .

تعلمنا كيف نضحك ، ومتى نضحك ، ولماذا نضحك ، ملتزمين بتنفيذ خطط التنمية الاقتصادية .

تعلمنا كيف نحب ونعشق ، وتعلمنا الألفاظ الوطنية الحماسية التي يستحسن أن تقال لمن نحب ونعشق .

تعلمنا كيف نمرض ونموت ونستكين ونطيع .
تعلمنا كيف نصفق كأن لكل واحد منا ألف يد .
تعلمنا الكثير ، وكل سنة من سني حياتنا تعلمنا المزيد مما لا نعلم ، وترشدنا إلى ما هو مباح لنا وما هو محظور علينا .

ومن يعرف المباح ينجح في الهرب من تجرع كأس المنايا .

مباح لنا أن نبصر الفيل نملة والنملة فيلا .
مباح لنا التحدث بسوء عن أصدقائنا ، ومباح لأصدقائنا أن يردوا علينا أقسى رد .

مباح لنا أن نختار بحرية مطلقة فريق كرة القدم الذي نرغب في مؤازرته ومتابعة أنباء انتصاراته وهزائمه كأنها أنباء الفتوحات العربية .

مباح لنا أن نندد باسرائيل تنديداً ضارياً يعتمد على اللسان لا على السلاح .
مباح لنا أن نسكت متى نشاء ، ومباح لنا بأن نطالب باصدار قوانين تدفن ما تبقى من حريتنا ، فالحرية تؤدي إلى الفوضى ، والفوضى لا تخدم إلا أعداء البلاد .

مباح لنا أن نبني السجون بوصفها بناء غد أفضل للوطن . مباح لنا أن نهرق دمنا من أجل إلغاء حقوقنا وزيادة واجباتنا ، فالمواطن الصالح يعطي فقط ولا يأخذ .

الصيف موسم الإجازات

قال صحافي ناشيء شديد الحماسة لمهنته : « لما كان الصيف هو الفصل الذي يختاره كثيرون لنيل ما لهم من إجازات مستحقة وفق العادات والقوانين والأنظمة المعمول بها ، فقد سألت مواطنين ذوي مستويات فكرية وثقافية متباينة ، ويعملون في مهن مختلفة السؤال التالي :
ـ كيف أمضيتم اجازتكم السنوية ؟
وكانت أجوبتهم كما يلي :
جواب وزير سابق : « أمضيت أجازتي في الصلاة والتضرع إلى الله جلّ جلاله بأن يعيدني إلى الحياة السياسية وزيراً أو رئيس وزراء كي أخدم شعبي وأهلي ووطني ومعارفي وأشارك في خراب البلاد واسعاد العباد » .

جواب مذيعة تلفزيونية تبجل الثياب وتبغض سيبويه وأنصاره وصوتها صوت دجاجة :
« تمتعت هذا الصيف بأجازتي السنوية متعة لا نظير لها ، وهذا ليس بمستغرب ، فأنا جميلة مرحة كريمة وزوجي كريم مقدام متسامح ، وأصدقاء زوجي كرماء أصحاء أقوياء . وقد تنقلت بين عواصم الدنيا كأني في بيتي أنتقل من مطبخ إلى حمام . ولكن ضميري يؤنبني الآن لأن المشاهدات من النساء حرمن في أثناء غيابي عن الشاشة الصغيرة مثلهن الأعلى ، وفقدن القدوة الصالحة في ارتداء الأزياء الحديثة من الثياب ، وبات منظرهن كخادمات ارتدين ثياب سيداتهن ، وكثرت حوادث الطلاق . ولا لوم على الرجل ، فالفتنة تضيع قيمتها وينعدم تأثيرها إذا لم يزينها الثوب المناسب . ولا شك في أن الضرر لم يصب النساء فقط ، ولابد من أن المشاهدين المعجبين بي مزقوا الثياب حسرة ولوعة واشتياقاً ، وهل هناك في الزمن الحالي مصاب أكثر هولاً من تمزيق ثياب وشراء بديل عنها ؟ » .

جواب فقير قانط يتناسى انتصارات الشعوب الجمة وهزائم الاستعمار المنكرة : « في كل يوم من أيام اجازتي كنت أزور قبري أبي وأمي ، وأنظر اليهما بحسد » .

جواب صحافي اشتهر بتواضعه الشديد : « لم أنل اجازتي في هذه السنة إذعاناً لمشيئة القراء ، فإذا حرموا مني فمن ذا الذي سيثقفهم ويوعيهم ويرشدهم إلى الطريق المستقيم والطريق المتعرج ؟

إنهم سيصبحون ضحايا لأضاليل الطوابير الخامسة ، وسأكون آنذاك وحدي المسؤول عما حلّ بهم ولن يغفر التاريخ لي » .

جواب ممثل فكاهي : « أنا أحتاج إلى مستشفى مجانين ولا أحتاج إلى إجازة ولا أستحقها لأني فاشل في عملي فشلاً مخزياً ، فما أن أنجح في إضحاك فرد حتى ينجح غيري في إبكاء شعب » .

جواب أديب يكتب وهو نائم : « هذا زمان الاجازات المعجزات ، فأنا أكثر موهبة من تولستوي ومالرو وفولكنر والمتنبي وأنيس منصور ، وألفت من الكتب ما يكفي لتشييد مبنى من طابقين ، ومع ذلك ظلت الشهرة التي أطمع في نيلها بعيدة عني ، ولكن النشاط الابداعي والاعلامي والاعلاني والرياضي لزوجتي ابان شهر الاجازة منحني ما أصبو إليه من شهرة مدوية » .

جواب مطرب جديد : « جئت إلى لندن ، وتبين لي أن ما سمعته عنها ليس كذباً ، فهي العاصمة العربية التي تشجع الفن العربي وترعاه ، فكل من صاح وصرخ عومل فوراً كأشهر مغن ، ووهب ألقاب المغردين ، فهو العندليب والبلبل والشحرور والحسون ، وكانت اجازتي مالاً ودلالا » .

جواب رئيس تحرير موظف : « أنا أرتعد فرقاً وأتأجج غضباً كلما نمى إلى سمعي كلمة « اجازة » . فمنصب رئيس التحرير أمنية وحلم ومطلب الأنام أجمعين ، وإذا نلتُ اجازتي فقد أعود إلى مكتبي لأجد غيري جالساً على كرسيّ بدلاً مني ، وكل من لا يحرس كرمه ليل نهار ويدافع عن ممتلكاته بكل الأسلحة يغري اللصوص بنهبه والسطو عليه » .

جواب سياسي يؤمن بأن الكلام إذا كان ناجحاً تحول إلى حقائق وأحداث تاريخية : « من المألوف لديّ أن أكرس اجازتي السنوية لأداء المهمات السرية العسيرة ، في اجازتي السابقة ، كنت قائد ثورة أكتوبر الروسية ، وساعدت كاسترو في الاستيلاء على كوبا ، ونحيت الجنرال ديغول عن رئاسة جمهورية فرنسا لأن أنفه ليس وسيماً ، وطردت الأمريكيين من فيتنام ، وفي أجازتي لهذه السنة حررت أفغانستان ، ولم تصل بعد أخبار تحررها إلى أجهزة الاعلام ، وفي أجازتي القادمة سأحرر فلسطين الحبيبة » .

جواب مفكر معجب بزوجة جاره وحكومة بلاده : « الاجازة السنوية ؟! إنها وسيلة من وسائل الامبريالية لإلهاء الشعوب ومنعها من العمل من أجل استكمال بناء استقلالها الاقتصادي والسياسي والثقافي » .

جواب موظف صغير : « اللعنة على الأجازات كافة ! في أجازتي لم أفعل شيئاً سوى الجلوس . جلست في البيت فتشاجرت مع زوجتي وأولادي شجاراً جعلهم ينظرون اليّ على أني بلقور . جلست في المقهى وتناقشت مع أصدقائي حول شؤون سياسية وقلت ما يشبه الصدق ، فابتعدوا عني بفزع كأني مصاب بالكوليرا والايدز . جلست في حديقة عامة ، فظن حارسها أني شحاذ ذو ملابس حسنة » .

جواب أستاذ جامعي مرموق : « الحمد لله لأن اجازتي السنوية طويلة ، ونجحت في تكريسها من أجل دعم موازنة البيت وتطوير ثقافتي كمرب للأجيال الصاعدة ، فاشتغلت شهراً سائق واشتغلت في بقية أيام الاجازة بائع بطيخ » .

جواب زكريا تامر وهو أديب يحارب غباراً : « لو نلت أجازتي السنوية كغيري من عباد الله لفرح قراء « الدوحة » شهراً ولحزنوا أحد عشر شهراً ، ومن المستحسن أن لا يفرحوا . فالفرح من المبادئ الهدامة المستوردة ، والحزن من تقاليد العرب الأصيلة » .

أما الصحافي الناشئ الذي كتب الأجوبة السابقة ، فقد قال : « ضاعت اجازتي ، وخسرت ورقاً ولم أربح سوى الصداع » .

وطن المقصرين

مساكين نحن . لنا ماض ، ولنا حاضر ، ولا مستقبل لنا لأننا مقصرون ، وأوطاننا أوطان المقصرين .

ولو تولت محكمة نزيهة محاكمتنا لأصدرت علينا أحكاماً قاسية تجعل الأقدام أقداماً حافية تمشي على شوك .

الأدباء مقصرون ، فهم يصورون الفيل ذيل فأر ، بينما الأديب الملهم يصور ذيل الفأر فيلاً شرساً ، سفاكاً للدماء .

قادة الجيوش مقصرون . فالعدو الذي يستنفر قواه ويهاجمنا حالماً باحتلال مدينة ، يباغت بأنه يحتل مدينتين ، بينما الثقة بالنفس تقضي بإرغامه على احتلال أربع مدن على الأقل . والمدن العربية كثيرة ، والواهب بسخاء لا يندم إذ يخسر أرضاً يربح الصيت الحسن . والفارق كبير بين الخسارة والربح .

المسؤولون مقصرون أفدح تقصير ، فالمسؤول غير المقصر تنحصر مهمته في افناء مواطنيه . وهاهم المواطنون يتزايد عددهم ، وازديادهم يجلب مشاكل لا حل لها حالياً .

الغربان مقصرة لأنها تنعب صائحة : قاق قاق ، ولا تنعب قائلة بحماسة : عاش عاش : احتراماً لفئة من الناس ، تؤمن بأنها يحق لها وحدها أن تعيش ولا يحق لغيرها إلا الهلاك .

الاذاعات مقصرة ، فهي تحاول اقناع المواطنين بالتخلي عن عقولهم وآذانهم ، ولكن المواطنين ما زالوا يملكون بقايا عقول وبقايا آذان . تنصت وتفكر وتتعذب .

الصحف والمجلات مقصرة ، فهي تخدم أصحاب النفوذ الكرماء ، ولا تخدم المواطن . ولو كانت تمارس واجبها الاعلامي المسؤول لتطورت التطور الذي يؤهلها لأن تؤذي المواطن أذى يجعله ينظر إليها نظرة الأشجار الخضراء إلى الجراد .

الجوع مقصر ، فلماذا يميت ويهين ويروض فقط من غير أن يحاول حض ضحاياه على أن تتحول إلى وحوش مفترسة يفترس بعضها بعضها الآخر ؟

المواطنون المعوزون مقصرون لأنهم مزمعون على الاستمرار في الحياة ، ولا شيء في الحياة إلا الغبار والرماد .

العصافير التي تطير مقصرة ، فطيرانها أثار حسد الناس لها ، وكانت السبب في اختراع الطائرات ووفاة عباس بن فرناس ، ولو نبذت أجنحتها وزحفت لتسابقت الدول على منحها الجنسية الفخرية .

الاعلانات مقصرة ، فهي تذل الصحافة من دون أن تجعلها تقدم على الانتحار مبتسمة .

الخراف مقصرة . فالمواطن الفقير يأكل أحياناً لحومها وعظامها بينما ينبغي للخراف أن تأكله تطبيقاً للمبدأ القائل إن البقاء للأقوى .

مربو الأجيال الجديدة مقصرون إذ يكتفون بتحويل المدارس إلى مخافر شرطة ولا يحولونها إلى أماكن لها صفات السجون والملاهي .

رغيف الخبز مقصر ، فهو سيف يستخدم في مطبخ لتقطيع البطاطا والبصل بينما قد وجد ليزهق الأرواح .

المهندسون مقصرون ، فهم يشيدون أبنية تتداعى وتنهار بعد سنة ، ولا تنهار بعد أسبوع .

أزهار الحقول والحدائق مقصرة ، ومن واجبها الاعتذار والاختفاء لتحل محلها الأزهار الصناعية ، وعندئذ تتضاءل البطالة ، ويجد رأس مال ما فرصة مناسبة كي ينمو ويشب .

لون السماء الأزرق مقصر ، وإذا أراد النجاة من تهمة التقصير ، فعليه ارتداء ثياب الحداد تعاطفاً مع قضايا مصيرية لا نصير لها ، وتعادي وتحارب باسم الرغبة في الاستشهاد في سبيلها .

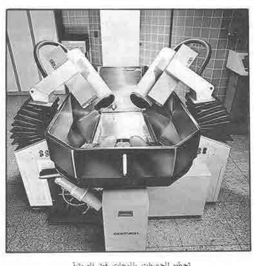
الآباء مقصرون ، فهم يربون أطفالهم تربية تمنحهم القدرة على أن يصبحوا في المستقبل خدماً لقاء أجر بينما التربية المثالية تقضي بأن يكونوا خدماً بلا أجر .

ريغان وغورباتشوف مقصران لأنهما لم يحررا فلسطين ، ولكن بعضنا لا يزال يعتقد بأنهما سيحرران فلسطين والأندلس .

فإلى متى سنظل مقصرين ؟

وهل سننجح يوماً في النجاة من أي اتهام بالتقصير ؟

ولما كانت أية محاولة لايجاد جواب عن هذين السؤالين مضطرة إلى أن تكون مقصرة ، فمن الأفضل الفرار منها ، والفرار أحياناً ليس عاراً .



تحطيم الحصوات بالموجات فوق الصوتية



جهاز تفتيت الحصوة باستخدام الموجات الصدمية

الطب سنة ٢٠٠٠؟



وداعاً لمبضع الجراح!

بقلم: الدكتور سامي عزيز

في عصر زراعة الأعضاء والقلوب الصناعية، وفي قمة النجاح والسعي نحو المزيد... نجد الطب الحديث وتكنولوجيا العصر يرفضان مبضع الجراحة ويقدمان للمريض حلولا سهلة وبسيطة كبديل للجراحة التقليدية، مثل:

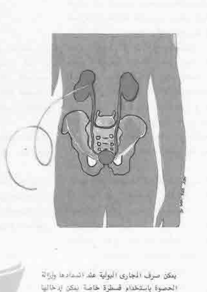
- تفتيت حصى المسالك البولية بالمناظير وباستخدام الموجات الصدمية.
- علاج جلطة الشريان التاجي بالقسطرة وباستخدام مادة الاستربتوكيناز.
- مناظير الألياف الضوئية والعديد من الحلول لمرضى الجهاز الهضمي.
- أشعة الليزر وعالم جديد بلا حدود.
- علاج الانزلاق الغضروفي بالحقن الموضعي كبديل للجراحة.

وهي حلول كثيرة أمكن التوصل إليها مؤخرا في مجالات مختلفة دون الحاجة إلى تخدير المريض كليا أو حتى اضاعة قطرة دم واحدة.. وبدون أي ألم أثناء العملية أو بعدها.

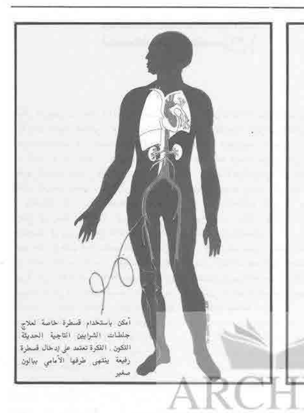
.. ولكن إلى أي مدى يمكن الاعتماد على البدائل الجديدة؟

وهل يمكن تطبيقها في كل الحالات أم أن هناك موانع تتطلب الحل الجراحي؟

ترى كيف يكون الطب الذي يدرس في كلياتنا سنة ٢٠٠٠؟



يمكن صرف المجارى البولية عند انسدادها وإزالة الحصوة باستخدام قسطرة خاصة يمكن إدخالها خلال جدران البطن إلى أن تصل إلى حوض الكلية



أمكن باستخدام قسطرة خاصة لعلاج جلطات الشرايين التاجية الحديثة التكون . الفكرة تعتمد على إدخال قسطرة رفيعة ينتهى طرفها الأمامي ببالون صغير

■ تفتيت حصوات المسالك البولية باستخدام الموجات الصدمية

■ القسطرة تحل مشاكل سرطان البنكرياس وسرطان الحويصلة الصفراوية

تفتيت حصى المسالك البولية

تقدر نسبة الإصابة بحصوات الجهاز البولي في الدول الغربية بنحو ١٢٥,٠٠٠,٠٠٠ حالة سنويا .. ولأسباب غير معروفة تشير الاحصاءات إلى ارتفاع نسبة حصوات الكلى في الدول المتقدمة ، أما حصوات المثانة البولية فتمثل نسبة عالية في الدول النامية . ويمثل المغص الكلوى نحو ١٪ من الحالات التى يتم تنويمها في مستشفيات الولايات المتحدة ، ولكن هذه النسبة تعتبر إلى حد ما أقل من المعدلات ، التى نسجلها في مستشفياتنا في المنطقة العربية (بعض الدراسات أشارت إلى نسبة تعادل ٥٪ ــ ١٠٪) كما أن الرجال أكثر قابلية من النساء في تكوين حصوات المسالك البولية .

الجديد أنه أمكن مؤخرا التخلص من حصوات المسالك البولية من خلال فتحة صغيرة (٢,٥ سنتيمترا تقريبا) يتم إجراؤها على الجانب المقابل لوجود الحصوة مع الاستعانة بالموجات فوق الصوتية ومصدر للطاقة الكهرومائية ، لتحطيم الحصوات وشفطها للخارج . وتفيد التقارير الصادرة عن مستشفى مايو بالولايات المتحدة الأمريكية إلى أن أكثر من ٩٠٪ من حالات الحصوة التى كانت تعالج في الماضي بالاتجاه الجراحي ، أصبحت الآن تعالج بنجاح بهذه الطريقة الجديدة . والمعروف أن الحصوات المتشعبة الكبيرة ، والتى يصاحب وجودها التهابات المسالك البولية ، يصعب ازالتها جراحيا ، لذلك فالأسلوب الجديد يعتبر بحق ثورة جديدة في عالم الطب . كما أن المريض يمكنه ترك المستشفى بعد ثلاثة أيام ، والعودة للعمل خلال أسبوع من دخوله المستشفى .

في جامعة « ميونيخ » بألمانيا الغربية تم مؤخرا ابتكار طريقة أخرى جديدة لعلاج حصوات المسالك البولية بدون جراحة ..

الفكرة تعتمد على تفتيت الحصوة من خارج الجسم ، باستخدام الموجات الصدمية .. إذ يمكن عند توجيه هذه الموجات على الحصوات تفتيتها إلى مسحوق ناعم يشبه ذرات الرمل ينزل من البول خلال الأيام التالية لعملية التفتيت . وتشير التجارب الأولية إلى أن هذه الموجات قادرة على تفتيت معظم حصوات المسالك البولية بغض النظر عن تركيبها الكيميائي أو درجة تماسك ذراتها .. كما أن معظم أنسجة الجسم وكريات الدم الحمراء والبيضاء ، لا تتأثر بأى ضرر عندما تعترضها هذه الموجات أثناء عملية التفتيت . وغالبا ما

وداعـــا لمبضع الجـــراح!

يتمكن المريض من مغادرة المستشفى بعد ٣ — ٥ أيام من دخوله المستشفى ، وبذلك يمكن بهذه الطريقة التخلص من حصوات المسالك بدون أى تعب أو ألم يذكر، ودون الحاجة إلى تخدير المريض بمخدر عام ، إذ غالبا ما يتم تخدير المريض نصفياً (لوحة رقم ٢) .

والفكرة الاساسية للموجات الصدمية ترجع الى سنة ١٩٦٦ ، ففى ذلك الوقت وبالتحديد في وزارة الدفاع الألمانية تم دراسة أهمية هذه الموجات فى الاستخدامات العسكرية مثل تأثير قطرات الأمطار المتساقطة بسرعة كبيرة على الطائرات المقاتلة ودراسة تأثير الهبوط المفاجئ فى المناطق الصحراوية في الأيام العاصفة ، حيث تصطدم حبيبات الرمال بجسم الطائرة بسرعة كبيرة قد تفوق سرعة الصوت ، مما يؤدى الى توليد الموجات الصدمية التى تحدث بدورها ضغوطا وتشققات في جدران الطائرات .

والحقيقة أن الفكرة الأساسية للموجات الصدمية المستخدمة في تفتيت الحصوات لا تختلف عن ذلك كثيرا ، إلا أن العلماء استطاعوا تطويعها والانتقال بها من المجالات العسكرية إلى المجال الطبي ، وبالتحديد تفتيت حصوات المسالك البولية . وتؤكد الدراسات التى أجريت على أن الماء يمثل وسطا ملائما لانتقال الموجات الصدمية ، لذلك يوضع مصدر الموجات الصدمية في هذه الأجهزة تحت الماء كما أن المريض المراد علاجه يرقد في حوض خاص يملأ بالماء .. أما الموجات الصدمية فيتم توليدها بواسطة التفريغ الكهربائى وبواسطة أجهزة خاصة ، يتم تركيز هذه الموجات لتسقط متجمعة على حصاة المريض بالضبط .

أما آخر هذه الاتجاهات الجديدة للتخلص من الحصوات بعيداً عن الاسلوب الجراحي ، فقد توصل إليه مؤخرا العالم الطبيب « جرافيث » وعدد من مساعديه ... إذ أمكن باستخدام حامض « الاسيتو هيدروكسيم » (أحد مثبطات أنزيم اليورياز) التخلص من الحصوات المختلفة خاصة التى يصاحب وجودها التهابات المسالك البولية .. إلا أن التجارب الأولية التى أجريت على العقار الجديد تفيد أن العلاج بالعقار الجديد لا يمكن أن يكون بديلا للأسلوبين السابق ذكرهما ، أو حتى للاتجاه الجراحى التقليدي . كما أن الآثار الجانبية المتعددة التى تصاحب استخدامه تجعلنا مرغمين على عدم تفضيله .

لذلك فأهم الدواعي التى تتطلب استخدام العقار الجديد يمكن تلخيصها في :

(١) الحالات التى لا يمكن علاجها جراحيا .. وذلك بغرض الحد من نمو الحصوات وتشعباتها .

(٢) أيضا يفضل استخدام العقار الجديد في بعض الحالات بعد إزالة الحصوة جراحيا أو تفتيتها بغرض التخلص من بقايا الحصوة التى قد تبقى فى المسالك البولية وتسبب فى المستقبل حصوات جديدة .

من هنا يبدو واضحا مدى التقدم العلمي الذى تحقق في السنوات القليلة الماضية في مجال تفتيت حصوات المسالك البولية . خاصة الحصوات الكبيرة والمتشعبة . والتى كان علاجها في الماضي يعتبر مشكلة محيرة يصعب تذليلها .

الوصـــول الى داخـل البطن .. بدون جراحة

ويتم ذلك في الأحوال الآتية :

• الحالات المصحوبة بانسداد المجارى الصفراوية كما فى سرطان البنكرياس وسرطان الحويصلة الصفراوية .. كيف يمكن علاجها ؟ الجراحة ليست هى الحل الأمثل .. والسبب حالة المريض السيئة التى لا يمكن معها إجراء أى تدخل جراحي .

• الالتهاب الصديدى لأنسجة الكلية المصحوب بانسداد المجاري البولية .. هل يمكن مواجهة هذه المشكلة فى مريض متقدم السن وفى حالة سيئة تمنعه من إجراء أى عمليات جراحية ؟

• حدوث تجمعات صديدية داخل البطن .. كيف يمكن مواجهة هذه المشكلة في مريض متقدم فى السن ؟

والواقع أنه أمكن مؤخرا تقديم العديد من البدائل لتحل مكان الاتجاه الجراحي .

فباستخدام قسطرة خاصة يتم إدخالها خلال جدران البطن بواسطة إبرة رفيعة يمكن صرف المجاري الصفراوية المسدودة دون اللجوء إلى جراحة .. وحتى لا تضل القسطرة طريقها إلى المجاري الصفراوية فإنه يمكن تتبع مسارها على شاشة تليفزيونية ويمكن التحكم في طرفها الأمامي بواسطة سلك رفيع يتم إدخاله خلال الطرف الخارجى للقسطرة ، ليمتد بطول تجويفها الداخلي حتى يصل لطرفها الأمامي ، وعند التأكد من وصول طرف القسطرة إلى داخل تفرعات المجاري الصفراوية يتم سحب السلك وترك القسطرة فى مكانها لتصريف العصارة الصفراوية خارج الجسم . وربما يتم زرع الطرف الخارجي للقسطرة في الاثنى عشر ، فيما بعد ، حتى يتم تصريف العصارة داخلياً ..

والواقع أن هذه الطريقة يفضل إستخدامها في الحالات المصحوبة بانسداد المجارى الصفراوية مثل سرطان البنكرياس وسرطان الحوصلة الصفراوية .. ففى هذه الحالات يستحيل إجراء جراحة وتكون الحاجة إلى تصريف المجاري الصفراوية بهذه الطريقة ضرورية ، حتى يتخلص المريض من أعراض اليرقان التى تصاحب إنحباس العصارة الصفراوية وأملاحـها في جسمه ويمتاز التصريف بالقسطرة على الأسلوب الجراحي التقليدي بالمميزات الآتية :

(١) نسبة الوفيات فى الجراحة ٢٠٪ ، بينما باستخدام القسطرة لا تزيد عن ٢٪ .

(٢) مدة البقاء في المستشفى بعد الجراحة تصل الى ٤٠ يوما فى المتوسط بينما باستخدام القسطرة لا تتجاوز عشرة أيام .

أما في مجال أمراض الكلى فيمكن إدخال قسطرة خاصة خلال جدران البطن ، الى أن تصل إلى حوض الكلية ويتم تتبع مسارها على الشاشة كما سبق وشرحنا . كما أن توجيه طرف القسطرة الداخلي يستلزم وجود السلك الرفيع الذى سبق وتحدثنا عنه من قبل . أما أهم الدواعى التى تستلزم العلاج بهذه الطريقة فهي :

(١) إزالة حصوات الجزء العلوى من المسالك البولية وتؤكد التقارير الطبية الصادرة مؤخرا ، على أن أكثر من ٩٠٪ من هذه الحصوات أمكن إزالتها بنجاح بهذه الطريقة .

(٢) صرف المجارى البولية عند انسدادها . (لوحة رقم ٣) .

وبالنسبة للتجمعات الصديدية التى قد تحدث داخل تجويف البطن أمكن باستخدام أجهزة التصوير المقطعي بالكومبيتر ، أو أجهزة الموجات فوق الصوتية تحديد أى تجمعات

صديدية داخل البطن . كما أمكن باستخدام نوع خاص من القساطر صرف التجمع الصديدى للخارج دون الحاجة إلى أى جراحة . هذه القساطر يتم إدخالها من خلال جدران البطن ، حتى تصل إلى التجمع الصديدى داخل البطن بنفس الطريقة التى سبق شرحها في صرف المجارى الصفراوية . ويمكن بهذه الطريقة تصريف أى تجمع صديدى داخل البطن مثل خراج الكبد ، الطحال والكلية ، أو اي تجمع صديدى تحت الحجاب الحاجز أو حول الكلية ، او تحت الكبد ، وتشير التقارير الصادرة من كلية الطب التابعة لجامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية إلى أن نسبة النجاح باستخدام هذه الطريقة تصل إلى ٨٥٪ .

ويمكن تلخيص مميزات الصرف من خلال جدران البطن بالمقارنة إلى الاتجاه الجراحي كالاتي :

(أ) العلاج بالقسطرة أقل خطورة .

(ب) ليست هناك حاجة لبقاء المريض مدة طويلة في المستشفى كما هو الحال في الاتجاه الجراحي وبذلك فالعلاج بالقسطرة أقل تكلفة .

(جـ) من جهة الفعالية .. بعض حالات إنسداد المجارى الصفراوية ربما يكون العلاج بالقسطرة أكثر فعالية من الاتجاه الجراحي

حلول غير جراحية لمرضى القلب

تعتبر أمراض الشرايين التاجية وخاصة جلطة الشريان التاجي من أهم أمراض الدول المتقدمة ، في الولايات المتحدة الامريكية وحدها تم خلال سنة ١٩٨٣ تشخيص نحو ١,٣ مليون حالة . وبلغت نسبة الوفيات نحو ٥٠٪ خلال العام الأول لحدوث المرض .

العلاج الحالي لهذه الحالات يتم في وحدات العناية المركزية ويستلزم الأمر استخدام أحد المسكنات القوية كالمورفين لتسكين الألم واستنشاق الأوكسجين والراحة في الفراش . وقد يلجأ الطبيب إلى إستخدام مضادات التجلط ومضادات دخول الكالسيوم وغيرها . ولكن ما هو الجديد في علاج مثل هذه الحالات ؟ .

(١) إبتكر مؤخرا الدكتور « جرونتزج » من زيورخ بسويسرا طريقة جديدة لعلاج أمراض الشرايين التاجية بدون جراحة . والفكرة تعتمد على إدخال قسطرة رفيعة (ينتهى طرفها الأمامي ببالون صغير) في الشريان التاجي ، وعندما يصل طرفها الأمامي المنطقة المصابة بالضيق ، يتم نفخ البالون الصغير وبالتالي توسيع أى ضيق بالشريان (لوحة رقم ٤) .

(٢) كما أمكن إبتكار طريقة أخرى جديدة لعلاج جلطات الشرايين التاجية الحديثة التكون ، وذلك بإدخال قسطرة خاصة في الشريان التاجي المسدود وحقن مادة « الاستربتوكيناز » التي من شأنها إذابة الجلطة ، وبالتالي إعادة الدم والأوكسجين اللازم إلى الجزء المصاب من عضلة القلب .

(٣) بالاضافة إلى ذلك توصل العلماء في جامعة واشنطن بالولايات المتحدة الامريكية إلى عقار جديد لعلاج جلطة الشريان التاجي .. العقار الجديد كما يبدو من اسمه (T-PA) Tissue Plasminogen Activator يعمل على اذابة الجلطة المتكونة ، ويتميز بسرعته الفائقة على إذابة الجلطة (في أقل من ٢٠ دقيقة بعد حقنه في الوريد) كما أن إستخدامه مأمون الجانب ، ولا يتسبب في حدوث أى مضاعفات كما هو الحال مع عقار « الاستربتوكيناز » أو « اليروكيناز » .. ويؤكد العلماء على أن النجاح الذى حققه العقار الجديد وسهولة استخدامه وكونه مأمون الجانب كل هذا يبشر بانقلاب خطير في عالم الطب .

هذا بالنسبة لأمراض الشرايين التاجية .. أما في مجال ضيق صمامات القلب (ضيق الصمام الميترالي مثلا) .. أمكن مؤخرا في مراكز طبية متعددة علاج مثل هذه الحالات بالطريق غير الجراحي .. الفكرة كلها تعتمد على إدخال قسطرة خاصة حتى يصل طرفها الأمامي داخل حجرات القلب (يمكن تتبع القسطرة وهى في طريقها إلى حجرات القلب على شاشة التليفزيون) ، حتى إذا وصلت القسطرة إلى البطين الأيسر للقلب فإنه يتم نفخ بالون خاص في مقدمة القسطرة . وعند جذب القسطرة للخارج فإن الضغط الحادث من البالون على الصمام الميترالي يحدث بعض التمزق حول فتحته الضيقة ، وبذلك يسمح الصمام لكمية أكبر من الدم أن تنتقل من الأذين الايسر إلى البطين الأيسر وبالتالي تتحسن حالة المريض .

وهذه الطريقة الجديدة التى ابتكرت مؤخرا كبديل للجراحة تبشر بالأمل لفتح الطريق أمام العديد من العمليات الأخرى في القلب .

■ علاج ضيق الصمام الميترالي في القلب بالطريق غير الجراحي

■ إمكانية استخدام أشعة الليزر في التخلص من جلطة الشريان التاجي

■ إزالة أورام القولون بالمنظار الضوئي والخلاص من الانزلاق الغضروفي بالحقن الموضعي

الجديد في أشعة الليزر

ليس المجال هنا التحدث عن أشعة الليزر واستخداماتها ، والمهم بهذا الموضوع يمكنه مراجعة العديد من المقالات التى نشرت في المجلات الثقافية المختلفة .. الحديث هنا عن آخر ما نشر عن أشعة الليزر في المجلات والدوريات الطبية ، وهذه الاستخدامات إن دلت على شيء ، فهي تبشر بثورة في عالم الطب قد تمكنا مع حلول سنة ٢٠٠٠ من التخلص من الاتجاه الجراحي أو على الأقل عدم اللجوء إليه اللهم إلا في حدود ضيقة جداً .

تؤكد الأبحاث التى نشرت مؤخرا في مجلة « لانست » الطبية على أن أشعة الليزر لها القدرة على تبخير الجلطات الدموية وسدات الأوعية وقد أمكن مؤخرا الاستفادة من هذه الظاهرة ، فباستخدام قسطرة خاصة رفيعة ينتهى طرفها الأمامي ببالون صغير ويمر داخل تجويفها وبطول القسطرة أحد الألياف الضوئية (يصل قطر الليفة الضوئية ٢, ملليمترا) وعند إدخال مثل هذه القسطرة داخل الوعاء الدموي المراد علاجه ، بحيث يصل طرفها ذو البالون إلى مكان الجلطة ، يُسمح بمرور أشعة الليزر لمدة ٣٠ ثانية بطول الليفة الضوئية .. وتؤكد التجارب الأولية على إمكانية إذابة الجلطات الدموية بهذه الطريقة وإعادة الوعاء الدموى إلى حالته الأولى ، دون الحاجة إلى عمليات جراحية ودون حدوث أى مضاعفات في جدران الوعاء الدموي .

وتجدر الإشارة هنا إلى ما أعلنه مؤخرا مركز القلب التابع لجامعة ستانفورد الامريكية عن إمكانية إستخدام أشعة الليزر في التخلص من جلطة الشريان التاجي ، ويؤكد الدكتور

وداعاً لمبضع الجرّاح!



أشعة الليزر لها القدرة على تبخير الجلطات الدموية وسدات الأوعية

« جنزبرج » أستاذ أمراض القلب بالمركز على أن المحاولات الأولى تبشر بالامل . إلا أنه مازالت هناك بعض العقبات التى يجب التغلب عليها قبل تعميم هذه الطريقة الجديدة مثل صعوبة توجيه الأشعة بدقة إلى النقطة المطلوب علاجها دون حدوث ثقب بجدران الشريان التاجي بدلا من تفتيت الجلطة .

كما نشرت « مجلة الجهاز الهضمي الأمريكية » طريقة جديدة لاستخدام أشعة الليزر في علاج نزيف قرحة المعدة والاثنى عشر . والمعروف أن ٤٥٪ إلى ٦٣٪ من هذه الحالات يتحتم مواجهتها بجراحة عاجلة . وتعتمد الطريقة الجديدة على ظاهرة التجلط بالتيار الكهربائي . والمعروف أيضا أن مرور تيار بشدة معينة في النسيج الحي يؤدي إلى تجلط المنطقة المعرضة للتيار مما يوقف أي نزيف منها دون حدوث أي ضرر في الأنسجة المحيطة . وقد أمكن الإستفادة من هذه الظاهرة في علاج نزيف القرحة ، وذلك باستخدام منظار المعدة الضوئي الذى يتم إدخاله من خلال فتحة الفم ، ويمكن بواسطة العدسات المركبة على الطرف الأمامي للمنظار تحديد مكان القرحة ، وحجمها ، وكمية الدم التى تنساب منها . ثم يسمح بمرور أشعة الليزر لمدة معينة بطول الليفة الضوئية المركبة ، مع المنظار ، مما يمكن من ايقاف النزيف . ويعتبر إستخدام أشعة الليزر في هذا المجال من أحدث البدائل التى قدمتها الأبحاث الطبية مؤخرا ويمتاز العلاج بالليزر في قدرته على وقف نزيف القرحة في ٨٠ ــ ٩٠٪ من الحالات .



العلاج بمناظير الألياف الضوئية

الجديد في المناظير الضوئية هو إستخدامها في العلاج كبديل للجراحة في العديد من أمراض الجهاز الهضمي بالاضافة إلى استخدامها التشخيصي .. والواقع أن العلاج بالمناظير يمتاز على الطرق الجراحية التقليدية بالمميزات الاتية :

(١) يمكن بواسطة المنظار الضوئي الوصول إلى الجزء المصاب وإصلاحه من خلال فتحة طبيعية بالجسم (الفم أو فتحة الشرج) دون اللجوء إلى عمل شق جراحي كما هو الحال في



الاتجاه الجراحي ... مما يجعلنا نفضل استخدام المناظير في المسنين أو عند وجود موانع طبية لإجراء الجراحة .

(٢) لا يتطلب إستخدام المنظار الضوئي تخدير المريض كليا .

(٣) إمكانية إستخدام المناظير في وحدات متنقلة دون الحاجة الى بناء مستشفيات جديدة ، نظراً لأن المريض في معظم الأحيان يعود الى بيته في نفس اليوم (يمكن إستخدامها في المناطق النائية التى لايوجد بها مستشفيات) .

(٤) يفضلها المريض على الجراحة .

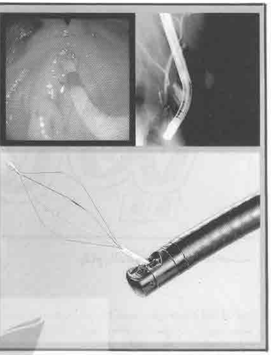
(٥) بالمقارنة إلى الجراحة تعتبر أكثر امانا ومضاعفاتها لا تُذكر من الألياف الزجاجية وسمك الواحدة لا يزيد عن الميكرون (الميكرون = $\frac{1}{1000}$ ملليمتر) ويحيط بجدران الألياف الضوئية من الخارج غلاف من مادة تشبه البلاستيك ومزود عند طرفيه بالعدسات . وتمتاز مناظير الألياف الضوئية عموما بسمكها الصغير (قطرها لا يتجاوز ١٠ ملليمترات) . ويمكن التحكم في توجيه طرفها الأمامي ، كما أن استخدامها لا يحتاج الى مخدر عام . وبالمقارنة إلى المناظير المعدنية نجد مناظير الألياف الضوئية قابلة لأن تنثنى مع إنحناءات القناة الهضمية .

أما أهم إستخدامات المنظار العلاجية فيمكن تلخيصها في الآتي :

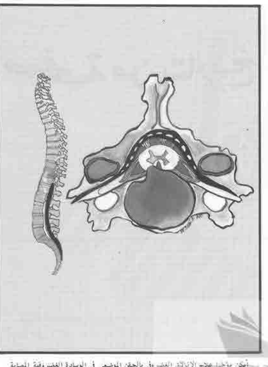
أولا : حالات سرطان المرىء المتأخرة . يمكن باستخدام المنظار توسيع أي ضيق بتجويف المرىء ، كما أمكن مؤخرا باستخدام المنظار وأشعة الليزر التوصل إلى نتائج أفضل خاصة الحالات التى يعاودها الإنسداد بعد إجراء جراحة .

أما حالات نزيف دوالي المرىء فيمكن مواجهتها بنجاح باستخدام المناظير الضوئية ، وذلك بحقنها بمادة خاصة لها تأثير تصلبي مما يعجل بوقف النزيف . ويمكن إعادة حقن الدوالي مرة أخرى بحسب تقدم الحالة . وتشير التقارير الطبية إلى أن إستخدام هذه الطريقة الجديدة يزيد من معدلات العمر في هؤلاء المرضى بالمقارنة إلى الطرق التقليدية التى كانت تستخدم في الماضي .

ثانيا : يستخدم منظار الألياف الضوئية



يستخدم منظار الألياف الضوئي حاليا ـ بدلا من الجراحة ـ في علاج إنسداد القناة المرارية (لإزالة حصوات القناة المرارية المشتركة)



أمكن مؤخرا علاج الانزلاق الغضروفي بالحقن الموضعي في الوسادة الغضروفية المصابة

كما سبق وذكرنا في علاج نزيف قرحة المعدة وقرحة الاثنى عشر.

ثالثا : يستخدم منظار الألياف الضوئي حاليا ـ بدلا من الجراحة ـ في علاج إنسداد القناة المرارية (إزالة حصوات القناة المرارية المشتركة) إلا أن إستخدام هذه الطريقة لا يخلو من بعض المضاعفات مثل النزيف أو إلتهاب البنكرياس أو إحداث ثقب بالقناة المرارية أو الإثنى عشر. وتشير الدراسات إلى أن نسبة حدوث المضاعفات في الحالات التي تم علاجها بهذه الطريقة تصل إلى ٧٪ . كما أن نسبة الوفيات تصل إلى ١٪ وهي نسبة مقبولة بالطبع.

رابعاً : يمكن بواسطة المنظار الضوئي للقولون إزالة أورام القولون الحميدة ، وربما إيقاف نزيف القولون.

علاج الإنزلاق الغضروفي بالحقن

أعلن مؤخرا الدكتور « اوجستو سارمنيتو » جراح العظام في جامعة كاليفورنيا الامريكية عن إمكانية علاج الانزلاق الغضروفي بالحقن الموضعي في الوسادة الغضروفية المصابة والمعروف أن هذه الوسائد تسهل حركة الفقرات وتساعد على تثبيتها فوق بعضها كما تفعل المواد اللاصقة التي توضع في البناء . أما أهم وظيفة لهذه الوسائد فهي امتصاص الصدمات التي تصيب العمود الفقري كما في حالات المشي والجري والقفز.

ولكن في بعض الأحيان ومع إشتداد المجهود العضلي وزيادة الثني والفرد للعمود الفقري قد يحدث تمزق في جدران الغضاريف وتخرج المادة « الهلامية » التي تكون هذه الوسائد عن مكانها فتضغط على العصبيات المكونة « للعصب الوركي » مما يسبب آلاما شديدة تعرف باسم « اللمباجو » .

والعلاج التقليدي لهذه الحالات يعتمد على الراحة التامة في الفراش مع تناول بعض العقاقير المسكنة لمدة ثلاثة أسابيع ، وقد يحتاج الأمر إلى التدخل الجراحي في الحالات التي لا تتحسن بالعلاج الطبي والطبيعي .

أما الطريقة الجديدة فتعتمد على حقن الوسادة المصابة ببعض الأنزيمات (كيموبابين) التي تعمل على إذابتها مما يخفف الضغط الحادث على العصب ، وينهي مشاكل المريض وآلامه .

والواقع أن الطريقة الجديدة تم إستخدامها بالفعل في علاج ٤٠,٠٠٠ حالة ، وكانت نسبة النجاح فيها من ٦٠ الى ٨٠٪ . كما أشارت بعض الدراسات الأخرى إلى إستخدام مادة « الكولاجيناز » ، ويؤكد الدكتور « جوميتز » أستاذ جراحة الأعصاب في جامعة كولومبيا على أن نسبة النجاح باستخدام المادة الثانية بلغت أكثر من ٨٠٪ كما لم تحدث أي مضاعفات خطيرة من استخدامها .

والواقع أن هذه الابحاث الطبية المتقدمة في مجالات الطب المختلفة تؤكد لنا أن الاتجاه الحالي للعلاج إنتقل من مرحلة الجراحة التقليدية ، وأصبحت الوسائل البديلة للعلاج هي شاغل العلماء . فلعلنا نستقبل سنة ٢٠٠٠ مع المزيد والمزيد من هذه الوسائل التي تضمن للمريض الشفاء من مرضه دون أي عناء جراحي .

سامي عزيز

صفحة من تاريخ المافيا

MAFIA

بقلم : الدكتور غسان حتاحت

لعبت الجمعيات السرية خلال التاريخ أدواراً شتى . لعل من أبرزها ما قام به أحد أعضاء جمعية اليد السوداء الصربية وهو الطالب جافريلو برتنزيب من اغتيال الأرشيدوق فرانتز فرديناند في النمسا ، مما كان سبباً مباشراً في قيام الحرب العالمية الأولى .

ولقد ظهرت جمعيات سرية كثيرة ، نذكر من بقاياها الجمعيات السرية في ايرلندا الشمالية ، وجمعية كوكلوكس كلان في جنوب الولايات المتحدة .

وبين هذه الجمعيات تقف المافيانسيج وحدها ، فهي تتميز منها في نواح كثيرة ، إذ هي تضم مجموعة عصابات منظمة تفتقد الاشراف المركزي الدقيق ، وتنتظمها علاقات رخوة جداً ، كما أنه لا توجد فيها طقوس للمنتسبين الجدد ، بل يكفي أن يكون المرء قوي الساعد طويل الباع في الاجرام ، ميالاً للقسوة والعنف ، قادراً على أن يضم إليه بعض أنداده ، ليصبح « ذا احترام » ورب أسرة من أسر المافيا . يفرض الأتاوات ويجمع الغرامات ، ويزرع الفساد والارهاب حيث أراد .

ولعل التماثل بين المافيا ومشابهاتها من الجمعيات السرية يبدو في شدة معاقبتها للخونة والخارجين عن سلطاتها وجعلهم أمثولة وعبرة كما يبدو في شدة تعلق أفرادها بمؤامرة الصمت (أوميرتا) .

ولقد نشأت المافيا أول ما نشأت في جزيرة صقلية . وكان من العوامل المساعدة على تشكلها وجود الاستبداد والطغيان ، وشيوع الفقر والحرمان ، وبسبب المرونة المتأصلة فيها ، استطاعت أن تكبر وتنتشر وتصل إلى العالم الجديد ، الولايات المتحدة ، حتى غدت دولة ضمن الدولة ، مما حدا بالمستر ادجار هوفر رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالي ومؤسسه أن ينكر وجودها أصلاً لأنه كان يعلم أن شرطته FBI على كثرة عددها وتنوع عدتها قاصرة عن أن تنتصر في حرب مع المافيا ، ومن هنا كان من الأسهل عليه انكار وجودها وتجاهله .

ومع مرور الأيام أصبحت المافيا واقعاً يعاش ، ونوعاً من الفولكلور ، وظهرت كتب جعلت من رجال المافيا أشخاصاً اسطوريين وأشخاصاً عاديين في آن .

وأذكر من هذه الكتب رواية الأب الروحي أو العراب للمؤلف الايطالي الأصل ماريو بوتزو التي اعتبرت ظاهرة بحد ذاتها . وقد صور كاتب هذه الرواية رجال المافيا على أنهم أشخاص عاديون لا يتمالك القارىء إلا أن يشعر بالتعاطف معهم رغم ما يقومون به من أعمال تخريب وقتل واجرام .

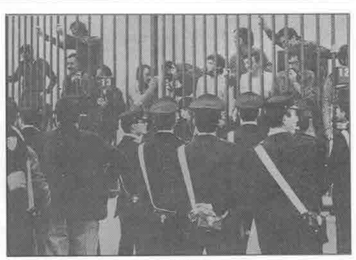
بل إن هذا الكتاب بالخاصة ، أدخل إلى اللغة الأمريكية مصطلحات أصبحت جزءاً من هذه اللغة . منها مثلاً جملة « عرض لا يمكنك رفضه » . وقد وردت هذه الجملة في الكتاب عندما أمسك العراب فيتو كور ليوني مسدساً وجه فوهته إلى صدغ خصمه وقال له بمنتهى الجدية : « أمامك هذه الورقة ، بعد دقيقة واحدة بالتمام سيكون عليها توقيعك أو أجزاء من دماغك » . وسمي ذلك العرض عرضاً لا يمكن رفضه ، حتى أن أحد الوزراء الأمريكيين وهو اليوت ريتشاردسن استعمل هذه الجملة عندما انتدبه الرئيس نيكسون لتسلم وزارة العدل !

وجعل الكاتب أنهاراً من الحكمة والمعرفة بالطبيعة البشرية تسيل من أفواه رجال المافيا ، فعندما أمر العراب الجديد ما يكل كورليوني اتباعه بقتل زوج شقيقته الخائن سأله أحدهم : أما كان من الممكن العفو عنه ؟ . أجاب العراب الجديد : « لقد أذنب في حقنا ، ولو سامحناه نحن فلن يسامح نفسه ، وسوف يظل يسعى ليجلب الضرر علينا ، ففي ابقائه موتنا وفي موته حياتنا ولابد من قتله » .

وقد غدت رواية العراب والفيلم المقتبس منها ظاهرة خارقة سوف تذكر لأجيال قادمة .

ونعود إلى المافيا ، فقد كان بدء تشكيلها من الحراس المسلحين ، الذين كانوا يستخدمون من قبل ملاك الأراضي لحمايتهم ، وعندما تشتت شمل ملاك الأرض اتخذ الولاة من هؤلاء الحراس حماة لهم وليحافظوا على الأمن ، فكان أن احتكروا وحدهم اللصوصية والاجرام ، وصاروا يجمعون الاتاوات ويرهبون الناس . ومن خالفهم عرض نفسه وممتلكاته وعائلته لأشد الأخطار . فمن اغراق المزروعات واحراقها إلى تدمير البيوت وقتل الآمنين .

وكانت نشأة المافيا في جزيرة صقلية ،



محاكمة المافيا

■ هاجم موسوليني "المافيا" في أقوى معاقلها ولكنها استعادت نفوذها بعد الحرب العالمية الثانية

موسوليني الذي حاول القضاء على المافيا

حيث تعود الناس على عدم الثقة بسلطة الحكومة من جهة ، كما طال استهدافهم للظلم والطغيان من جهة أخرى . فصار المواطنون يتحدون الحكومة ، ولا يعولون عليها البتة في تحقيق العدالة واحقاق الحق ، وأصبحت مؤامرة الصمت (أوميرتا) أمراً مقدساً من خالفه عرض نفسه لانتقام المافيا ، وأساء إلى سمعته فغدا مذموماً مدحوراً ، واعتبر خائناً مارقاً . فكان الواحد من الناس يرى المافيا الرجل « ذا الاحترام » يقتل القتيل أمامه فينكر أنه رأى شيئاً . وكان المواطن يرى عضو المافيا السارق يسرق فيقسم أنه لم يره . وإذا أساء أحد الرجال « المحترمين » إلى شخص ما أسرع هذا الشخص بالاعتذار إليه وكأنه هو المسيء والمذنب .

وهكذا كان المجرم يستطيع أن يرتكب أشنع جريمة أمام الشهود ذوي العدد وهو واثق أكيد أن أحداً منهم لن يتجرأ على التقدم بشهادته إلى الحكومة والقضاء ، وماذا تستطيع الحكومة أن تفعل على كل حال ؟

وجاء موسوليني فقرر أن يستتب الأمن في صقلية ، وأن يقضي على عصابة المافيا فيها قضاء مبرماً . فخول سيزار موري حاكم بالرمو ـ عاصمة صقلية ـ سلطة مطلقة . وارتأى هذا الحاكم أن يهاجم المافيا في أقوى معاقلها ، في القرى الجبلية التي كانت تتخذها بيوتاً وحصوناً ومخازن للمسروقات والتي كانت تحوي الشيء الكثير من الأقبية والمخابىء والسراديب والأبواب السرية . وجند حملة كبيرة أخذت تحاصر هذه القرى وتسد عليها المسالك وأخذت الشرطة تحتل منازل « الرجال المحترمين » وتصادر المسروقات التي تجدها عندهم ، ثم تعرضها للبيع بأبخس الأسعار . وأخذ رجال الشرطة يذبحون الماشية المسروقة ويبيعون لحمها للناس بأثمان مضحكة . وكان الناس بادئ ذي بدء يخافون من الشراء . ثم قويت عزائمهم وأخذوا يقبلون على الشراء وهو يسخرون من رجال المافيا المختبئين في أعالي الجبال ، بينما تستباح أموالهم وممتلكاتهم . وأخذ « الرجال المحترمون » يستسلمون ويتساقطون ، وصار الأهالي يهاجمونهم ويساعدون الحكومة في القبض عليهم ذليلين خائفين وهم الذين طال ما صعروا خدودهم وشمخوا بأنوفهم .

واستسلم الرجال وكادت المافيا أن تختفي من ايطاليا ولكن ذلك كان إلى حين . فقد جاءت الحرب العالمية الثانية واستعان الحلفاء ببعض رجال المافيا الذين كوفئوا بعد انتهاء الحرب وانتصار الحلفاء على موسوليني بأن استعادوا بعض مواقعهم السابقة . وفي الوقت نفسه هرب كثير من رجال المافيا إلى العالم الجديد حيث أخذوا يتابعون نشاطاتهم الاجرامية في السيطرة على أوكار القمار وأماكن البغاء وعمليات تهريب المخدرات ، ويفرضون الاتاوات والضرائب ويقومون بأعمالهم خارج نطاق القانون في كل مجال يخطر على البال أولا يخطر .

ثم تطور الوضع وأخذت بعض الأجيال الجديدة من المافيا تسير في ركاب القانون ، وتستثمر الأموال التي اكتسبتها حراماً في مجالات مشروعة قانونية .

ولكن هل تستطيع المافيا أن تتخلى عن ميولها الاجرامية وتتخلص من ماضيها المظلم ، هل يخرج الظفر من اللحم بسهولة ؟ ذلك ما ستجيب عليه الأيام القادمة .

ولعل أفضل خاتمة لهذه المقالة ، ما قاله أحد زعماء المافيا في حديث صحافي له ، وهو زعيم تعرفه الشرطة ولكنها عاجزة عن اعتقاله ، فلا دليل ولا شهود على اجرامه . قال هذا الرجل : « لو عاد بي الزمن إلى الوراء لما قمت بما قمت به سابقاً ، وصدقوني ان الحصول على درهم بالحرام أصعب كثيراً من الحصول عليه بالحلال » .

ولعله لم يقصد بهذا القول الكم ، وانما عني البركة . ولا ريب أن البركة ممحوقة من المال الحرام . ألم يقل تعالى في محكم كتابه : « والذي خبث لا يخرج إلا نكداً » ؟



القمر الصناعي العربي

بين المحاذير السياسية والمخاوف النفسيّة!

بقلم: مفيد فوزي

«عربسات» في الفضاء

ـ ١ ـ

نعم، السماء العربية واحدة، ولكن الأرض العربية ليست واحدة. إنها مفتتة مجزأة. وهذه كلمات مهذبة عن الواقع العربي ولكنها في الواقع «ممزقة»!

في السماء العربية ـ الآن ـ قمر صناعي عربي يدعى «عربسات» يجول ويصول ويبث برامجه وعطاءه العلمي لدول عربية..

عربسات كان حلماً وبدأ يتحقق وصادف مشاكل بالجملة وبدأت تتفاهم الدول على عبورها قبل أن تتفاقم!

القمر الصناعي العربي عربسات هو ابن تجارب أخرى دولية في هذا الشأن، لعل أهمها قمر تلستار الأمريكي الذي أطلق عام ١٩٦٢، وتم بواسطته نقل البرامج التليفزيونية من بلد إلى آخر. يومها قال مفكر أمريكي لعله واحد من تلامذة آرثر ميللر إن هذا إيذان بثورة جديدة في مجال الاتصال والاتصالات وأن هذه خطوة باهرة لربط العالم ببعضه بحيث تقوم «القرية الكونية»، كما أطلق عليها المفكر الكندي مارشال كلوهان.

أتوقف لحظة لأقول إن الشق العربي في الموضوع يهم كل عربي في نهاية الأمر.

ذلك أن عصر الفضاء ألهب خيال الساسة وصناع القرار ورجال الأعلام في كل مكان. والدليل أنه بعد خمس سنوات من اطلاق القمر الأمريكي «تلستار» واثر نكسة ٦٧ العسكرية اجتمعوا ـ وأقصد وزراء الإعلام العرب، وبحثوا في أمر استخدام الأقمار الصناعية في الاعلام عن قضايانا التي لقبت وقتئذ

بـ « المشتركة » !

ولكن ماذا في رأس الانسان العربي البسيط عن « الأقمار الصناعية » ؟

إن دراسة قامت بها إحدى الجامعات العربية توصلت إلى عدة نتائج تحدد مفهوم الإنسان العربي للقمر العربي :

١ ـ مثلاً ، انه يبث برامج تليفزيونية واحدة لكل بيت عربي .

٢ ـ إنه يخدم رفاهية الإنسان في مشاهدة متعة الصورة عبر الشاشات في وقت واحد .

٣ ـ إنه ينقل أجمل ما في العالم المتقدم من برامج المنوعات ، يشاهدها الفرد وهو جالس في بيته !

كان المفهوم العام تقريباً يدور حول بث البرامج التليفزيونية ولكن أحداً لم ينتبه للبعد الثقافي للأقمار وهو « الثقافات المحلية » ، ولم ينتبه أحد سوى رجل تربوي كبير كالدكتور محيي الدين صابر إلى دور الأقمار الصناعية في النهوض بالتربية والتعليم ومحو الأمية ، ولم ينتبه أحد سوى المهندس الكبير صلاح عامر إلى أهمية « تعزيز شرايين الاتصالات بين الأقطار العربية » .

والحق يقال إن الفكرة كانت تدور حول بث البرامج التليفزيونية باعتبار أن هذه هي الخدمة الشائعة ، ولكن عمق المسألة كان يتركز في خدمة أهداف التنمية .

ـ ٢ ـ

الفكرة كما عبر عنها مؤتمر اليونسكو عام ١٩٦٨ ، والحديث لحمدي قنديل مدير مكتب اعلام الجمهور لمنظمة اليونسكو : إنه إذا أمكن توفير أجهزة استقبال تليفزيونية للتجمعات السكانية فسوف يمكن للإرسال الاذاعي المباشر عن طريق الأقمار الصناعية أن يغير تماماً من « وجهات نظر ملايين » من هؤلاء الناس الذين ليس لهم اتصال مباشر بالعالم الخارجي ، وسوف يسهم في دفع التنمية خاصة إذا أرسلت البرامج إلى المعاهد التعليمية والمدارس وإلى المزارعين وربات البيوت .

ولقضية الأقمار الصناعية وجه خاص عند د . محيي الدين صابر ، إن لدور الأقمار بالنسبة للتربية والتعليم بريقاً خاصاً . ويضع أمامي د . صابر حقيقة مخيفة . يقول « البلدان النامية كانت تواجه أزمات كبيرة في الستينات وكان في هذه البلدان نحو ٨٠٠ مليون أمي في ذلك الوقت أي بزيادة قدرها مائة مليون عما كانت عليه قبل عشرين سنة » . والمهارات العلمية اللازمة لإبادة هذه الوصمة نادرة ، والحاجة إلى الفنيين المهرة تتجاوز بكثير طاقة نظم التعليم التقليدية . معنى هذا أنه كانت هناك حاجة ماسة إلى مستويات أرقى من المهنيين ، ومناهج وأدوات جديدة أكثر تطوراً ولهذا تراءى للكثيرين أن الأقمار الصناعية تشكل طريق الخلاص من عديد من مشكلات

متى تمرّ البرامج إلى المشاهدين دون مرور بمصفاة دقيقة ؟



الانماء . وانهالت التقارير والدراسات تتحدث عن هذا الأمل . ويواكب هذا التفكير تجارب بلدان مختلفة كالولايات المتحدة والهند في استخدام الأقمار الصناعية للتطبيقات التكنولوجية ، واستخدمت اندونيسيا لهذا الغرض بالذات قمرها الصناعي « بالابا » واستخدمت دول أخرى من دول البحر الكاريبي أقمارها للهدف نفسه ، وإن كانت صورته الأولى هي تبادل المعلومات بين المعاهد التعليمية والمراكز الصحية .

ـ ٣ ـ

ما هو الحال في القمر الصناعي العربي الآن ؟

إن المحاذير السياسية تحكمه ، والمخاوف النفسية تسيطر عليه . فبعد جهاد رهيب استمر أكثر من ١٨ عاماً ، اطلق عربسات في الفضاء عام ٨٥ وكان قمراً عربياً بالاسم فقط .

ولقد أتيح لكاتب هذه السطور بما له من خبرة في مجال الاعداد التليفزيوني ، أن يساهم في اعداد أول سهرة عربية ، ولم تذع ! نعم تفضل تليفزيون الكويت ووجه دعوة لي للنقاش حول مضمون البرنامج الذي كلفت باعداده ليقدمه الفنان العربي دريد لحام والفنانة الكويتية سعاد عبدالله . ولم أجد عند تليفزيون الكويت سوى قائمة بأسماء الدول المشتركة ولا شيء آخر . وأعترف أنني وجدت صعوبة هائلة في التفكير ، لأن مثل هذه الأمور لا تحتاج إلى اجتهادات ، إنما هي دراسة وعلم . والكتابة للتليفزيون عملية هامة ، فكيف الكتابة للبث عن طريق القمر الصناعي .

ووجدت ملاحظات تقف على باب عقلي !

ملاحظة تقول : يراعى البعد تماماً عن قضايا السياسة !

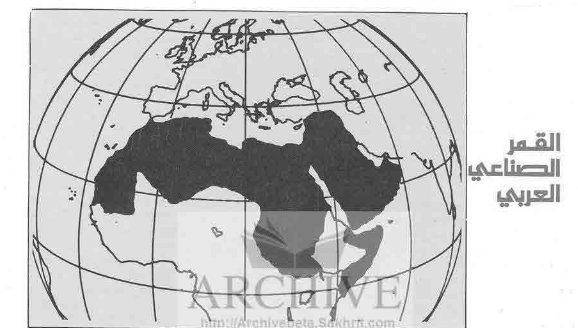
ملاحظة ثانية تقول : لا مبرر لاشتراك أشخاص بعينهم إلا بعد استشارة دولهم في أمر حديثهم عبر القمر الصناعي !

ملاحظة ثالثة : من الضروري الاستفادة بكل بلد ولو ببضع لقطات وتراعى العدالة في ذلك !

ملاحظة رابعة : لا اجتهادات في الأفكار الدينية ، ومن المفضل البعد عن موضوع الموت لاختلاف النظرة إليه !

ملاحظة خامسة : اللغة العربية مطلوبة

القمر الصناعي العربي



خريطة المناطق التي يغطيها القمر الصناعي عربسات

حيث أن التعريب يتعثر في بعض دول شمال افريقيا !

ملاحظة سادسة : ضرورة الاهتمام بالرياضة وبرامج المنوعات . بحيث تكون السهرة مشوقة !

ملاحظة سابعة : لا ضرورة عن الحديث عن نظام البلاد السياسي حيث أن هذا يدخل في سيادتها !

و.. و.. وملاحظات لم تكن مكتوبة ، ولكنها قيلت شفوياً وكان عليّ أن أبدأ في الاعداد. ورغم هذه المحاذير السياسية والمخاوف النفسية . فقد كتبت البرنامج وكنت طموحاً . إذ أن اللقطة الواحدة التي تستغرق دقيقة على الشاشة فيها لقطات من ٥ دول عربية . ويبدو أن التنفيذ كان صعباً ، فظل ما أعددته نموذجاً فريداً ، وضع على الرف وظهرت سهرات عربية أخرى . لا أظن أنها « تواكب » أسلوب القمر الصناعي ، إذ يمكن أن تعد في محطة ما وتوزع منها نسخ ، وكل دولة تذيع ما تريد بعد « غربلته » في نفس الوقت المحدد للبث . ولكن القمر لا يستخدم أهم إمكاناته وهي « الآنية » . أي الاذاعة في لحظة واحدة دون « غربلة » مايذاع . باختصار بدون مقص رقابة !

— ٤ —

ان أزمة عربسات الحقيقية هي كما عبر عنها الأمير حسن ولي عهد الأردن والرجل المستنير في ندوة القمر الصناعي العربي وآفاق تنمية الثقافات القومية (مارس ، آذار ٨٦) : « إنها أزمة سياسية وأزمة سياسات ! » نعم ، هي أزمة قضية العروبة والوحدة . في السماء قمر صناعي عربي ، والأرض العربية ممزقة الأوصال . وليس هناك من معنى أن تقفز الاشارات من بلد إلى آخر في الفضاء والحدود مغلقة بينهما في الأرض .. وكيف يبث القمر برنامجاً موحداً للأقطار العربية ولم تجتمع هذه الأقطار على شيء واحد ؟!

فاليوم بعد اطلاق القمر الصناعي العربي ، هناك تخوف كبير مما يطلق عليه عملية « دس العبوات السياسية الناسفة في البرامج المتبادلة » ، وهناك خوف البعض من خشية بث مباريات كرة قدم على الهواء مباشرة لأن بعض المعلقين يخرجون عن التعليق الرياضي الى المحظورات السياسية . ولأن اللافتات التي تعلق في الملاعب لا تعلق بالضرورة عن السجاير التي تلوث الصدر وانما عن الشعارات التي تلوث الفكر.

والذين تعرضوا للقمر الصناعي فى بحث جاد أو دراسة مستفيضة وضعوه بين أربعة عناصر: القمر الصناعي العربي بين التكنولوجيا والسياسة وبين القومية والأقليمية والعالمية ، واشكالية الثقافة العربية في اطار التكامل والتعامل مع الواقع العربي والانطلاق

من الأرض إلى الفضاء . وبعد البحث ، توصلوا إلى نقاط للمناقشة أهمها ، مدى امكانية الفصل بين السياسة والأبعاد الاقتصادية والثقافية حتى لا تجهض الأولى أي خطوة نحو التكامل تتحقق في المجالات الاقتصادية والثقافية . وانه لابد من طرح منهج للتعامل من واقع التجزئة والتعددية في الأرض العربية . والوصول إلى عدد من المجالات من قطاع الثقافة العربية يصلح للبث المشترك عبر القمر الصناعي (برامج محو الأمية ، برامج فنون ، ثقافات شعبية) فهل هذا في الامكان ؟

هل في الامكان مرور برامج التليفزيون إلى المشاهدين دون مرور بالمصفاة الحكومية .. أي الارسال التليفزيوني الفضائي المباشر؟ إن هذا في حقيقة الأمر . أهم الأبعاد الدولية لاستخدام الأقمار الصناعية سواء في مجال التربية والثقافة أو غيرها من مجالات الاتصال . في هذا العام ، ستبدأ أوربا في اطلاق أقمار للإذاعة الخاصة بالبث المباشر وسوف تليها أقمار أخرى ، ربما تدخل بنا دوامة جديدة !

كيف ؟ ربما تهدد ثقافات الدول النامية حين تغرق بمواد إعلامية تحمل قيماً غريبة عنها ، الأمر الذي سيوصف بأنه « غزو اعلامي أو تلوث فكري أو استعمار الكتروني » . ولذلك نادى الكثيرون بقيام نظام عالمي جديد للاعلام والاتصال يحرر الدول النامية من هيمنة القوى الكبرى على وسائل الأخبار والتثقيف والمواصلات .

— ٥ —

انني أتذكر في البرنامج الذي أعددته من « سهرة عربية » أن طرحت ندوة تنقل بالقمر الصناعي ويشترك فيها خمس شخصيات عربية من محل اقامتهم هم د . محمد عبده يماني من السعودية . د . محمد الرميحي من الكويت ، ود . مازن العرموطي من الأردن ، ود . أحمد علي عسكر من الصومال والاستاذ المنصف الدليمي من تونس . وكنت أضع النقاط الثلاث الآتية للحوار الخماسي :

١ — ما هو الأمل الذي تسعى ليحققه عربسات ، في أي مجال ؟

٢ — ما هو التغيير الاجتماعي المرتقب بعد تبادل البرامج عبر شبكة الفضاء ؟

٣ — ما الذي يخيفك من البث الآني عن طريق القمر الصناعي ؟

ولا أدري ، هل كان ترشيح هذه الشخصيات يحتاج إلى اعادة نظر أم أن الموضوع دخل في بند « المحظورات » !

والقضية ليست عربية فقط ، بل عالمية .. إن كندا على سبيل المثال تتخوف من أقمار الولايات المتحدة . ودول أوربا الأصغر تتخوف من دولها الأكبر . إن فرنسا وألمانيا الغربية تتخوفان من امارة لوكسمبورج لأنها سوف ترسل برامج تليفزيونية مصحوبة باعلانات تجارية قد تهدد بإثارتها وبريقها نظام التليفزيون العام .. بالاضافة إلى ذلك ماذا عن مدى التأثير الذي ستحدثه أقمار البث التليفزيوني المباشر إذا غطى هذا الارسال دولاً تختلف في معتقداتها أو لغاتها وثقافتها .

■ الخوف من دس معوقات سياسية في مباريات الكرة !

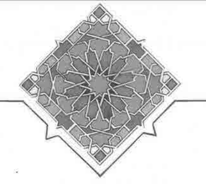
■ حلم قديم في إبادة الأمية عن طريق قمر عربسات

— ٦ —

إن ندوة عمان التي دعى إليها منتدى الفكر العربي لمناقشة آفاق تنمية الثقافة القومية — بالقمر الصناعي — ركزت على موضوع التربية . لقد وجهت الندوة الدعوة إلى ٣٢ شخصية عربية عامة بين مقدمي بحوث ومعقبين .. وافتتح الندوة الأمير حسن بوصفه رئيس مجلس أمناء الفكر العربي . وكانت الندوة التي أدارها الاستاذ الدكور سعد الدين ابراهيم رئيس المنتدى ، نموذجاً للندوة العلمية الجادة . وكان من موضوعات الندوة مثلاً : دراسة هندسية حول عربسات وامكانية تحقيقها الأمل المرجو . والأبعاد الدولية لاستخدامات الأقمار الصناعية في مجال التربية والثقافة والقمر الصناعي العربي واشكالية التكامل ، والقمر الصناعي وتنمية الثقافة العربية وبعض محاور الثقافة لبرامج القمر الصناعي . استغرقت الندوة يومي السبت والأحد من الاسبوع الثاني من آذار ٨٦ وكان من أهم ما توصلت إليه الندوة في هذا المجال أن التعاون بين الاذاعيين والتربويين لا يزال في مستوياته الدنيا .. وأن هناك مشكلات إضافية لاستخدام قناة غزيرة الاشعاع وأساس هذه المشكلات أنه يمكن تلقي البرامج التي تبثها القناة دون أن تمر البرامج بهيئات التلفزيون أي المصفاة الحكومية لتنقيتها — إن أمكن — من الشوائب السياسية أو الأخلاقية وبثها على النحو الذي تراه . وقد لا يفلت مشروع تعليم الكبار من هذه المصفاة !

المهم أن القمر الصناعي العربي عربسات الذي يجول ويصول في السماء العربية يتفرج على برنامج ممتع ومثير من الصراعات الأرضية !

مفيد فوزي



من روائع الفن الاسلامي

بقلم وعدسة : صبحي الشاروني

اقتناص الفريسة على قدر من الخزف

شاع بين المسلمين كراهية استخدام الأوانى المشكلة من المعادن النفيسة كالذهب والفضة .. لهذا انتشر استخدام الأواني الخزفية فى الحياة اليومية ، وتفوق الخزافون وتفننوا فى زخرفة هذه الأوانى حتى أضافوا اليها قيمة جمالية جعلتها تفوق قيمتها لو كانت من الذهب أو الفضة .

لقد ابتدعوا مايسمى بالبريق المعدنى . واستخدموه فى زخرفة المنتجات الخزفية . فتحول الخسيس الى ثمين بين أيديهم . وأضاف البريق المعدنى لونا ذهبيا فى أغلب الأحيان ، يعوض الاستغناء عن الذهب فى صناعة الأواني .

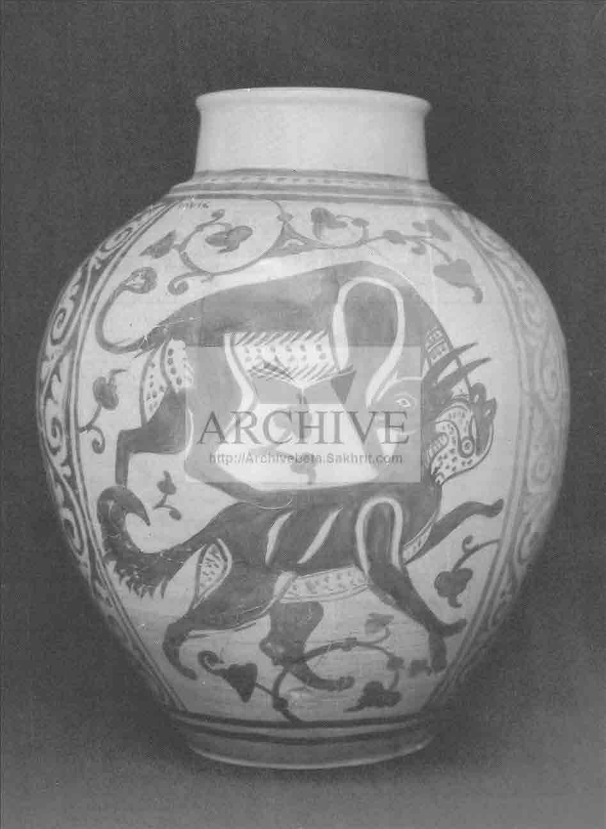
والقدر التى نرى صورتها هى من روائع متحف الفن الاسلامى بالقاهرة : وترجع الى فترة حكم الفاطميين لمصر خلال القرن الخامس الهجرى ـ الحادي عشر الميلادي ـ وهى من الخزف ذي طلاء زجاجي وبدي اللون غير شفاف ، أي تدخل فى تركيب طلائه مادة القصدير . أما الرسوم والزخارف على هذا الطلاء فهى ذات بريق معدنى ، يميل الى اللون الزيتونى . وتصور كلب صيد يهاجم حيوانا له ذيل ثعلب ورأس وعل . والقدر تم ترميمها . ورقبتها مشكلة بالجص . ويعتقد بعض الأثريين أن هذا الجانب من القدر أعيد رسمه فى زمن لاحق لصناعته ، لأن لون طلائه يختلف فى درجته عن لون بقية الاناء .

ويلاحظ أن القدر تخلو من حلقة القاعدة كما أن بدنها عريض بالنسبة لطولها وهذا يرجع صناعتها فى تاريخ مبكر .. حول منظر « اقتناص الفريسة » خلفية مزينة بأفرع نباتية ذات أوراق مخروطية كما يفصل هذا الرسم عن مناظر الصيد على بقية بدن القدر شريطان رأسيان بكل منهما فرع نباتى متموج .

لقد اتجه الفنان الى رسم الحيوانين فى تكوين يتفق تماما مع المساحة المحددة بحيث لا يخفى أحدهما الآخر الا فى أقل الحدود اللازمة لتأكيد التعبير عن الموضوع ، وهو مايسمى فى الفن الاسلامى بالتسطيح .

ولعل معالجة مثل هذا الموضوع الذى رسم بطرق مختلفة على العديد من روائع الفن الاسلامى فى ذلك العصر ، تدلنا على الذوق الغالب عند الطبقة المترفة ، كما تنبهنا الى أن استخدام الكلاب فى الصيد كان شائعا بين أبناء تلك الطبقة .

لكن السؤال الذى لم نجد له اجابة شافية هو : هل مثل هذا الاناء كان يدخل فى الاستخدام اليومى أم كان تحفة للزينة فى بيت أحد الأثرياء ؟



فكرة هذا المتحف.. هل تجد من يتبناها؟!

بقلم: حازم هاشم

● ما من برنامج زيارة لإسرائيل إلا وتضمن ــ بالحاح وإصرار ــ المرور بياد فاشيم ، وهو الاسم العبري لذلك المتحف الذي أقامه الإسرائيليون لما يسمونه بضحايا النازية الهتلرية ملايين اليهود الذين احتوتهم معسكرات الإعتقال النازي ، ثم إعمال القتل والحرق فيهم بالغاز والنار . ورغم أننا هنا لسنا بصدد التدليل على مبالغات الإسرائيليين وتهويل الدعاية الصهيونية حول ضحايا هتلر من اليهود في أوربا ، وهو الأمر الذي ظهرت حوله كتابات ــ بل ودراسات جامعية أوربية ــ جعلت وقائع هذه المسألة يحيط بها الكثير من الشكوك بل والكذب ، إلا أننا نقر أن إضطهاد ألمانيا النازية لليهود الأوربيين هو الأمر الذي أحسنت أجهزة الدعاية الصهيونية إستثماره ــ ومازالت ــ في العالم كله . وليست وقائع الحملة الصهيونية ضد السكرتير العام السابق للأمم المتحدة «كورت فالدهايم» وإتهامه بالتعاون مع النازي والعداء للسامية ببعيدة عنا . إن شعب النمسا قد رفض هذا الإبتزاز الصهيوني وحقق إرادته الحرة بانتخاب «فالدهايم» رئيساً للنمسا ، ولم يكن الإتهام الصهيوني لفالدهايم مقصوداً به إثبات تورط الرجل ، بقدر ما كان هذا الإتهام إرهاباً للآخرين ، إذا ما سولت لهم نفوسهم إبداء أدنى تعاطف مع العرب وقضاياهم .

نعود إلى «ياد فاشيم» هذا المبنى الذي أنفقت عليه إسرائيل ملايين الدولارات ، وراحت تجمع له آلاف الصور والاسطوانات والوثائق وحتى الخطابات الغرامية من جميع أنحاء العالم . بهدف إقناع أي زائر لياد فاشيم بأن اليهود ــ دون سائر خلق الله ــ هم الذين إضطهدهم هتلر ، وأن هذا الزائر مسئول ــ بشكل مباشر أو غير مباشر ــ عما حاق بهم ! ، وأن كل ما تفعله إسرائيل ــ أو فعلته ــ في العالم من أجل ألا تتكرر كارثة اليهود ، ثم لا أمن ولا أمان ليهود العالم إلا بالمجيء إلى إسرائيل ، وعلى الزائر ألا يقتنع فقط بكل هذا . بل عليه كذلك أن يتألم ويحزن ويبكي ، وتتحول مشاعره هذه إلى الفعل الإيجابي ، بمساعدة إسرائيل ومواطنيه من اليهود على الهجرة إليها ، وإذا كان زائر ياد فاشيم من أصحاب النفوذ والتأثير في بلاده ــ وهو غالباً ما يكون هكذا ــ كلما إحتلت زيارة هذا المتحف وقتاً أطول ! لكن الزيارة في كل الأحوال ضرورة واجبة !

جو كئيب

والذين دخلوا «ياد فاشيم» يحكون عن هذا الجو الميلودرامي الكئيب الذي فرضه

الإسرائيليون داخل المتحف . فالسواد هو طلاء الجدران . والأضواء خافتة كأنها البصيص . والموسيقى الجنائزية النائحة تتردد في جنبات القاعات ، ثم مرددات نغمية تستصرخ الضمائر من أجل الإنسانية اليهودية المعذبة . ثم آلاف اللوحات للضحايا . ما بين أطفال ونساء وشبان وشيوخ وصبايا ، وليس أفدح تأثيراً من لوحة تحتل حائطاً لعساكر هتلر وهم يصوبون رشاشاتهم إلى رؤوس بضع أطفال من اليهود !

يدور الزائر للمتحف ومرافقوه يفيضون في الشرح . رغم أن كل لوحة أو أثر إستقر بجواره شرح مكتوب . فضلاً عن الشرح الذاع عبر ميكروفونات المكان ، وبأداء درامي مؤثر . مع هذا الكتيب الصغير المصور — غير ملون — عن المتحف ، وأول جملة في كلماته « إن هذا المتحف قد أنشئ تخليداً لذكرى ستة ملايين يهودي قتلهم هتلر في الفترة ما بين عام ١٩٣٣ وحتى عام ١٩٤٥ » .

وأضافوا « مئات من التجمعات البشرية اليهودية أبيدت ، ونحن نخلد روح المقاومة اليهودية التي ناضلت من أجل الحرية وتقرير المصير . إن معسكرات الإعتقال النازية تشير إلى السابقة الأولى في التاريخ . أن يقوم حزب سياسي في السلطة بعزل فئة من البشر ! ، وتأثيرات ذلك وتفاعلاته له أهمية كبرى عند الشعب اليهودي حالياً ولأجيال يهودية قادمة . لقد فقد الشعب اليهودي إستقلاله على أرضه بعد تدمير هيكل سليمان على يد الرومان عام ٧٠ م . ومن هذا التاريخ عاش اليهود مشتتين في أنحاء العالم ، واندمجوا في بعض المجتمعات . لكنهم في أماكن أخرى كثيرة أرغموا على الحياة داخل « الجيتو » في ظل تدابير إستثنائية وإضطهاد ومذابح » .

هذه في إيجاز شديد أهم المعلومات التي عني الإسرائيليون بتقديمها إلى « ياد فاشيم » . وواضح أن هذا المتحف أريد له توصيل رسالة محددة لهذا الزائر ، دون النظر إلى قيام هذه الرسالة على ركام من الأكاذيب والمبالغات المهولة لما لاقاه بعض اليهود على يد هتلر ، الذي إجتاحت جيوشه العالم بالقوة الغاشمة ، فلم تفرق بين هذا وذاك ، ودمرت بلداناً أوربية تدميراً كاملاً فكان العالم كله ضحية ويلات النازي .

قضية هامة

وليتمهل القارئ قبل أن يقول .. حسناً .. وماذا بعد؟! . فما قصدت أن أعرض لهذا المتحف الصهيوني لمجرد التعريف . بل القصد من وراء ذلك طرح قضية طالما شغلتني . فما الذي يحول حتى الآن بيننا نحن العرب وبين إنشاء مثل هذا المتحف؟! ، ولدينا — والحمد لله — ما لا يحصى من جرائم غاية في الوحشية إرتكبتها إسرائيل ضدنا لم يسلم منها عربي . لسنا في حاجة إلى الكذب أو الإختلاق . فلدينا وثائق مكتوبة وشهود أحياء ، بل وأفلام تسجيلية لبعض من جرائم إسرائيل في حق العرب . ومنذ قيام الكيان الصهيوني — وحتى الآن — ما زال إعلامنا العربي يقف عاجزاً أو مشلولاً في مواجهة عنف الدعاية الصهيونية ضدنا في أنحاء العالم . حتى كاد باطل إسرائيل أن يصبح حقاً . ونحن بالطبع لا يعوزنا المال ،



حتى يكون لنا هذا المتحف العربي تذكيراً لزوارنا بجرائم إسرائيل المستمرة حتى الآن .

مذابح كفر قاسم ودير ياسين وصبرا وشاتيلا والغارات على جنوب لبنان وقصف منظمة التحرير الفلسطينية في تونس . ثم ضحايا الممارسات البربرية الإسرائيلية في مواجهة مواطنينا العرب داخل إسرائيل وفي الأراضي العربية المحتلة . أخشى أن أستسلم للاستطراد لا أنتهي . هل هذه كلها لا يمكن أن تكون مادة نابضة حية في متحف عربي ؟ ، وشاهداً صادقاً على بشاعة إسرائيل ؟! .

لقد فزع العالم لمذبحة صبرا وشاتيلا ، وهذا مثال فقط . لكنه عالم ينسى أو يستدرج إلى النسيان . لكن وقائع المذبحة ما زالت حية . ويمكن جمع شتاتها من شهود عيانها وضحاياها . ألا تغنينا مادة متحفية كهذه عن كثير من الكلام على المنابر أو طباعة كتيبات هزيلة مآلها سلال المهملات ونحن نتوهم أن لنا إعلاماً عربياً فعالاً في مخاطبة العالم ؟!

ولنا أن نتصور مثل هذا المتحف العربي وقد تكررت نسخته في كل قطر عربي . وما أكثر زوارنا الذين سنفلح حتماً في اطلاعهم على متحفنا هذا ، الذي لابد أن ينشأ على علم ودراية بوسائل التأثير والاقناع فقط . فنحن لسنا كعدونا في حاجة لجهد الكذب أو الاختلاق .

ولست أدري أي جهة عربية يمكن لها أن تتبنى هذا المشروع ؟ هل هي الجامعة العربية ؟ ، أم وزراء الإعلام العرب ؟ . أو قمم القادة إذا إنعقدت ! . إنها فكرة تستحق الدراسة . وأضعف الايمان أن تبادر دولة عربية مقتدرة بتبني هذه الفكرة . التي إذا تحققت فإنها تقدم طرحاً جديداً في أساليب مقاومتنا للعدو الصهيوني . الذي يخدع العالم كل يوم ، حتى أنه ينجح في أحيان كثيرة في تبرير ممارساته الآثمة . ولتكن مخاطبتنا للعالم باللغة التي يفهمها ، وحتى نتوقف عن الأساليب التي طالما اتبعناها في الإعلام عن قضايانا العربية فما كسبنا إلا القليل . فهل من مبادر ؟!

دورة الدوحة المسرحية..
وانطلاقة جديدة للمسرح القطري

واكب احتفال دولة قطر بيوم المسرح العالمي تخريج أعضاء دورة الدوحة المسرحية ، وقد بدأت هذه الدورة في الأول من فبراير الماضي ، واستمرت شهرين ، وشارك فيها خمسة وعشرون مسرحيا من أعضاء فرقتي السد ومسرح الأضواء . وقد أشرف عليها الدكتور عوني كرومي الأستاذ المساعد بأكاديمية الفنون الجميلة (قسم الفنون المسرحية) التابعة لجامعة بغداد ، وقُدّمتْ من خلالها مسرحيتان هما : الرجال والبحر وآباء وأبناء ..



الرجال والبحر .. وآباء وأمهات

بقلم : خالد زيارة

ولقد ركزت دورة الدوحة المسرحية على إعداد الممثل من كل النواحي ، وعلى تدريس القواعد والأسس النظرية الخاصة بهذا الاعداد ، وكانت لها عدة أهداف هامة منها :

- تطوير الكادر الفني في المسرح القطري من ممثلين ومخرجين وكتاب في مجال التمثيل واعداد الممثل والدور .
- تجديد وتنويع وتبادل المعلومات والمعارف عن المسرح وأسلوب الإنتاج والاخراج .
- التعرف على بعض اتجاهات المسرح الحديث في مجال التمثيل والاخراج .
- اعتماد أسلوب المختبر المسرحي للتمرين والتطبيق ومعالجة بعض الظواهر السلبية في عمل الممثل ووظيفته الفنية والاجتماعية .
- دراسة ومعالجة بعض الظواهر المسرحية في مجال اعداد النص وتحديد علاقة الممثل بالعناصر المسرحية مروراً بالمؤلف والمخرج والمشاهد .
- اخراج أعمال تطبيقية تجريبية تشتمل على تحقيق سمات وأفكار الدورة ، وتكون مختبراً ثانيا لتطبيق الأفكار النظرية وتدريب الممثل على جماعية العمل المسرحي .

فائدة الدورة

ولقد أفادت دورة الدوحة المسرحية في أنها سمحت للممثل أن يكون قادراً على توصيل لحظة الحضور المسرحي التي تتم عبر الرموز التي يقدمها على المسرح ودلالات هذه الرموز ومعانيها عند المشاهد .. وكانت التمارين الجسدية في هذا الصدد ضرورية ، وهي تبدأ بتمارين سويدية وتنتهي بتمارين الاكتشاف والابتكار والتخيل وسرعة البديهة ، الى جانب تمارين في استرخاء العضلات وقدرة الانفعال ، وتنمية قدرة التركيز والانتباه وقوة الملاحظة عند الممثل .

ولم تكتف دورة الدوحة المسرحية بهذه المحصلة النظرية والتطبيقية المختبرية ، انما تجاوزتها إلى التطبيق العملي في إنتاج عملين مسرحيين . قدم العمل الأول منهما ضمن فعاليات مهرجان يوم المسرح العالمي ، وكان بعنوان « الرجال والبحر » . وهو مأخوذ عن مسرحية « المهرج والمرآة » للكاتب التونسي محمد العزي ، وقام بالاعداد الدكتور عوني كرومي ، وتولى صياغة الحوار باللهجة القطرية مجموعة من أعضاء الدورة . أما المسرحية الثانية فهي بعنوان « آباء وأبناء » وقام باعدادها الدكتور عوني كرومي والفنان عبدالله أحمد عبدالله وهو أحد أعضاء دورة الدوحة المسرحية .

معاناة الرجال

وتتحدث مسرحية « الرجال والبحر » عن معاناة أربعة من الرجال تركوا البحر وأصبحوا

يعيشون على ذكراه ، متأملين من خلاله رموز الحياة ومعاناتهم الفردية والاجتماعية التى تعبر عن قدرتهم على تحمل الصعاب ، والألم النفسي .. وفي هذا العرض يتعرف المشاهد على القدرات التمثيلية والابداعية لدى الفنان القطري الذي يجرب ويكتشف ذاته وقدرته على الابداع في مجال المسرح ، حيث لايعتمد في هذا العرض على لغة المسرح العادية المتمثلة في الحوار بقدر اعتماده على لغة الجسد في التعبير وايصال المعاني.

ولأن هذه المسرحية لاتدعي لنفسها صفة المسرح الجماهيرى بل هي تتوجه الى نخبة المثقفين ، اذ أنها عمل تجريبى ، لذا فقد حظيت باهتمام شريحة المثقفين والمتابعين لتطورات المسرح القطري لذلك تم عرضها أيضا في جامعة قطر على قاعة ابن النفيس وشاهدها مجموعة من طلبة الجامعة الذين ابدوا اعجابهم وتقديرهم بهذا العمل ..

وقد عرضت مسرحية الرجال والبحر أيضا على قاعة افريقيا بإمارة الشارقة بدولة الامارات العربية المتحدة ، حيث ذهب فريق العمل بدعوة من الدائرة الثقافية بالشارقة ودارت مناقشات مثمرة بين الحضور ومعظمهم من أهل المسرح في الامارات وفريق العمل . واشاد الجميع بأداء الممثلين القطريين ، وأبدوا اعجابهم باستعمال الممثلين لكل طاقاتهم الجسدية والصوتية والتمثيلية لايصال عمل مسرحي من نوع خاص الى جمهور المشاهدين.

الجيل الشاب

وجاءت مسرحية «آباء وأبناء» التي عرضت على هامش فعاليات يوم المسرح العالمي ، وقد سلطت الضوء على مجمل القضايا الاجتماعية بشكل عام وعلى علاقة الجيل

المسرحية الأولى نصٌ تجريبيٌ ، يُفجّر الممثل من خلاله ذاته وقدرته على التعبير الجسدي

المسرحية الثانية اجتماعية في منظورها ، فلسفية في أبعادها ، لامعقولة في بنائها



من مسرحية «آباء وأمهات»



من مسرحية الرجال والبحر

الرجـــال والبـحـر ..وآبـــاء وأمَّهـــات

الشاب بالواقع الاجتماعي وبالأسرة بالذات .. كما أنها سلطت الضوء على التحولات الاجتماعية في السلوك والفكر.. فهي من ناحية مسرحية اجتماعية ، إلا أنها أخذت أسلوب اللعبة المسرحية كوسيلة من وسائل المشاركة مع المشاهد في معالجة الظاهرة الاجتماعية وايجاد الحلول لها .

وقد أظهرت هذه المسرحية قدرة الفنان القطري على الإعداد والتمثيل ، كما أكدت أن الفنان القطري سوف يقدم لنا مستقبلا حصيلة جيدة مبنية على الخبرة والتجريب .

وفى محاولة لإلقاء مزيد من الضوء على أبعاد هذين العملين المسرحيين اللذين أنتجا ضمن دورة الدوحة المسرحية ، كان لنا لقاء مع الدكتور عوني كرومي الذي أوضح أن الرجال والبحر نص تجريبي يفجر الممثل من خلاله ذاته وقدراته وخياله والتعبير الجسدى ، في تجسيد جميع الايماءات والرموز في الحكاية . حتى أصبح هذا التجسيد بمثابة لغة يمكن ان تقدم لنا حكاية خارج أطر الخمس حكايات التي عرضناها.. لان كل عرض مسرحي له حكاية قائمة بذاته وهي الحكاية التي تبدأ باللحظة التي يدخل فيها المشاهد قاعة المسرح فيبدأ المشاهد بسرد كل مايعايشه في القاعة في ذهنه الباطني من أجل اكتشاف ظواهر الحياة عبر العلاقة التي تربط بين المشاهد والممثل والمشاهد والمشاهد نفسه .

لغة انسانية

وقال أيضا إننا اكتشفنا في هذا النص أن هناك لغة انسانية يمكن أن تسقط على الواقع كما يمكن أن تتحول الشخصيات المسرحية الى شخصيات ملموسة وحية داخل المجتمع . هذه الشخصيات في المسرحية فقدت ارتباطها بالبحر بسبب ظروف اجتماعية وحياتية ، وبدأت تعيش على التذكر والنكوص النفسي وطرح المعاناة الخاصة والعامة .

وقد اعتمد العمل التجريبي المختبري كأسلوب أساسي في إعداد هذا العرض ، مع الاستفادة من شكل وتقاليد وأسس المسرح الشامل والمسرح الحي في عرض النماذج المسرحية ، الى جانب مشاركة كل ماله علاقة بالنفس البشرية بحيث تصبح الاغنية واللحن والرقصة والصراخ والضحكة دلالة من دلالات الحياة ووسيلة من وسائل مخاطبة الوجدان الانساني عند المشاهد .

أما مسرحية « آباء وأبناء » فهي كما قال الدكتور عونى مسرحية اجتماعية في منظورها فلسفية في أبعادها لا معقولية في بنائها وتركيبها الدرامي ، وتبدأ بفرقة مسرحية تحاول أن تعرض مسرحية ، والشخصيات تحاول أن تمثل حدثاً خرافياً وهمياً يتمثل في أنّ ابناً مايحاول ان يقتل عائلته . حادث القتل هذا استطعنا من خلاله أن نسلط الضوء على جوانب اجتماعية.. وهذا الحدث الوهمي قادنا لكي نكشف عن البعد النفسي والاجتماعي للشخصيات . ولهذا لم تبدأ المسرحية كأي بداية تقليدية تستعرض الحدث وتقدم الشخصية والمعلومات ثم تطور وتوزم الفعل الى الذروة ، فالعقدة ثم تنتهي بالحل . انما بدأت المسرحية من الذروة أي من لحظة التعثل والرغبة في تنفيذ الجريمة . ومن هذه اللحظة بدأ تداعى القصة التي تظهر بشكل سرد قصة ثلاثة شبان يسكنون مع عائلة مكونة من أم وأب ، وهذه العائلة تعيش في مرحلة انتقال وتحول اجتماعي ، وفقدت في هذه اللحظة علاقة الحب والتفاهم ، ولغة التربية والثقة والارادة والامل.. ولم تنته المسرحية بحدث دراماتيكي يسمح للمشاهد أن يتوقف وتنتهي القصة ، انما القصة بدأت عندما انتهت المسرحية لكي يتأمل كل مشاهد قصة حياته ووجوده ، فليس يكفي أن نعيش الحياة بحسن نية ، بل يجب علينا أن نعيشها بوعي وادراك .

■ كيف أفادت الدورة المسرحية المشتركين فيها ، وماهي مُعْطَيَاتُها الحقيقيّة ؟

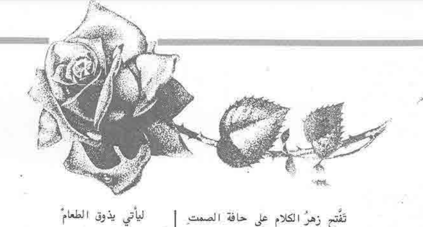
المسرح الشعبى

ويضيف أننا طبقنا في المسرحية سمات المسرح الشعبي الذى هو اللحظة الاحتفالية التي يشارك فيها الممثل والمشاهد في حالة من المتعة والفرح الذي يقود الى الفكرة . فبدأنا بالقاء النكته والتعليق والسخرية ، أي تقديم أحداث المسرحية كعناوين وكموجز للاحداث لكي تبقى هذه الحكاية الكوميدية الساخرة في ذهن المشاهد عندما تظهر بشكلها الدرامي لكي يدرك تناقضها ، ويدرك أن هذه اللحظة الدرامية ماهي الا لحظة كوميدية لأنها تملك تناقضها .

واعتمدنا على بناء المشهد بذاته ، ولم نتقيد بالزمان والمكان ، لم نتقيد بالشخصية وحضورها ولا باللعبة الواقعية بقدر ماقدمنا لعبة مسرحية ، أدخلنا الماضي في الحاضر في المستقبل ، وأنهينا مايسمى بالبناء الدرامي فوضعنا مكانه سرد حكاية ملحمية عبر (القطع) الذي يتمثل في شخصية الراوي أو المعلق أو أحد أعضاء الفرقة ، وكان يقطع في لحظات عندما لاتفهم الاحداث وفي اللحظات التي يجب ان لايندمج المشاهد فيها أو لربط مجمل الحكاية .. ولا توجد في هذه المسرحية حكاية للشخصية بقدر ماتوجد أحداث يمكن أن نجمعها من مجمل العرض المسرحي لكي تحمل لنا فكرة أو معنى . وقد يستنتج المشاهد إكثر من فكرة وأكثر من معنى وقد يتعاطف مع الشخصيات وقد يرفضها . لأن كل شخصية في حالة تناقض وجدل ، فلا يجد المشاهد فرصة لكي يذوب مع الشخصية انما يبقى على مسافة وبعد مع الشخصية ويتفكر بها .

أما عن ديكور المسرحية الذي قام بتصميمه الفنان القطرى عبد الرحمن المناعي فقد أعطانا مكانية وزمانية الحدث عبر رموز بسيطة وأعطى المنظر الدلالة والتعبير عن الحالة التي تعيشها الشخصية ولم يحاول أن يفرض علينا نموذجاً واقعياً أو طبيعياً بل جعل من المنظر وتركيبته الجمالية عبارة عن إيحاء للتأمل والتفكير بمدلولات الحياة ومعناها وبالذات بمدلولات حرية الانسان وارادته .

خـــالد زيارة



أبي..

شعر
محمد إبراهيم أبوسنة

تَفَتّح زهرُ الكلام على حافة الصمتِ
أورق قلبُ الظلام
وأينع قلبي هنا وردةً من غمامْ
تسيلُ ينابيعُه إثر هذا الصدى
إثر هذا المدى
عبر شوق يطيرُ به كلُّ هذا الحمام
يُضيءُ حدائق هذي الطفولةِ
بين يديه اللتين
تفوحان بالعطرِ
تلقى على القادمين السلام
وصوتي ينادى : أبى
ثمَّ يرحل فى صخر هذى المدينة
ــ هذا الحطام المقام ــ
طوينا مرارة أيامنا
فى اغتراب الأحبة لا نلتقي
غير هذا اللقاء المسافر
بين السهادِ وبين المنام
وأنتَ الذي كنت تدركُ
أنَّ الحياةَ عبورُ قصير
تراشق فيه السهام
وكنت تُضَمِّدُ جرحى
تُقَدس هذي الحياة
وتزهدُ فيها
وتتركها للطَّغَامْ
وكان الكثيرُ قليلا لديك
سوى كلْمةٍ من رقيق الكلامُ
سوى بسمةٍ من فقير
ــ تلح عليه ــ
ليأتي يذوق الطعامْ
وكنت تجالس كل الحزانى الذين
يجيئون يلقون أثقالهم
فى فؤادك
ــ كان الوئامْ ــ
ــ يُظَلّلُ مجلسك المطمئن
على حافة الرعد والبرقِ
كنت تكفكف ملء حنان التودد
فيض الدموع لهيب الضرام
وما كنتُ أحظى بغير الوداع
لأنك شئت الرحيل
الطويلَ لنا
فى الصبا فى فجاج القتام
فها هو قلبى الذى لم يذق حظه
من حنانك محترق
ليس يعرف غير التجهم
فى لحظة الإبتسام
تثاقل خطو الصبى الذى
يدرك الآن ما كنت تدركه
عن عبور قصيرِ
تراشقُ فيه السهام
حياة نعيش نقدسها
ثم نزهد فيها
ونلقى بها للطغَامْ
عبرت برازخها وارتحلت
طهورا وديعا كفرخ اليمام
على كل شيء تركتَ السلام
على كل شيء تحب السلامْ

● تذكار من فلسطين

منبر الأقصى المحترق

بقلم: يوسف الخطيب

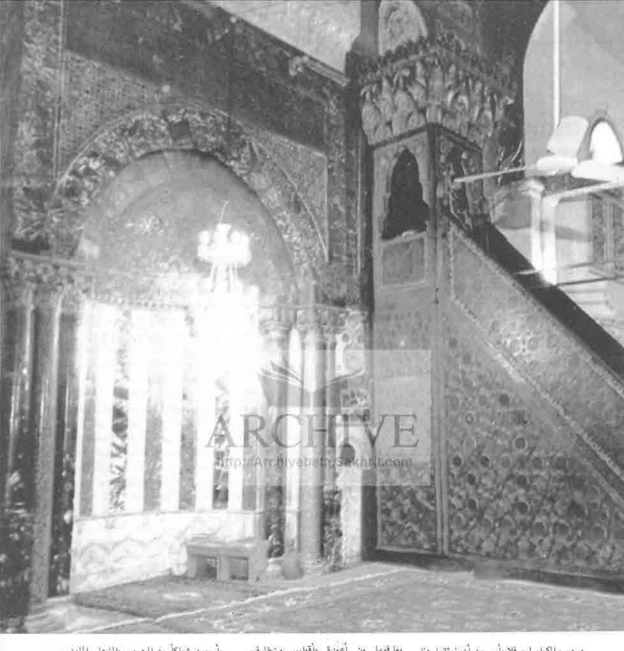
هذا هو منبر المسجد الأقصى، ومحرابه قبل أن تحرقهما «اسرائيل» في صبيحة ٢١ آب ١٩٦٩ (أي في مثل هذا الشهر قبل سبع عشرة سنة)، وذلك في نطاق تمثيلية سخيفة ومكشوفة أسندت فيها جريمة الحريق الى شاب استرالي من طائفة مسيحية شبه يهودية، يدعى «مايكل روهان»، وقيل عنه في حينها إنه مختل العقل، وفاقد بالتالي لأية أهلية قانونية!

ولكن قضاء «إسرائيل» الأخرق العدواني لم يجب مطلقاً على تلك الثغرة القانونية الفاضحة ـ (قطعاً لأن «إسرائيل» في ذاتها هي أكبر عورة صارخة في مجمل التاريخ الحقوقي لبني الانسان) ـ وهي كيف يمكن ان يكون «روهان» هذا فاقداً لأهليته القانونية، في الوقت الذي انقضت عليه سنة كاملة، قبل الجريمة مباشرة، بصفة عضو عامل متطوع في إحدى المستعمرات اليهودية العسكرية المعروفة بـ «الكيبوتزات»، إلا إذا افترض «قضاة إسرائيل» أن جميع أعضاء هذه المستعمرات هم أيضاً من المخبولين فاقدي الأهلية القانونية! ولعل هذا في الحقيقة هو عين الصواب في التحليل الأخير لوضعية هؤلاء المغفلين المهترئين فكرياً وروحياً، من حيث حشروا أنفسهم في حالة تصادم مصيري ضد مئتي مليون عربي، وألف مليون مسلم، متوهمين، دون ما أي وعي لحركة التاريخ، أن الحال سيدوم لهم على هذا المنوال!

لقد تبلغت إطفائية القدس (المدارة يهودياً) بحادث الحريق فور وقوعه مباشرة، ولكنها مع ذلك تلكأت ثلاث ساعات بطولها قبل أن تصل الى مكان الحريق، لدرجة أن إطفائية مدينة الخليل. (على بعد ٣٦ كيلومترا جنوبي القدس).. قد سبقت إطفائية القدس نفسها لإنقاذ ما تبقى من الجزء القبلي من المسجد المحترق.. هذا الذي بارك الله حوله.. وأسرى بعبده إليه ليلاً.. ويمثل أولى القبلتين في فجر الإسلام، وثالث الحرمين حتى يوم الناس هذا.

في الصليبيات الغابرة التي كان فيها الغزاة القدامى يوشحون صدورهم بعلامة الصليب ـ عوضاً عن نجمة «اسرائيل» المعاصرة ـ سبق أيضاً لأوباش أوروبا، ولصوصها، وتجارها، أن جعلوا من نصف المسجد الأقصى كنيسة لهم، ومن نصفه الآخر مستودعاً لذخائرهم، ومقراً لمن يوصفون بـ «فرسان الهيكل»، الى أن اقتلعتهم عاصفة صلاح الدين الأيوبي من جذورهم الخبيثة. فكان أول ما أنجزه المحرر العظيم أن جدد عمارة المسجد. وأتى بهذا المنبر ذاته الذي عهد لنور الدين محمود بن زنكي بمهمة الإشراف على صنعه في حلب. فجاء آية لا نظير لها من آيات الفن العربي الإسلامي الرفيع.. ثم لم يلبث (يوم ١٩٦٩/٨/٢١) أن غدا رماداً بنيران الحقد اليهودي المسموم!

ولكن، لئلا ننسى تفاصيل الجريمة المروعة التي مر بها مجمل إعلامنا العربي



مرور «الكرام !» فلا بأس من أن نوثقها هنا لقراء «الدوحة» بالحقائق والأرقام :

فلقد أتى حريق «إسرائيل» على ١٥٠٠ متر مربع ، من أصل مساحة المسجد الإجمالية البالغة ٤٤٠٠ متر مربع ..

وقد التهمت ألسنة النيران تحديداً : أولاً ، منبر صلاح الدين الأيوبي .. ثانياً ، المحراب .. ثالثاً ، مسجد عمر .. رابعاً ، ثلاثة أروقة ممتدة من الجنوب إلى الشمال بما فيها من أعمدة وأقواس وزخارف .. خامساً ، جانباً من السقف المزخرف الذي انهال رماداً على الأرض .. سادساً ، عمودين رئيسيين مع أحد الأقواس الحاملة للقبة .. سابعاً ، جانباً من القبة الداخلية الخشبية المزخرفة ..

ثامناً ، كامل الجدار القبلي للمسجد بما عليه من تصفيح رخامي .. تاسعاً ، كل ما على الأرض من سجاد أثري .. عاشراً ، ثمانية وأربعين شباكاً من الجبص والزجاج الملون .. حادي عشر ، نقش سور «الاسراء» من الذهب والفسيفساء فوق المحراب .. ثاني عشر ، آيات قرآنية ، وزخارف عديدة ، في أنحاء متفرقة من المسجد ..

ولئلا ننسى أيضاً .. فهذه هي «اسرائيل» .. لقيطة الولايات المتحدة الأمريكية فوق تراب فلسطين !



من روائـــــع
الفن العـــالــمي

بقلم: جمـــال قطـــب

القـــــارئـــــة

لقاءات كثيرة، استعرضنا فيها سوياً روائع عالمية من ابداعات الفنانين التأثيريين لأساطين المدرسة الانطباعية (التأثيرية) من أمثال رينوار ــ بيسارو ــ مونيه ــ مانيه ــ ديجا، وغيرهم من أصحاب الأسماء الكبيرة في تاريخ الفن الحديث، هذا النهج الذي تمركزت نشاطاته وتحولاته بصفة خاصة في عاصمة النور ــ باريس ــ في الثلث الأخير من القرن الماضي. وفصّلنا أكثر من مرة فلسفة التأثيريين في استخدام ألوان الطيف وتحليل أشعة الشمس وتطبيق النظريات الحديثة (آنذاك) فيما يتعلق بقوانين البصريات وفيزيائية الضوء وكيمائية الأصباغ وتطبيقها عمليا. وبفضل هذه الدراسات، استحدث التأثيريون قواعد جديدة لفنهم، وسرعان ما استقطبوا آلاف الفنانين من شتى أنحاء المعمورة إلى حركتهم الوليدة.

إلا أن الوجدان العالمي الذي تربى في أحضان كلاسيكية القرون الماضية، لم يألف الفن الحديث بسهولة، بل وقف التقليديون موقف العداء من هؤلاء الشبان المجددين.. ودارت معركة ضارية لا هوادة فيها بين رجال الأكاديمية الفرنسية والفنانين الأكاديميين من جهة، وجماعة التأثيريين من جهة أخرى. بل إن الأمور ازدادت سوءاً عندما تداخلت أمور السياسة وقتها في أمور الثورة الفنية والتطلعات المستقبلية في شئون الفكر والابداع: فمن المعلوم أنه في عام ١٨٧١ قامت في باريس حكومة تعرف باسم الكومون على أثر توقيع الصلح مع بروسيا، غير أن «البونابرتيين» المحافظين قد تمكنوا بعد قليل من حصار باريس ثم غزوها، ففتكوا بأنصار الحكومة الجديدة فتكاً ذريعاً.. ولكن الشعب الفرنسي وقف في وجه المحافظين. وألف حكومة (الجمهوريين الأحرار) لحكم البلاد، وكانت حكومة معتدلة بين اليمين واليسار. ولم يرض البونابرتيون بذلك، فتحالفوا مع اليمينيين، وألفوا حزباً جديداً سموه (حزب النظام).. وبذلك اندحر الثوار.. واندحرت معهم أفكارهم وشعاراتهم.. ومن الغريب أنهم رأوا كذلك في حركة الفنانين التأثيريين ثورة تناقض التقاليد، فوقفوا لها بالمرصاد، واصمين الفنانين المجددين بأنهم عملاء للثوار (الكومونيين)، وأطلقوا على فنهم أبشع الأوصاف كالفن المنحط.. والارهاب الأحمر! وظلت باريس بين شقي الرحى. وعانى الفنانون من التعسف والاضطهاد!

وبالرغم من هزيمة البونابرتيين في انتخابات ديسمبر ١٨٧٧، إلا أن تهمة (الفن المنحط والارهاب الأحمر) ظلت عالقة بالفنانين التأثيريين أكثر من عام آخر. فكان من جراء ذلك أن سعى تجار الصور والمتاحف إلى التخلص من لوحاتهم بأبخس الأثمان.. ورفض (صالون باريس) ــ وهو أكبر تجمع فني عالمي ــ عرض اللوحات التأثيرية الحديثة!

وفي عام ١٨٧٩، انقشعت الغمامة رويداً رويدا، وعندئذ أقبل الجمهور على تذوق اللوحات التأثيرية.. وحل الاستحسان محل السخرية والاستهجان، وسادت النزعة التأثيرية بين كثير من فناني العالم!

وكان الفنان (ديجا Degas) أول من فاز بالشهرة بين جماعة التأثيريين، وقد ابتدع أسلوباً خاصاً في استخدام الألوان المتكسرة التي يزحف بعضها على بعض زحف الأمواج، وقد أكسب هذا الأسلوب الفريد لوحاته شعشعة وتألقاً وشفافية مذهلة. ولا غرو أن يعجب بأسلوبه هذا كثير من الفنانين العظام من أمثال فنانتنا الأمريكية: ماري كاسات Mary Cassatt. وهي فنانة شهيرة عاشت فترة من حياتها في باريس، مشدودة إلى هؤلاء المجددين في عاصمة النور، تواقة إلى دراسة فلسفة النزعة التأثيرية، وبالرغم من أن فنان التأثيرية الأشهر (ديجا) كان له اتباع عديدون، إلا أن رائدين اثنين هما اللذان تأثرا تأثراً شديداً بأسلوبه، وهما: ماري كاسات، وتولوز لوتريك.

وقد حملت ماري على عاتقها اقناع الأمريكيين بقيمة اللوحات التأثيرية لشرائها واقتنائها، كما عملت في الوقت ذاته على نشر الأسلوب التأثيري بين مواطنيها من الفنانين الأمريكيين. ويختلف الأمر هنا بين كفاح التأثيريين الفرنسيين الذين عانوا كثيراً من الاضطهاد والتنكيل بهم، وبين انجازات ماري كاسات، تلك الفتاة الثرية التي تملك وسائل الاقناع والدعاية والانتشار.. فكان والدها من أصحاب البنوك الكبار، واجتذبتها الحركة التأثيرية فعملت في باريس فيما بين عامي ١٨٦٨ و ١٨٧٤، وهي فترة الغليان الثوري واحتدام المعارك بين الفنانين التأثيريين ومناهضيهم.

والملاحظ أن ماري (١٨٤٥ ــ ١٩٢٦) قد اتخذت من رسم الأشخاص منهجاً لها كما فعل ديجا ورينوار، وجعلت المناظر الطبيعية (التي هي الأصل في الحركة التأثيرية) بمثابة خلفية للوحاتها، كما نشاهد على الصفحة المقابلة.. في هذه اللوحة الشهيرة التي أسمتها: القراءة في الحديقة Reading in the garden، ولنتأمل لمساتها التأثيرية المتألقة من حول القارئة الحسناء، واستخداماتها الواعية للألوان المتقابلة كالأحمر والأخضر والأبيض والأسود.. إنها نموذج حي لفلسفة التأثيريين في تناغم الألوان المبهجة المشعة على سطح اللوحة.



رحلة إلى مدينة عاصرت فجر الإسلام واستقبلت المجاهدين الأوائل :



يكتبها : السيد حجازي

تصوير : أمين بدوي

« في كل مرة يدخل امام أراض افريقية يسارع أهلها لاعتناق الاسلام إتقاء لكل خطر . لكن حالما ينسحب الإمام يرتدون . ويعودون إلى غيبهم . لذلك فإن من رأيي أيها المسلمون أن نشيد مدينة تكون قلعة لجيوش الاسلام حتى آخر الزمان »..

كانت هذه هي الكلمات التي أوردها بعض المؤرخين الأكثر موضوعية ، والتي خاطب بها عقبة بن نافع جيوشه ، في سنة ٦٧١ بعد الميلاد ، معلناً إنشاء أول مدينة إسلامية بالمغرب ، هي « القيروان » والتي تبهر الزائر إليها بفنون العمارة الاسلامية . وبما تحتويه من تحصينات ودفاعات عسكرية ، هي بمنطق ذلك الزمان وكل زمان دليل على الحنكة والقدرة وبعد النظر..

وما أن نزلنا من السيارة التي أقلتنا من تونس العاصمة إلى « القيروان » ودخلنا من سورها القديم ، حتى احتوانا التاريخ بكل ما يحمل من أسرار وعلامات انبهار . فمنذ ثلاثة عشر قرناً من الزمان كانت هذه المدينة حية ، قوية ، متوثبة ، بكل قدراتها القتالية العالية . كما كانت مكاناً تفوح منه روائح الايمان الصادق ، وتنطلق منه إبداعات الفن والشعر ، ويخرج منه أكبر الفقهاء ، وأرق وأظرف الشعراء ..

وها نحن منذ اللحظة الأولى لدخولنا المدينة القديمة نسترجع كل هذه الصور الحية ، والمضيئة ونعيش تاريخها منذ ولادته الأولى ..

في تلك اللحظات التي خاطب فيها عقبة بن نافع صاحب الرسول جيوشه ، كان قد أوقف فرسانه بمنحدر من الأرض ، تختلط فيه الأحجار بالأعشاب البرية ، ويأوى مختلف الحيوانات المفترسة ..

القيروان كما تبدو في الصورة بمبانيها المميزة والعتيقة

ما هي الدلائل ؟

وتأتيني هذه المعلومة في بداية الجولة داخل المدينة على لسان الدليل السياحي العجوز «عم محمد» الذي يتقن الفرنسية كأهلها . ويحاول أن يوصل إلينا المعلومات بعربية فصحى تختلط بلهجة تونسية محلية ، معتذرا أحيانا ، مكررا في أكثر الأحيان ..

وأسأله أنا في البداية :

وماهي الدلائل التي تشير الى وقوف عقبة بن نافع في هذا المنحدر بالذات ؟ ..

ويجيبني بسرعة وكأنما السؤال من الأسئلة المطروحة دائما :

ــ إن ذلك مؤكد حسب وصف قدماء الرحالة ..

ويأخذنا إلى ذلك المنحدر ..

لقد كان يقع في منتصف الطريق بين السواحل الشرقية تحت سيطرة البيزنطيين ، وفيه تمكن البربر من تجميع قواتهم لمواجهة الفاتح عقبة بن نافع ..

وكان عقبة قد أمر بمقارعة العدو دون مهادنة ، وأعد قواته إعداداً نفسياً قوياً ..

وفي هذا المجال تنطلق روايات عديدة ..

فعندما تم العثور على كأس ذهبي مدفون بالأرض ، روج أن هذا الكأس فقد بمكة ، وعندما تعثر الفرس الذي يركبه القائد وانفجرت بالمكان عين ماء ، قال القوم إنها بمثابة بئر مباركة ، تحمل الخير للناس ..

هنا تظهر بلاغة عقبة بن نافع وقدرته على شرح كثير من الأمور لجنوده ، والقيام بعملية الشحن المعنوي ، الذي يزيد من حماسة الرجال ، وقدراتهم الفائقة على القتال ، وتحقيق النصر على العدو ..

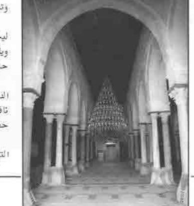
فقد اعتلى القائد مكاناً مرتفعاً بالمنحدر ، ليخطب في الحيوانات الموجودة في المنطقة ، ويأمر الأنواع المفترسة منها بأن تغادر مكانها ، حتى يستريح القادمون الجدد ..

ويجمع المؤرخون ــ كما يقول محدثي الدليل السياحي ــ على أن اختيار عقبة بن نافع لهذا المكان لاقامة المدينة ، كان موفقاً إلى حد كبير ، من الناحية الاستراتيجية ..

فالمدينة تبعد عن موطن القبائل البربرية التي كانت تتخذ الجبال موطناً لها ، كما أنها

مكان اختيار عقبة بن نافع مكان إقامتها موفقاً إلى حد كبير من الناحية الاستراتيجية

يبرز فن العمارة الاسلامية في كل مساجد المدينة



القيروان

تبعد عن الشواطىء ، حيث كان الأسطول البيزنطي الجبار ، ينشر الفوضى والرعب ..

مركز اشعاع حضاري

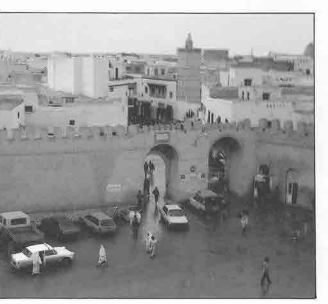
وتحولت القيروان بعد ذلك من مجرد معسكر للجيوش الفاتحة ، الى أن أصبحت أكبر مركز اشعاع حضاري بالمغرب ..

صحيح أن هذا التطور قد أصابه نوع من الركود خلال ثورة الخوارج ، الذين نهبوا القيروان من سنة ٧٥٨ الى ٧٦١ م لكن عادت الصورة الى سالف عهدها بعد ذلك ..



المآذن المميزة تطالعك في كل مكان

طراز من المباني العتيقة في القيروان



الدخول إلى المدينة من خلال أحد أبوابها السبعة عشر

الله أكبر: تتردد فوق مساجد المدينة

وكان ذلك ملموساً بوجه خاص في عهد الأمراء الأغالبة، حوالي سنة ٨٠٠ ميلادية..

لقد شيد هؤلاء الأمراء بالفعل أعظم معالمها التي تعد اليوم مفخرة القيروان، ومصدر اعتزازها بنفسها، كمدينة لها تاريخ حافل، ومضيء.. ولذلك يمكن القول إن القيروان قد عاشت عصرها الذهبي أيام الدولة الأغلبية التي أسسها ابراهيم بن الأغلب في القرن التاسع الميلادي..

فقد استطاع أقطاب هذه الدولة الحصول على نوع من الاستقلال الموسع عن مركز الخلافة في بغداد، وفي الوقت نفسه استطاعوا أن يطوروا مختلف النشاطات فيها...

وهكذا جعلوا من القيروان مدينة تنافس بما وصلت إليه أكبر المراكز الحضارية في حوض البحر الأبيض المتوسط..

في أيامهم شهد الجامع الأكبر عدة تعديلات وتطويرات، وتحسينات، لم تتوقف إلا سنة ١٩٧٠ بعد الانتهاء من أعمال ترميمه الكبيرة والشاملة..

وللمساجد بالذات في القيروان مكانة خاصة ومميزة..

وأينما تجولت فيها فسوف تصادفك باستمرار هذه المساجد، وبالذات الصغيرة ومقامات الأولياء..

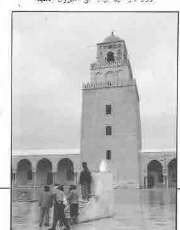
من هذه المقامات مثلاً مقام سيدي الصحبي بصومعته الأنيقة ورواقه الرائع، وزخارفه البديعة..

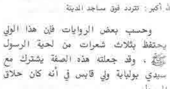


■ كيف تحولت القيروان من مجرد معسكر للجيوش الفاتحة إلى أكبر مركز إشعاع حضاري بالمغرب؟

■ أسوار حامية وصناعات تقليدية، وتمسك واضح بالدين، ونساء يرتدين الأزياء المحتشمة

الزوار يتوافدون يوميا على القيروان العتيقة





وحسب بعض الروايات فإن هذا الولي يحتفظ بثلاث شعرات من لحية الرسول ﷺ، وقد جعلته هذه الصفة يشترك مع سيدي بولبابة ولي قابس في أنه كان حلاق الرسول..

أما مقام سيدي عمر عبادة فقد شيده أحد الحدادين، فصنع له أدوات من المعدن كبيرة الحجم، على هيئة «مراسي»..

وندخل أحد المساجد الأخرى المميزة..

إنه مسجد «الأبواب الثلاثة»، وهو يعتبر في الواقع أحد أهم المعالم القديمة بالقيروان، ولهذا المسجد واجهة رائعة زينت بالخط العربي وبزخارف بارزة..

وفي مقام سيدي عبيد الغرياني قضينا وقتاً طويلاً..

وصاحبه أيضاً رجل صالح عاش خلال القرن الثالث عشر، ويتميز في الواقع بجمال سقفه المزركش، ورواقه ذي الطابع العربي، بسراديبه المرفوعة على أعمدة بيزنطية..

التمسك بالدين

وكل هذا الاهتمام بإقامة المساجد، والحرص على تجديدها، يعكس ارتباط أهل القيروان بالدين الاسلامي، وحرصهم على التمسك بكل تعاليمه.

وفي يوم المولد النبوي الشريف بالذات يحتفلون احتفالاً مميزاً، وخاصاً، فتلبس

القيروان



سور المدينة من الأسوار التاريخية المعروفة



آثار تشهد بعراقة المدينة وماضيها العريق

القيروان أبهى حللها ، وتضاء الفوانيس ليلاً ونهاراً ، ويحضر الزوار إليها من كل مكان ، من تونس ، ومن غيرها ..

وتعمر المساجد دائماً بالمصلين ، ومرتلي القرآن الكريم من الصغار ، والكبار ..

ويصل عدد هذه المساجد في القيروان ، كما علمت ، حوالي خمسين مسجداً ، موزعة على أنحاء المدينة ، ويحرص أهل القيروان على تأدية الصلاة جماعة ، في كل الأوقات ، وتنطلق أصوات المؤذنين من هذه المساجد ، مرددة في وقت واحد : الله أكبر ..

وفي الجامع الكبير صلينا العصر جماعة .. وبعد الصلاة وقفنا مشدوهين أمام عمارته المميزة ..

لقد روعي فيه الحرص على الطابع الاسلامي ، وتمثيل مختلف الديار الإسلامية ..

إن أبواب المسجد السبعة عشر ، شيدت من خشب أرز لبنان ، وكل منها متميز برسوم بنقوش ورسوم مختلفة ــ عن الآخر ، أما خشب « المنبر » فزين بآيات كريمة ونقوش إسلامية أحضرت من الشام ، وأحجار مزخرفة من العراق ، وثريات من المغرب (كانت تضاء بالزيت والآن تضاء بالكهرباء) ..

وأما مئات الأعمدة الرخامية داخل المسجد ، فهي كما هو مسجل ، من غنائم الحرب مع الرومان ..

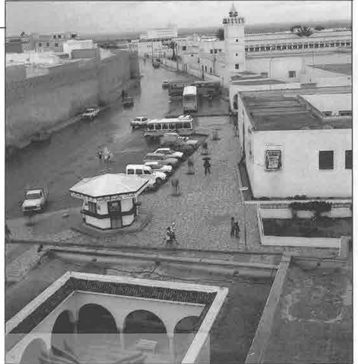
القيروان بكل هذه الصفات والمميزات كانت مصدر الهام لعدد كبير من مشاهير الرسامين في الشرق والغرب ..

وقد ظهر ذلك في الكثير من أعمالهم وابداعاتهم ..

القيروان بكل هذه الصفات والمميزات شحذت أبناءها للعمل والبناء ، ولم تدفعهم للانطواء والزهو ..

إن المدينة العتيقة عرفت فجر الإسلام ، واستقبلت المجاهدين الأوائل الذين عايشوا الرسول ..

ولكن برغم كل هذا الفخر والاعتزاز بماضي المدينة وتاريخها ، فإن أهلها مندفعون في



المدينة تحكي في كل جوانبها فصولاً حية من التاريخ

تطويرها ، وفي ممارسة كثير من الأعمال اليدوية والفنية الدقيقة ، ويغلب على طابعهم السماحة ، والتقوى ، والرضا ، والهدوء ..

فالنقاشون والنساجون والسراجون يبعثون حيوية واضحة في أسواق المدينة العتيقة .. وتبرز صناعة « الزربية » بالذات ، لتضيف سبباً آخر من أسباب شهرة القيروان ، إلى جانب الجامع الكبير ، وغيره من المعالم ..

وفي بهو كل بيت قيرواني تأخذ البنات والسيدات في انتاج « الزرابي » المميزة ، وهي عبارة عن ملابس من الصوف الرفيع ، والذي تظهر ألوانه دقيقة ، وجميلة ، ومزركشة بشكل بديع ، يظل وقفاً على أهل قيروان وحدهم ..

وهناك صناعات تقليدية أخرى عديدة ، مثل الأواني النحاسية ، والأسرجة المزخرفة ، ونقش الحديد ، وصناعة السجاد ، والخياطة الرفيعة للبرنس ، والجبة الشهيرة بتونس وكافة بلاد المغرب ..

الملابس التقليدية

وبهذه المناسبة فإن أهل قيروان ، وبخاصة كبار السن منهم ، ما زالوا متمسكين بالملابس التقليدية ..

■ خمسون مسجداً يبرز بينها المسجد الكبير بعمارته الإسلامية وأبوابه السبعة عشر

■ كانت القيروان مصدر إلهام لعدد كبير من مشاهير الرسامين العالميين

إن النساء بالذات يرتدين الجبة والحايك وهو عبارة عن عباءة نسائية من الصوف الجيد ، يميل لونها في العادة إلى اللون الأصفر ..

وفي استطاعتك وأنت تتجول في شوارع المدينة القديمة وطرقاتها ، أن ترتشف القهوة العربية في أي مكان ، فالكل يرحب بك ، ويدعوك لزيارته .. وتبدو القهوة ذات مذاق خاص ، فهي معطرة بماء الورد أو الزهر ..

وسوف يستوقفك جمع حول بئر ، يطوف بها جمل ، يقوم حولها بحركة مستمرة وعيناه معصوبتان ، ومع هذه الحركة يستخرج ماء صافية ، يعتقد أهالي القيروان أنها قادمة بعد رحلة طويلة ..

ولابد أن يسأل الزائر للقيروان القديمة مثلما سألت عن هذا السور الكبير الذي يحيط بها ..

إنه مشيد بطريقة هندسية ومعمارية تدل على المهارة والتفوق ، وبه عدة فتحات هي بمثابة أبواب للمدينة ..

هذا السور الذي يعتبر في الواقع عدة أسوار شيدها المعز لدين الله الفاطمي سنة ١٠٥٢ م ، ورممها الحسينيون في القرن الثامن عشر ، وهي في الواقع كانت تعطي للمدينة في القرون الماضية حضوراً قوياً ، حملها إلى التاريخ ، وميزها عن كثير من المدن ذات الحضارات الخاصة ..

ودخلنا من أحد أبواب السور ، لنغادر المدينة العتيقة ..

وكان باب تونس ..

وقبل أن نصل إلى نهايته شاهدنا « الفسقية الأغلبية » ، وهي عبارة عن حوض كبير ، شيده الأمير أبو ابراهيم في القرن التاسع الميلادي ، وبجواره حوض مضلع الشكل ، يبلغ طوله ثمانية وثلاثين متراً .. وهذه الفسقية تعد تحفة جمالية ومعمارية تحمل الكثير من المواصفات الفنية ..

ونترك القيروان القديمة ، العتيقة ، ونخرج من أسوارها التي شهدت تاريخاً حافلاً ، لننطلق إلى القيروان الحديثة .. المدينة العصرية بكل ما فيها من تقدم عمراني وتجاري وثقافي ملحوظ ..

وهكذا فإن المحافظة على القيروان التاريخية كما هي ، مع تطويرها والحفاظ على كل مقوماتها وأجوائها ، هو عمل يحسب للسياحة في تونس ، ويدل على نظرة شمولية ، تحمل الاعتزاز بنفائس الماضي ، والحرص عليها ، بنفس القدر الذي تعتز فيه بالحاضر ، وتعمل من أجله على تطوير المستقبل ..

وهكذا أيضاً فقد تركت زيارة القيروان العتيقة في النفس أثراً لا ينسى ، فقد كان الاحساس بالفخر بماضي أمتنا وتفوقها ، ولا يزال ، هو المسيطر علينا ، ويتجدد باستمرار ، لنأخذ منه الدفعة التي تقود إلى استلهام بعض ما كان ، من أجل أن نكون ..

السيد حجازي

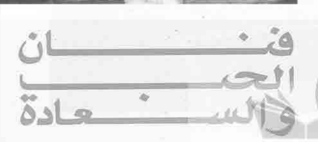
أنا.. والقرية



رسالة لندن

من : سيسيل نجيب

شاجال





الرسام.. إلى القمر



مارك شاجال



تاجر المواشي

عندما قارب معرض الفنان مارك شاجال في لندن (الرويال أكاديمي) على الانتهاء ، جاء خبر وفاته عن سبعة وتسعين عاماً بمدينة نيس بفرنسا ، مما دعا إدارة صالة « الرويال أكاديمي » أن تمد العرض لمدة ثلاثة أيام أخرى تكريماً لفنه العظيم .

لقد أطلق على شاجال لقب فنان الحب والسعادة ، بعد أن أثرى العالم بأيقوناته ولوحاته ورسوماته . ولتفهم أعمال هذا الفنان علينا معرفة عالمه الخاص ، وعصره وحياته ، لأن ذلك كله انعكس على أعماله المتنوعة .

ولد الفنان عام ١٨٨٧ ميلادية من عائلة فقيرة بلا جذور فنية ، بمدينة فيشيك ، وكان أكبر اخوته الثمانية ، ودرس الفن بالجمعية الامبراطورية لحماية الفنون « بمدينة بطرسبرج ، وتتلمذ على الفنان ليون باسكيت .

التقى بزوجته عام ١٩٠٩ وشعر منذ اللحظة الأولى أنها خلقت له ، إلا أن طموحها الفني واختلاف الوضع الاجتماعي أخر زواجهما حتى عام ١٩١٥ . كانت بيلا امرأة متحررة فازت بميدالية فنية ، وهي تدرس وتعيش بمفردها في موسكو العاصمة ، كان طموحها أن تكون ممثلة ، وكانت بذكائها وجمالها ، الإلهام الفني لشاجال على مدى تسعة وعشرين عاماً حتى توفيت عام ١٩٤٤ .

كان هو قد فرّ إلى باريس عام ١٩١٠ م ليلتحق بالمدارس الفنية هناك ، ولينهل من عاصمة الفنون ، ثم إلى برلين عام ١٩١٤ ليشرف على أول معرض له ، وتندلع الحرب العالمية الأولى ، فيعود عام ١٩١٥ ليقابل خطيبته ، فيجند كموظف بسيط بوزارة الاقتصاد الحرب بمدينة بطرسبرج ، ولا تظهر لوحاته الأولى التي رسمها في هذه الفترة تأثير الحرب على البلد والناس ، وإنما يرسم القرية مسقط رأسه بشخصياتها . ونرى هذا متجسداً في لوحته الشهيرة « الميت » التي رسمها عام ١٩٠٨ ، حين كان لا يزال تلميذاً للفنان ليون باسكيت الذي كانت مدرسته رغم الجمالية والتكلف ، تخفق فيها أنفاس أوربا ، ومنها عرف سيزان ومانيه ومونيه وماتيس ، في نفس الوقت الذي أصبح فيه واعياً بالرواد الطليعيين الجدد في روسيا ، الذين قابلت اهتماماتهم اهتماماته والذين رغم تمركزهم في موسكو كانوا يعارضون المناخ الذي ترعرع فيه باكسيت ببدائية وشعبية مقصودة ، مستندين إلى الايقونات الروسية والتماثيل والمنحوتات الفولكلورية .

فاللوحة الأولى من أعمال شاجال التي تسجل ظهور موهبة خارقة ، تبدو من وحي



بيلا - بالياقة البيضاء



فنان الحب والسعادة

ذكرياته الخاصة . فلم يكن من الغريب أن يهرب الناس الى سطوح منازلهم في حالات الخطر أو السعادة ، أو كما نرى في حديثه في ذكرياته ، من عمه الذي كان يعزف على قيثارته كالحذاء ... هنا نرى تفسير الحذاء الطويل المعلق من القفاز ، رسمه كفتى صغير يواجه الموت : « صباح يوم قبل طلوع الفجر انطلقت الصرخات تملأ الشارع ، واستطعت تمييز امرأة تجري وحدها في الشارع المهجور ، كانت تلوح بذراعيها تشهق وتستحلف السكان أن يهبوا لانقاذ زوجها . أخذ الناس المذهولون يجرون من كل صوب نحو الميت ، كان الميت مستلقياً على الأرض يلفه السكون ، وتضيء وجهه ست شموع ..

هكذا كتب شاجال في مذكراته عن لوحته الأولى .



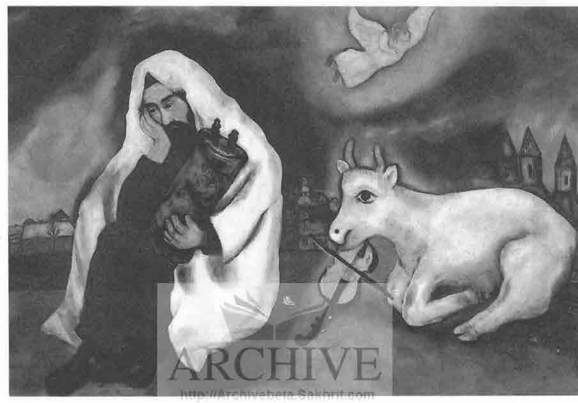
أنا والقرية

الغرور

عيد الميلاد

وفي عام ١٩١٥ رسم مارك شاجال لوحته الشهيرة « عيد الميلاد » ، تصور العالم الخارجي الذي كان شاجال ومحبوبته زوجته بيلا يعيشان فيه .

يتحدث شاجال عن زوجته فيقول : « ما علّي سوى أن أفتح الباب ، يهب النسيم الأزرق والحب والزهور معها » . وتحكي بيلا قصة هذه اللوحة في مذكراتها التي كتبتها بعد ٣٥ عاما من أول لقاء بينهما ، وتذكر كيف استطاعت أن تكتشف يوم عيد ميلاده ، فزارته في ذلك اليوم تحمل له الزهور والمأكولات ، في عدد من الحقائب اليدوية المطرزة ، فوضعت هذه الحقائب في الغرفة في أماكن متعددة ، هنا أخذ شاجال يرسم ، فكانت المحصلة مثيرة .. دفقات من الأحمر والأزرق والأبيض والأسود . ولا يهم أن تظهر



انسان وحيد

هذه اللوحة عام ١٩١٥ . رغم أن هذا الحادث الصغير تم عام ١٩٠٩ . فالزمن هنا ليس له قيمة . العمل الفني هو المعجزة الحقيقية .

توفيت بيلا عام ١٩٤٤ ، لكنها تمثلت في لوحاته العديدة التي رسمها بعد ذلك . فالواقع أن بيلا هي كل فتاة جميلة تظهر في كل لوحة من لوحاته . قال عنها في مذكراته . « حين أنظر إليك أشعر كأنك إحدى لوحاتي » .

عين شاجال مسئولاً عن الفنون في بلدته فيسبك . فأسس أكاديمية فيسبك في يناير عام ١٩١٩ . لكنه اختلف مع البيروقراطية ، فانتقل إلى موسكو يرسم لوحاته فقط دون أن يضطلع بأي مسئولية . لكنه لم يستطع الاستمرار فهاجر من روسيا الى برلين عام ١٩٢٢ . استأنف هناك حياته الفنية . لوحات ورسوم على حوائط زجاج كاتدرائية نوتردام . وجامعة نيس بفرنسا . وعاد ليزور بلده عام ١٩٧٣ ، بعد أن نزح منها منذ ٥٣ عاماً . والواقع أن شاجال رغم خروجه وحياته في الغرب . ظل متأثراً بروسيته . وكان من الغريب أنه لم يطرق أحداث بلاده أيام شبابه . مهما كان رأيه فيها . إلا عام ١٩٣٧ ، عندما رسم لوحته : « الثورة » التي جاءت بعد طول انتظار عملاً ضخماً طموحاً . يقول النقاد ان مشاعره المتضاربة تجاه تلك الأحداث قد تجلت في لوحته هذه ، حتى أنه اختار بعد ذلك أن يقسمها الى ثلاثة أجزاء . بينما يرى آخرون أن السبب هو في طموح العمل الفني وضخامته .

تزوج شاجال مرة أخرى عام ١٩٥٢ بعد أن بلغ الخامسة والستين . لكن زوجته الثانية فالنتينا بروديسكى والتى كانت تشبه بيللا — زوجته الأولى — كانت تلعب دور مدير أعماله .

من لوحاته الأخيرة « لوحة السيرك الكبير » التى رسمها عام ١٩٦٨ .

كان شاجال مثله مثل فنانى القرن العشرين الكبار مولعاً بالسيرك وفنونه . يقول : « بالنسبة لى هناك شيء سحرى في السيرك . هو عالم فى حد ذاته . أقوى صرخة فى بحث الانسان عن المتعة والترفيه أو السعادة التى كثيراً ما تأخذ شكل أرقى الاشعار »

إن قدرة السيرك على خلق مشاهد تأخذ بلب « الجماهير » شدت شاجال دائماً ، فترددت كثيراً فى لوحاته . وقد بدأ ذلك حين زار السيرك لينتج بعض المطبوعات عنه فى عام ١٩٥٦ ، بعد أن دعي لحضور تصوير فيلم عن السيرك . منذ ذلك الحين تكرر ظهور مشاهد من السيرك في أعماله . لكن لوحة « السيرك الكبير » اكثرها تأثيراً . فالايحاء الجمالى والفلسفى يظهر هنا بجلاء . فإلى جانب الاسود والأبيض ، هناك اللونان الأخضر والازرق اللذان يسودان اللوحة .

الغريب فى الأمر أن معرضه الأخير فى لندن ، والذى توفى فى آخر أيامه ، كان اكبر وأشمل معرض له . جاء بعد معرض مماثل فى الولايات المتحدة الامريكية .

سيسيل نجيب

لغة الطير و الحيوان

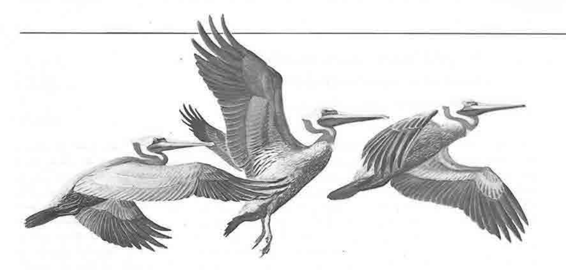
للطيور عدة وسائل صوتية للتفاهم والتعارف

بقلم : الدكتور محمد رشاد الطوبي



يحتوي القرآن الكريم على كثير من الحكم والأحاديث التي تمس كل كبيرة وصغيرة في حياتنا اليومية ، كما يحتوي على كثير من البيانات والمعلومات العلمية أو الطبية التي لم يستطع الانسان إدراكها أو التعرف على مدلولاتها إلا في العصر الحديث .

ولا يزال العلماء منذ هذا التاريخ إلى يومنا هذا يعثرون بين دفتي القرآن الكريم على حقائق علمية مثيرة لم يكن من المستطاع التعرف عليها من قبل ، ومنها على سبيل المثال موضوع دوران الأرض ، والجبال التي ترتفع فوق سطحها ويحسبها الانسان ساكنة « وهي تمر مر السحاب » ، وحركة الشمس التي « تجري لمستقر لها » ، ودورة الماء في الطبيعة بعناصرها الأساسية ، وهي الرياح والسحب والأمطار ، وعن أهمية الماء الذي يهبط من السماء فيحيي « الأرض بعد موتها » ، وتنتج « من كل زوج بهيج » .



■ قصص القرآن حول لغة النمل ولغة الطيور التي قد تكون على شكل أصوات أوصيحات أو تغريد

■ هذه اللغة هي وسيلة انتقال المعلومات والمشاعر والاحتياجات الغذائية لتلك الكائنات

ولما كان هذا الكتاب الكريم لم يترك « صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » ، فإننا نجد بين طياته أيضاً ما يشير بشكل واضح الى « لغة الطير والحيوان » ، وهو ما لم يستطع العلماء إدراكه والتحقق منه إلا في وقت قريب ، وذلك بعد عمل العديد من التجارب والمشاهدات التي تثبت صحة هذا القول .

ومن القصص الطريقة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم عن تلك اللغات قصة النملة التي شاهدت سيدنا سليمان وجُنُودَه ، وهم يجتازون الوادي الذي تعيش فيه ، فما كان منها إلا أن طلبت من زميلاتها الدخول في منازلهم الموجودة تحت سطح الأرض حتى لا تدوسهم الأقدام ، وهو ما يظهر بوضوح كامل في الآية الكريمة التالية :

(حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) صدق الله العظيم

ولما كان سيدنا سليمان عليه السلام على معرفة بلغة الطيور والدواب وغيرها ، فقد فهم قول النملة وتحذيرها لبقية النمل ، ولم يكن منه بعد ذلك إلا أن « تبسم ضاحكاً من قولها » كما تستطرد بقية الآيات .

وهناك أيضاً قصة أخرى تتعلق بتلك اللغات وهي قصة الهدهد فقد كان سيدنا سليمان عليه السلام يتفقد الطيور والحيوانات الأخرى فلم يجد الهدهد بينهم ، وتساءل عن تخلفه كما يتضح من الآية الكريمة التالية :

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ) صدق الله العظيم .

وما هي إلا فترة وجيزة حتى حضر الهدهد ، معتذراً عما بدر منه من التأخر في الحضور ، وموضحاً أن السبب في هذا التأخر كان لأمر عظيم ، فقد شاهد وهو يطير في جو السماء قوماً يعبدون الشمس من دون الله ، وتتولى أمرهم سيدة لها « عرش عظيم » ، وكانت تلك السيدة هي بلقيس ملكة سبأ ، فما كان من سيدنا سليمان إلا أن أمر الهدهد بأن يحمل رسالة يلقيها عليها وعلى أتباعها من القوم الظالمين ، داعياً لهم جميعاً بالهدى والاسلام في قوله الواضح الصريح :

(أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) صدق الله العظيم

وبقية القصة معروفة لا داعي للاسترسال فيها ، وما يهمنا في هذا المجال هو الحديث الذي دار بين سيدنا سليمان والهدهد ، وكان الهدهد بطبيعة الحال يتكلم بلغة الطيور ، وهو ما يوضحه لنا القرآن الكريم على لسان سيدنا سليمان عليه السلام في الآية التالية :

(وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ)

ما المقصود باللغة ؟

وواضح أن منطق الطير هو لغة الطيور . وبذلك يكون قد ورد في القرآن الكريم ما يفيد بأن هناك لغة للنمل ولغة أخرى للطيور ، يستطيع أفراد كل منها أن يتعرف على معناها ، ويستجيب لمدلولاتها .

ولا بد لنا قبل الدخول في تفصيلات أخرى

لغة الطير و الحيوان

■ عالم ألماني يحل الرموز في لغة النحل، وينبهنا إلى حركاتها الايقاعية التي سماها «رقص النحل»!

أن نتعرف على المقصود بكلمة «لغة» كما هو وارد في المعاجم. فقد جاء في المعجم الوسيط على سبيل المثال أن اللغة «هي أصوات يُعَبِّرُ بها كلُّ قوم عن أغراضهم»، وجاء في معجم اكسفورد الكبير أن «اللغة هي طريقة التعبير بالكلمات المسموعة».

يتضح من ذلك أن اللغة الحقيقية تعتمد على عنصرين أساسيين. وهما صدور الأصوات، ثم سماع هذه الأصوات. وفي الانسان يتحقق العنصر الأول باهتزاز «الأحبال الصوتية» الموجودة داخل الحنجرة، ويقوم اللسان الموجود في أفواهنا بتكييف تلك الأصوات، عند مرورها عبر تجويف الفم الى الخارج. أما سماع هذه الأصوات والاستدلال على مفهومها فهو من وظائف الأذن، وهي عضو السمع عند الانسان وغيره من الطيور والحيوانات الأخرى.

ولذلك فإن الطفل الصغير المصاب بالصَمم، لا يستطيع سماع الأصوات أو الكلمات التي نتبادلها فيما بيننا، ولذلك فإنه يصبح فيما بعد من البُكْم الذين لا يتكلمون. ولست في حاجة إلى القول بأن الانسان يتعلم في طفولته جميع الكلمات التي ينطق بها كل من حوله من البشر، أي أنه يتعلم اللغة تعليماً، ولا يولد على معرفة بها على الاطلاق. ونستطيع أن نتلمس العلاقة بين الصَمم والبَكَم في كثير من الآيات القرآنية الكريمة، ومنها على سبيل المثال:

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) صدق الله العظيم

والواقع أن البُكْمَ أو الخُرْسَ، لهم لغة خاصة يتفاهمون بها. وهي لا تعتمد إطلاقاً على الأصوات، ولذلك فقد قيل في تعريفها أنها «لغة الأصابع»، وجاء في قاموس اكسفورد أن «لغة الأصابع» عبارة عن «التفاهم برموز متفق عليها مُسْبَقاً بواسطة أصابع اليدين». ومن هذا المنطلق نستطيع أن ندرك في ايجاز شديد المقصود بلغة «الطير والحيوان»، فهي تختلف في مفهومها العلمي اختلافات واضحة عن لغة الانسان، كما أنها تعتمد على كثير من الوسائل المتباينة. وتختلف تلك الوسائل في طبيعتها من نوع الى آخر. فقد تكون على شكل أصوات أو صيحات أو تغريد.

كما أنها قد لا تكون صوتية على الاطلاق، بل تستخدم فيها بعض الحواس كالشم واللمس والابصار وغيرها: كما أنها قد تكون في بعض الأحيان «إشارة ضوئية»، يطلقها بعض الأفراد، ليستدل منها الافراد الآخرون على أماكن تواجدها. ويكون صدورها عن مجموعة الحيوانات التي يطلق عليها اسم «الحيوانات المضيئة». وأيا كانت وسيلة هذا التفاهم فقد اعتبرها العلماء المختصون لغة لهذه الحيوانات أو الطيور، طالما أنها تستخدم في نقل المعلومات والمشاعر والاحتياجات الغذائية أو الجنسية من فرد الى آخر.

أهمية الاصوات

ويحتوي عالم الحيوان بصفة عامة وعالم الطيور بصفة خاصة على عدد كبير من الأنواع. يستطيع أفراد كل منها أن يتفاهموا فيما بينهم بوسيلة أو بأخرى من الوسائل التي سبق ذكرها. وقد استطاع العلماء المختصون بدراسة «سلوك الحيوان»، أن يوضحوا لنا أن التفاهم الذي يتم بين أفراد النوع الواحد، قد يكون بقصد التحذير من أخطار تلوح في الأفق، أو التنبيه الى وجود مصادر غذائية يتم اكتشافها، أو للتجمع في قطيع واحد، أو سرب واحد، أو لبقاء الأسرة متماسكة حتى لا يضل صغارها في مواسم التكاثر، أو لغير ذلك من الأسباب.

ومن المعروف ان للطيور عدة وسائل صوتية، يتم احداثها للتفاهم والتعارف والتآلف، ومنها على سبيل المثال هديل الحمام والييمام، وتغريد البلابل والكروان، وصيحات الطيور البحرية عندما يشاهد البعض منها سرباً من الأسماك عند سطح الماء، وكذلك صرخات الصقور والنسور وغيرها من جوارح الطير. ولكل منها دلالات خاصة ومعان محددة من تلك التي سبقت الاشارة إليها.

ولا شك أن للأصوات أهمية فائقة في تجمعات «الطيور المهاجرة». وتعيش تلك الطيور طبيعياً في الأقاليم الشمالية الباردة، من نصف الكرة الشمالي، في كل من آسيا وأوربا وأمريكا الشمالية، وهي في الواقع من سكان تلك المناطق، ولكن عند حلول فصل الشتاء، تشتد برودة الجو، ويتساقط الجليد على سطح الأرض، ويقل الغذاء تدريجياً حتى لا يكاد يوجد على الاطلاق.

ولا تجد تلك الطيور أمامها وسيلة للعيش، سوى القيام «بهجرة جماعية» نحو الجنوب، حيث يكون الجو أكثر دفئاً، والغذاء أكثر وفرة وتنوعاً. وقد لاحظ علماء الطيور، أنها تُحدِثُ في تلك الفترة من تاريخ حياتها، كثيراً من الاشارات الصوتية التي تؤدي في النهاية، الى تكوين أسراب ضخمة مستعدة للهجرة نحو الجنوب.

ويتكون كل واحد من تلك الأسراب من أعداد ضخمة من الأفراد من نوع واحد فقط، ويكون لكل منها مرشد أو دليل من أقوى تلك الطيور وأعظمها شأناً، حيث يسير في مقدمة السرب وكأنه رمز للصمود، والكفاح. ويقطع البعض من تلك الأسراب المهاجرة آلافا من الكيلومترات في تلك الرحلة الجماعية. ولما كانت هناك أنواع من الطيور لا تهاجر إلا ليلاً، فيكون من الضروري إحداث أصوات مميزة، ليبقى السرب متماسكاً في طيرانه، وخصوصاً في الليالي الحالكة الظلام، التي لا يجدي فيها الابصار. وتكون تلك الأصوات مرشداً هاماً لمختلف الأفراد. وعلى وجه الخصوص تلك الأفراد التي تتخلف أو تنحرف عن مسار السرب أثناء طيرانه الليلي.

حنجرة الطيور والأصوات الحادة

والأصوات التي تصدرها الطيور على

الهدهد يتكلم بطبيعة الحال لغة الطيور



لغة النحل تعتمد اساسا على حاسة الشم

اختلاف أنواعها ، سواء كانت من الطيور الأوابد (وهي التي لا تغادر أوطانها صيفاً أو شتاء) ، أو من الطيور المهاجرة ، يتم انطلاقها من الحنجرة ، وهي تختلف اختلافاً واضحاً عن حنجرة الانسان أو أي حيوان آخر ، وذلك لأن حنجرة الانسان تقع في مقدمة القصبة الهوائية ، بعد تجويف الفم مباشرة ، أما حنجرة الطيور فتقع في مؤخرة القصبة الهوائية ، بالقرب من الرئتين ، ولذلك تسمى « الحنجرة السفلية » . ونظراً لوجودها في هذا المكان العميق داخل الصدر ، فإن الأصوات التي تصدرها ، تمر قبل انطلاقها إلى الخارج ، عبر القصبة الهوائية بأكملها . وهو ما يجعلها أكثر قوة وبهاء في معظم الحالات . وخصوصاً عند الطيور المغردة كما هو معروف ومألوف .

وبالاضافة إلى الطيور توجد حيوانات أخرى عديدة تعتمد على اصدار الأصوات في حياتها اليومية ، ومنها الخفافيش (الوطاويط) على سبيل المثال ، والخفافيش ثدييات ليلية ، فهي تختبىء في جحورها أثناء النهار ، فإذا أقبل الليل وأظلمت السماء خرجت من مخابئها سعياً وراء الغذاء ، وقد لاحظ العلماء منذ وقت طويل أن للخفافيش قدرة فائقة على الطيران السريع في الظلام الحالك ، دون أن تصطدم بالأشجار أو الجدران أو الحواجز الأخرى التي تعترض طريقها أثناء هذا الطيران السريع ، ولما كان الابصار لا يجدي في مثل هذا الظلام الحالك ، فقد بدأ العلماء في البحث عن الحاسة التي تعتمد عليها الخفافيش في تحركاتها الليلية السريعة ، وكان من أوائل هؤلاء العلماء وأكثرهم شهرة في هذا المجال العالم الايطالي « سبالنزاني » : فقد قام بعديد من التجارب ، كان البعض منها يتسم بالقسوة الشديدة مما جعله فيما بعد موضعاً للنقد من جمهرة العلماء ، فقد كان يفقأ عيون الخفافيش حتى لا تبصر على الاطلاق ، ثم يتركها تطير في غرفة متسعة ، مُدّت بها الأحبال في مختلف الاتجاهات ، وقد علقت بها أجراس صغيرة ، حتى إذا لامستها الخفافيش أثناء طيرانها دقت تلك الأجراس ، ثم أظلم الغرفة اظلاما تاما ، وقبع في ركن منها دون حراك ، ليرى ما تفعل الخفافيش العمياء أثناء طيرانها في هذا الظلام ، وقد وجد أنها تطير من مكان إلى مكان داخل الغرفة في مختلف الاتجاهات ، دون أن يدق جرس واحد من تلك الأجراس ، وكانت تقترب من وجهه أحياناً ويحس برفيف أجنحتها دون أن تلمسه أو تصطدم به . وقد عرف فيما بعد أنها تصدر أثناء هذا الطيران بصفة مستمرة أصواتاً جادة « فوق سمعية » (Super — sonic) لا تستطيع الأذن البشرية إدراكها ، وأن هذه الأصوات أو الموجات الصوتية عند اصطدامها بالحواجز تنعكس إلى الاتجاه المضاد فتلتقطه أذن الخفاش ، ويدرك على الفور وجود هذه الحواجز فيتحاشاها ولا يصطدم بها على الاطلاق . وقد استغلت تلك المعلومات الهامة بعد ذلك في عمل « الرادار » .

لغة الحشرات

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الحديث عن « لغة الحشرات » لوجدنا أن أهم البحوث التي أجريت في هذا المجال هي بحوث العالم الألماني « فون فريتش » ، فقد أمضى هذا العالم الكبير سنوات عديدة في عمل التجارب والمشاهدات التي تتيح له التعرف على وسائل الاتصال بين مختلف الأفراد في خلية النحل[1] وذلك لأن نظام العمل داخل تلك الخلية دقيق للغاية ، والتفاهم والانسجام بين أفراد المجموعة الواحدة لا يعادلهما إلا ما يحدث بين المجتماعات البشرية التي يسودها النظام والمحافظة على المصلحة المشتركة لجميع السكان .

وقد استطاع « فون فريتش » بعد تلك الدراسات أن يحل كثيراً من الرموز فيما يتعلق « بلغة النحل » ، وهو يحدثنا بأنها تعتمد أساساً على حاسة الشم ، كما تعتمد على نوع من الحركات الايقاعية التي أطلق عليها اسم « رقص النحل » . فقد وجد على سبيل المثال أن النحلة الشغالة إذا اكتشفت أثناء تجوالها للبحث عن الغذاء إحدى الحدائق أو الحقول المليئة بالزهور ، فإنها تملأ جعبتها من رحيق تلك الزهور وأيضاً من حبوب اللقاح التي تعثر عليها ، ثم تعود بعد ذلك إلى خليتها وقد ملأها الزهو والسرور ، وما أن تدخل الخلية حتى تجد الشغالة الآخرين في انتظارها للتعرف على نتيجة تلك الرحلة الاستكشافية ، وسرعان ما تبدأ النحلة العائدة في ممارسة نوع من الحركات الايقاعية ، التي يفهمها بقية الشغالة ، إذ أنهم يأخذون في هذه الأثناء في ملاحظتها بانتباه شديد ، كما أنهم يتشممون الرائحة التي تنبعث من جسمها ، وهي بطبيعة الحال رائحة الأزهار التي جمعت منها الرحيق ، كما أنها تقوم بعد ذلك بمنح جرعات صغيرة من هذا الرحيق إلى زميلاتها الواحدة بعد الأخرى لتتحقق تماماً أن كلاً منها قد استوعبت تماماً رائحة الأزهار ونوع الرحيق المستمد منها ، وسرعان ما تخرج تلك الشغالة بعد حصولها على تلك المعلومات في أفواج كبيرة متجهة نحو الهدف دون تردد أو ابطاء ، وهناك عديد من الدلالات التي تفسر بوضوح صحة الاستنتاجات التي استخلصها « فون فريتش » فيما يتعلق بلغة النحل والوسائل المتبعة لايصال المعلومات إلى مختلف أفراد الجماعة .

محمد رشاد الطوبي

هامش :

(١) تحتوي خلية النحل على ملكة واحدة وعدد قليل من الذكور وبضعة آلاف من الشغالة التي تقوم بجميع الأعمال داخل الخلية أو خارجها .

الجوكر الفلسطيني

شعر: محمد الظاهر



أُحاورُ أوراقَ البلادِ ، فلا أَجِدْ
عواصمَها إلاّ طريقاً إلى اللغةْ
ولي لغةٌ أُخرى ، نصبتُ موائدي على ملكوتِ الأرضِ ، فليلعبوا على
رهانِ الدمِ المنثورِ في بيرقِ الرصاصْ
ولي طقسي الغيبي أذْهَبُ في المدى ، إلى عتباتِ الصَّحوِ ، أمحو
غبارَها
ولي وطنٌ آخَيْتُهُ بتآلفي معَ الموتِ ، لمْ أَفْتَحْ يدِيْ على مدىً من العمرِ
الا بعدَهُ كانَ شاهداً على شهوتي للموتِ ، نشوةِ لآتي ، وقمحِ بقائي
أَوْ رحيلي إلى هوىً ، ويقظةِإحساسٍ ، إلى شمسِ رغبتي
وَجدْتُ معَ الأمواتِ وجهي ، تطلَّعتْ إلى جهاتِ الأرضِ ، هنا زقاقُها ، تقرُّ
عصافيرٌ وَتدْنو أصابعي إلى نومِها الفطريِّ ، في اللغةِ التي تُفاجئُ
سرَّ البرقِ قبلَ انتشارهِ ، بصاعقةِ التَّكوينِ أوزهرةِ الغناءْ
أَنا هادمُ اللذاتِ ، زلزالُ عرشِهِمْ ، وقاربُ أحلامِ الشعوبِ لِما تشاءْ
خلاصي خلاصُ الكونِ منْ هامشِ المَناصْ
وَقتْلي بريقُ الحلمِ تفاحةُ اليَقينْ
أُحاصرُهُمْ في لعبةِ الموتِ ، كلّما أعاقوا انتشاري في التواريخ أَيقظَتْ
خطايَ خيولَ الدَّمِ في هيكلِ الرِّمالْ
جنوني لهُ نارُ القبائلِ صفحةٌ ، منَ الوقتِ ، يُصغي للأساطيرِ كلّما أضاءَتْ
لهُ منْ ساعدِ الطِّفلِ ثورةٌ ، تجلّى ملاكاً ، واسْتراحَ إلى الأبدْ



أَليسَ غريباً أَنْ ينازعَني أحدْ
على قصعةٍ للموتِ ، أو خندقِ الجسدْ
رسمتُ حدودَ الآخرينَ فلا أَحَدْ
وَأَغْلَقْتُ في وجهِ الممالكِ دوْرَتي
أَنا قانصُ الأوقاتِ منْ كوكبِ المُحالْ



الكلمة الحية لا تموت بل تزدهر وتزداد جمالاً مع الأيام
وهذه مختارات ثقافية حية من الصحف العربية القديمة



بقلم: محمد عبد الله عنان

مأساة شهيرة فى التاريخ الاسلامى ، هى مصرع غرناطة آخر معقل للاسلام بالأندلس . وشخصية محزنة هى شخصية آخر ملك أندلسى مسلم ، طويت على يده تلك الصفحة المجيدة الباهرة التى افتتحها موسى وطارق فى تاريخ الاسلام بأسبانيا قبل ذلك بثمانية قرون .

لبث الاسلام فى اسبانيا خلال هذه القرون الثمانية يغالب النصرانية وتغالبه ، والاسلام مذ انهار صرح الدولة الأموية دائم الخلاف والتفرق ، سائر أبدا فى طريق الضعف والانحلال ؛ والنصرانية تجتمع دائما على غزوه ونضاله ، وتنتزع منه تباعا قواعده وثغوره ، حتى إذا جاء القرن الثامن لم يبق من دولة الاسلام الشامخة بالأندلس سوى مملكة غرناطة الصغيرة ، تواجه وحدها داخل الجزيرة عدوها القوى . وسطعت هذه الأندلس الصغيرة مدى حين ، ولكنها لم تنج من خطر التفرق ؛ واسبانيا النصرانية أثناء ذلك متربصة بها تكاد تلتهمها من وقت الى آخر ، لولا أن كانت صولة الاسلام فى الضفة الأخرى من البحر — فى المغرب الأقصى — تروعها وتردها . وكانت مملكة غرناطة كلما تبينت شبح الخطر الداهم تستغيث بجارتها المسلمة القوية فيما وراء البحر ، دولة بنى مرين . ولكن بنى مرين لم يستجيبوا دائما الى دعوة الاسلام المحتضر بالأندلس ، وكانت لهم أحيانا مطامع ومشروعات فى الأندلس ذاتها . وكانت اسبانيا النصرانية كلما استيقنت تصرم العلائق بين الشقيقتين انقضت على الأندلس فاقتطعت منها ثغرا أو قاعدة جديدة . وكان رجالات الأندلس يستشفون من وراء ذلك خطر الفناء المحقق ، بل لقد استشعر به ابن الخطيب وزير الأندلس وكاتبها الكبير قبل تحققه بأكثر من قرن ، وصرح به فى إحدى رسائله إلى ملك فاس اذ يدعوه إلى غوث الأندلس ونجدتها ويقول : « ولا شك عند عاقل أنكم إن انحلت عروة تأميلكم أو أعرضتم عن ذلك الوطن استولت عليه يد عدوه »[1]

وهكذا نرى الأندلس منذ أوائل القرن التاسع الهجرى تسير بسرعة فى طريق الانحلال والفناء حتى إذا كانت أواخر هذا القرن لم يبق للاسلام فى أسبانيا سوى مملكة

أبو عبدالله آخر ملوك الأندلس

غرناطة الصغيرة وفيها مدن وثغور قلائل تتربص بها النصرانية وتعد العدة لسحقها.

وكان على عرش غرناطة يومئذ السلطان أبو الحسن علي بن سعد النصري الأحمري. ولي الملك سنة ٨٧١ هـ (١٤٦٦). ولكنه لم يستخلص الملك لنفسه إلا بعد نضال عنيف بينه وبين منافسيه وعلى رأسهم أخوه أبو عبدالله المعروف «بالزغل». وكانت الحرب الأهلية تضطرم في مملكة غرناطة كلما لاحت فرصة للتنازع على العرش. فلما استقر أبو الحسن في عرشه، أبدى همة فائقة في تحصين المملكة وتنظيم شئونها، وبث فيها روحا جديدا من البأس والطمأنينة، واستطاع ان يسترد عدة من الحصون والقواعد التي افتتحها النصارى، ولاح للنصرانية أن الأندلس المحتضرة تكاد تبدأ حياة جديدة. بيد أن هذا البعث الخلب لم يطل أمده. ذلك أن عوامل الخلاف الخالدة عادت تعمل عملها، وبذر أبو الحسن حوله بذور السخط والغضب بما ارتكبه في حق الأكابر والقادة من العسف والشدة، وبما اغرق فيه من صنوف اللهو والعبث. وكان أبو الحسن قد اقترن بالأميرة عائشة ابنة عمه السلطان أبي عبدالله الأيسر، ورزق منها ولدين هما محمد ويوسف. ولكنه عاد فاقترن بنصرانية رائعة الحسن تعرف في الرواية العربية «بثريا الرومية».

وتقول الرواية الأسبانية ان «ثريا» هذه كانت ابنة عظيم من عظماء اسبانيا هو القائد (سانكو كمنيس دي سوليس) وانها أخذت أسيرة في بعض المعارك وهي صبية فتية، وألحقت وصيفة بقصر الحمراء. فهام أبو الحسن بجمالها حبا، ولم يلبث أن تزوجها واصطفاها على زوجه الأميرة عائشة المعروفة «بالحرة» تمييزا لها من الجارية الرومية أو إشادة بعفتها وطهرها[٢] ولم يكن اقتران السلطان بنصرانية بدعة، ولكنه تقليد قديم في قصور الأندلس، وقد ولد كثير من خلفاء الأندلس ورجالها العظام من أمهات من النصارى مثل عبدالرحمن الناصر وحفيده هشام المؤيد. وكان لهذا التقليد أثره السيء في انحلال عصبية الدولة الاسلامية. بيد انه كان أشد خطرا وقت الانحلال العام. وكان وجود أميرة أجنبية في قصر غرناطة تستأثر بالسلطان والنفوذ في هذا الظرف العصيب، عاملا جديدا في إذكاء عوامل الخصومة والتنافس. ذلك لأن «ثريا» أعقبت من السلطان أبي الحسن ولدين، وأرادت أن يكون العرش لأحدهما، وبذلت كل ما استطاعت من الاغراء والدس لابعاد خصيمتها الأميرة عائشة عن كل نفوذ وحظوة، وحرمان ولديها محمد ويوسف من كل حق في الملك، وكان أكبرهما محمد ولقبه أبو عبدالله ولي العهد المرشح للعرش. فنزل أبو الحسن عند سعي حظيته وأقصى عائشة وولديها عن عطفه ورعايته: ولا زالت ثريا في سعيها ودسها حتى اعتقلهم أبو الحسن في أحد أبراج الحمراء وضيق عليهم وأخذ يعاملهم بمنتهى الشدة والقسوة. فأثار هذا التصرف غضب كثير من الكبراء الذين يؤثرون الأميرة الشرعية وولديها بعطفهم وتأييدهم، وانقسم القصر وانقسم الزعماء والقادة الى فريقين خصيمين، واضطرمت الأهواء، والشهوات والأحقاد، واشتد السخط على أبي الحسن وحظيته التي أضحت سيدة غرناطة الحقيقية، واستأثرت بكل سلطة ونفوذ.

وكانت الاميرة عائشة امرأة وافرة العزم والشجاعة فلم تستسلم الى قدرها الجائر، بل عمدت الى الاتصال بعصبتها وأنصارها، وأخذت تدبر معهم وسائل الفرار والمقاومة. وفي ذات ليلة استطاعت أن تفر من الحمراء مع ولديها محمد ويوسف بمعاونة بعض الأصدقاء المخلصين. وتقدم الرواية إلينا عن هذا الفرار صورا شائقة. فتقول إن الأميرة استعانت بأغطية الفراش على الهبوط من نوافذ البرج الشاهق في جوف الليل، وأبدت في ذلك من الجرأة والشجاعة ما يخلق بأبطال الرجال. وكان ذلك في ليلة من ليالي جمادى الثانية سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م). واختفى الفارون حيناً حتى قويت دعوتهم وظاهرهم فريق كبير من أهل غرناطة، وظهر الأمير الفتى محمد أبو عبدالله في وادي آش حيث مجمع عصبته وأنصاره ونشبت الثورة وانقضت العاصفة على أبي الحسن، وكانت عصبته أقلية ففر الى مالقة وكان بها وقتئذ أخوه الأمير أبو عبدالله محمد ابن سعد (المعروف بالزغل) يدافع عنها جيشا جرارا من النصارى سيره ملك قشتالة (فرديناند الخامس) لافتتاحها. وجلس أبو عبدالله محمد بن السلطان مكان أبيه على عرش غرناطة (أواخر سنة ٨٨٧ هـ) وأطاعته غرناطة ووادي آش وأعمالهما وبقيت مالقة وغرب الأندلس على طاعة أبيه. وكان أبو عبدالله يومئذ فتى في نحو الخامسة والعشرين.

وكان ملك قشتالة يرقب سير الحوادث في مملكة غرناطة بمنتهى الاهتمام. فلما اضطرمت بنار الحرب الأهلية ولاحت له فرصة الغزو والفتح، سير جيشه الى مالقة لافتتاحها ولكن المسلمين تأهبوا لرد النصارى بعزم وقوة وهزموهم في عدة مواقع فيما بين مالقة وبلش (فيليز Velez) وهزم النصارى في ظاهر مالقة هزيمة ساحقة وقتل وأسر منهم عدة آلاف بينهم عدة من الزعماء والأكابر (صفر ٨٨٨ هـ ــ مارس ١٤٨٣ م) وكان منظم هذا الدفاع الباهر الامير أبو عبدالله «الزغل» فانتعشت آمال المسلمين نوعا وسرت الحماسة الى غرناطة واعتزم ملكها الفتى أن يحذو حذو عمه الباسل في الجهاد والغزو وأن ينتهز فرصة اضطراب النصارى عقب الهزيمة، فخرج في قواته في ربيع الاول من هذا العام (ابريل ١٤٨٣) متجهاً نحو حصن قرطبة شمال شرقي غرناطة، واجتاح في طريقة عدداً من الحصون والضياع. ومزق النصارى في عدة معارك محلية؛ ثم ارتد مثقلا بالغنائم يريد العودة فأدركه النصارى في ظاهر قلعة اللشانة (لوتشينا Lucena) وكان يزمع حصارها: ونشبت بين الجيشين معركة هائلة ارتد فيها المسلمون الى ضفاف شنيل والنصارى في اثرهم، فهزم المسلمون هزيمة شديدة وغرق كثير منهم في شنيل. وقتل وأسر كثير من قادتهم وفرسانهم، وكان بين الأسرى السلطان أبو عبدالله محمد نفسه، عرفه الجند النصارى من الأسرى أو عرفهم بنفسه خشية الاعتداء عليه وأخذوه الى قائدهم الكونت كابرا، فاستقبله بحفاوة وأدب وأنزله بأحد الحصون القريبة تحت رقابة حرس قوي وأخطر في الحال ملكي قشتالة بالنبأ السعيد؛ وعاد المسلمون الى غرناطة دون ملكهم، فارتاعت غرناطة للنكبة واضطرب الشعب؛ واجتمع الكبراء والقادة وقرروا استدعاء أبي الحسن السلطان المخلوع ليجلس على العرش، ولكن أبا الحسن كان قد هدمه الاعياء والمرض وفقد بصره ولم يستطع أن يضطلع طويلا بأعباء الحكم، فنزل عن العرش لأخيه محمد أبي عبدالله «الزغل» حاكم مالقة وارتد الى المنكب فأقام بها حينا حتى توفي، وجلس «الزغل» على العرش يدير شئون المملكة وينظم الدفاع عن أطرافها.

أما السلطان أبو عبدالله بن أبي الحسن فلبث يرسف في أسره عند النصارى وأدرك ملك قشتالة في الحال ما للأمير الأسير من الأهمية. وأخذ يدبر أفضل الوسائل للاستعانة به في تحقيق مآربه في مملكة غرناطة. وبذل أبو الحسن حين عوده إلى العرش مجهودا لافتداء

ولده لا حبا فيه وشفقة عليه ، ولكن لكى يحصل في يده ويأمن بذلك شره ومنافسته ، وعرض على فرديناند نظير تسليمه أن يدفع فدية كبيرة وأن يطلق عددا من أكابر النصارى المأسورين عنده فأبى فرديناند وآثر أن يحتفظ بالأسير الى حين . وبذلت الأميرة عائشة من جهة أخرى مجهودا آخر لانقاذ ولدها بموازرة الحزب الذى يناصره ، واقترحت على ملك قشتالة معاهدة خلاصتها أن يتولى أبو عبدالله الملك في طاعة ملك قشتالة ، وأن يدفع له جزية سنوية ، وأن يطلق كل عام عددا معينا من النصارى ، وأن يدفع مقابل إطلاقه فدية كبيرة وأن يفرج في الحال عن أربعمائة من أسرى النصارى يختارهم ملكهم ، وأن يقدم المعاونة العسكرية كلما طلبت إليه ، وأن يقدم ابنه الوحيد كفالة مع عدد من أبناء الأسر الكبيرة[٣] ومع أن عقد هذه المعاهدة كان خطوة كبيرة في سبيل القضاء على مملكة غرناطة ، فان فرديناند رأى قبل عقدها أن يستغل أسر ملك غرناطة وأن يستعين به على تنفيذ برنامجه الحربي . وكان أبو عبدالله[٤] أميراً ضعيف العزم والارادة ، قليل الحزم والخبرة ، كثير المطامع والأهواء ، ولم يكن يتمتع بشيء من تلك الخلال الباهرة التي امتاز بها أسلافه وأجداده العظام بنو الأحمر . وكان الملك والحكم غايته يبتغيها بأي الأثمان والوسائل . وقد ألفى ملك قشتالة القوى في ذلك الأمير الضعيف المستهتر بحقوق أمته ودينه ، أداة صالحة يوجهها كيفما شاء ، فاتخذه وسيلة لبث دعوته بين أنصاره ومؤيديه في غرناطة وغيرها ، وليقنع المسلمين بأن الصلح مع ملك قشتالة خير وأبقى ، وسير ملك قشتالة في الوقت نفسه قواته في أنحاء مملكة غرناطة لكى تنتزع أثناء الاضطراب العام كل ما يمكن انتزاعه من القواعد والحصون الاسلامية ، فاستولت على عدة منها ، ونشبت من جهة أخرى في غرناطة حرب أهلية لم تكن بعيدة عن وحى أبي عبدالله وحزبه ، وقامت (البيازين) ضاحية غرناطة بدعوته ، وشغل ملك غرناطة (أبو عبدالله الزغل) باخماد الثورة عن مقاتلة النصارى . وفي نفس هذه الآونة العصيبة أطلق فرديناند سراح أبي عبدالله بعد ان ارتضى عقد المعاهدة التي عرضت عليه مع تعديل يسير في بعض نصوصها ، وبعد لقاء تم بين الملكين في قرطبة أعلن فيه أبو عبدالله خضوعه وطاعته لملك قشتالة ، واتفق ان تكون الهدنة لعامين وأن تطبق في جميع الأنحاء التي تدين بالطاعة لأبي عبدالله . وظهر أبو عبدالله يبث دعوته في الأنحاء الشرقية والحرب الأهلية قائمة في غرناطة (اوائل سنة ٨٩١ هـ — ١٤٨٦ م) .

وبدأت المفاوضة بينه وبين عمه (ملك غرناطة) في الصلح . ولكن حدث أثناء ذلك أن هاجم النصارى مدينة لوشة جنوب غربي غرناطة واستولوا عليها (جمادى الأولى سنة ٨٩١ هـ) وكان موقف أبي عبدالله أثناء هذه الحوادث مريبا ، وكان يمزج الدعوة لنفسه بالدعوة لملك قشتالة ، ويشيد بمزايا الصلح المعقود معه ، ولم يكن خافيا أنه يستظل بمظاهرة النصارى[٥] وفي شوال ٨٩١ ظهر أبو عبدالله في (البيازين) فجاة واجتمع حوله أنصاره ، واعلن الثورة على عمه ، ونشبت بينهما الحرب في ظاهر غرناطة ، وأمد فرديناند حليفه أبا عبدالله بالجند والذخائر والمؤن . واستمر القتال بينهما مدى أشهر . وفي ربيع الثاني سنة ٨٩٢ (١٤٨٧م) سير فرديناند قواته الى بلش مالقة (فيليز مالاجا) الواقعة على مقربة من ثغر مالقة ليفتتحها تمهيدا للاستيلاء على مالقة . وأدرك أبو عبدالله الزغل أهمية بلش الحربية فهرع الى الدفاع عنها مع بعض قواته ، وترك البعض الآخر لقتال أبي عبدالله وأهل البيازين ولكن أقدام الزغل وعزمه وشجاعته لم تغن شيئا ، وسقطت بلش في يد النصارى (جمادى الأولى ٨٩٢ — ابريل ١٤٨٧) وعاد الزغل بجنده ميمما صوب غرناطة ، ولكنه علم أثناء مسيره أن غرناطة قامت أثناء غيابه بدعوة أبي عبدالله . وأنه دخلها وتبوأ العرش مكانه (جمادى الأولى) ، فارتد بصحبه الى وادى آش وامتنع بها ، وانقسمت بذلك مملكة غرناطة الصغيرة الى شطرين يتربص كل منهما بالآخر : غرناطة وأعمالها ويحكمها أبو عبدالله محمد ، ووادى آش وأعمالها ويحكمها عمه أبو عبدالله الزغل ، وتحقق بذلك ما كان يبتغيه ملك قشتالة من تمزيق شمل البقية الباقية من دولة الاسلام بالأندلس تمهيدا للقضاء عليها .

تبوأ أبو عبدالله عرش غرناطة للمرة الثانية بعد ان قضى في أسر ملك قشتالة زهاء ثلاثة أعوام . وكانت الخطوب والفتن التي توالت على مملكة غرناطة قد مزقتها حسبما بينا ، فلم يبق منها بيد الاسلام سوى بضع مدن وقواعد متناثرة مختلفة الرأى والكلمة ينضوى بعضها تحت لواء أبي عبدالله والبعض الآخر تحت لواء عمه محمد بن على (الزغل) . وكان واضحا أن مصير غرناطة يهتز في يد القدر بعد أن نفذت جيوش النصرانية الى قلبها : واستولت على كثير من قواعدها وحصونها الداخلية . ولم يكن الملك الصغير (ابو عبدالله) طبق المعاهدة التى عقدها مع فرديناند سوى تابع لملكة قشتالة ، يدين لها بالخضوع والطاعة . وكان ملك قشتالة يحرص من جهة أخرى على المضى في تحقيق خطته لسحق البقية الباقية من دولة الاسلام في الأندلس قبل أن يعود اليها اتحاد الكلمة ، فيبعث اليها روحا جديدا من العزم والمقاومة ، فبدأ بغزو القواعد الشرقية والجنوبية التى يسيطر عليها مولاى الزغل لأنه كان في صلح مع غرناطة يمتد الى عامين ، وقد اراد ان يسبغ على عهوده مسحة غادرة من الوفاء ، ولأنه أراد أولا أن يعزل غرناطة ، وأن يطوقها من كل صوب . وزحف فرديناند بادىء بدء على مالقة أمنع ثغور الاندلس وعقد صلتها بالمغرب ، وطوقها بقوات كثيفة من البر والبحر وسقطت مالقة رغم دفاعها المجيد في شعبان سنة ٨٩٢ هـ (اغسطس ١٤٨٧ م) .

ثم استولى فرديناند على المنكب والمرية (أواخر سنة ٨٩٤ هـ — ١٤٨٩ م) ثم على بسطة (المحرم ٨٩٥ هـ ديسمبر ١٤٨٩) ثم قصد الى وادي آش آخر معقل لمولاى الزغل ، ورأى الزغل رغم شجاعته وبسالته أنه يغالب المستحيل وان جيوش النصرانية تحيط به من كل صوب ، فانتهى الى الاذعان والتسليم ، ودخل فرديناند وادى آش في صفر سنة ٨٩٥هـ (يناير ١٤٩٠ م) واتفق بادىء بدء أن يستمر (الزغل) في حكم قواعده باسم ملك قشتالة وتحت حمايته ، وان يلقب بملك اندرش ، وان يمنح دخلا سنويا كبيرا ، لكنه لم يلبث ان رأى انه يستحيل عليه الاستمرار في ذلك الوضع الشاذ ، فباع حقوقه لفرديناند مقابل مبلغ كبير ، وجاز البحر الى المغرب واستقر في تلمسان يقضى بها بقية حياته في غمر من الحسرات والعدم ، وجاز معه كثيرون من الكبراء الذين أيقنوا ان نهاية الاسلام بالأندلس قد غدت قضاء محتوما .

ثم جاء دور غرناطة آخر معقل للاسلام بالاندلس . وكانت جميع قواعد الأندلس الأخرى : مالقة والمرية ووادى آش والحامة وبسطة قد غدت نهائيا من املاك مملكة قشتالة

أبو عبدالله آخر ملوك الأندلس

وعين لها حكام من النصارى ، وتدجن أهلها أو غدوا مدجنين يدينون بطاعة ملك النصارى[٦] وذاعت بها الدعوة النصرانية فارتد كثير من المسلمين عن دينهم حرصا على أوطانهم ومصالحهم ، وخشية الريب والمطاردة ، وجازت ألوف أخرى ممن خشوا على أنفسهم ودينهم الى المغرب وتفرقوا في ثغوره ، وهرعت ألوف أخرى الى غرناطة تلوذ بها حتى غدت المدينة تموج بسكانها الجدد .

وكان سلطان غرناطة ابو عبدالله يرقب هذه الحوادث جزعا ويشعر انها تسير الى نتيجة محتومة هي سقوط غرناطة في يد العدو الظافر ، وكان قد تخلص بانسحاب عمه الزغل من الميدان من منافسه القوى ، ولكنه فقد في نفس الوقت أقوى عضد يمكن الاعتماد عليه في الدفاع والمقاومة .

وسرعان مابدت طوالع الخطر الداهم ، وبعث فرديناند الى ابي عبدالله يطلب اليه تسليم الحمراء[٧] والبقاء في غرناطة في طاعته وتحت حمايته مثلما وقع لعمه الزغل ، فثار ابو عبدالله لذلك الغدر ، وأدرك ـ وربما لأول مرة ـ فداحة خطئه في محالفة ذلك الملك الغادر ، وجمع الكبراء ، والقادة ، فأجمعوا على الرفض والدفاع حتى الموت عن وطنهم ودينهم ، ودوت غرناطة بصيحة الحرب ، وحمل ابو عبدالله بعزم شعبه على القتال والجهاد ، وخرج في قواته يحاول استرداد القواعد والحصون المسلمة المجاورة ، وثار أهل البشرات وما حولها على النصارى ، ووقعت بين المسلمين والنصارى عدة مواقع ثبت فيها المسلمون ، واستردوا كثيرا من الحصون والقرى في تلك المنطقة (اواخر سنة ٨٩٥ هـ) ، وعاد ابو عبدالله الى غرناطة ظافرا ، وانتعشت قلوب الغرناطيين نوعا بذلك النصر الخلب ، وأخذوا يتأهبون للدفاع بعزم ، وغضب فرديناند لتلك المفاجأة التي لم يكن يتوقعها واعتزم ان يقوم بضربته الحاسمة في الحال ، فخرج في ربيع العام التالي (٨٩٦ هـ) في جيش ضخم مزود بالمدافع والذخائر الوفيرة ، وسار توا الى غرناطة ونزل بمرجها الجنوبي وأنشا لجيشه في تلك البقعة مدينة صغيرة مسورة سميت سانتاتي Santa fe (شنتفي) او الايمان المقدس رمزا للحرب الدينية ، وهي تقوم حتى اليوم ، وبدأ حصار غرناطة في جمادى الآخرة سنة ٨٩٦ هـ (مارس ١٤٩١ م) .

ولسنا نقف طويلا عند حوادث هذا الصراع الأخير بين الاسلام والنصرانية في الأندلس ، فهي تملأ فصولا طويلة مؤثرة في الروايات العربية والافرنجية[٨] ، ويكفي أن نقول ان غرناطة دافعت عن نفسها دفاعا مجيدا ، ولم تدخر لاجتناب قدرها جهدا بشريا ، وأن فروستها الشهيرة بذلت بقيادة زعيمها موسى ابن ابي الغسان أشجع فرسان عصره ، ضروبا رائعة من البسالة ، وخرج المسلمون من مدينتهم المحصورة غير مرة وأثخنوا في النصارى . ولكن الضيق كان يشتد بالمدينة المحصورة يوما فيوما ، وتقل مؤنها شيئا فشيئا ، ويتساقط جندها تباعا . وكانت مدى الربيع والصيف تستمد بعض المؤن من جهة البشرات من طريق جبل شلير (Sierra Nevada) ، فلما دخل الشتاء غطت هذه السهول والشعاب بالثلج الكثيف ، وازدادت غرناطة ضيقا ، واشتد بأهلها الجوع والمرض ، وهم ابو عبدالله بمفاوضة فرديناند في التسليم غير مرة لو لا أن كان يمنعه موسى بن ابي الغسان وتحمله الحماسة العامة . فلما اشتد الخطب تقدم حاكم المدينة ابو القاسم عبد الملك ، وقرر أن المؤن تكاد تنفد ، وان الجوع أخذ يعصف بالشعب ، وان الدفاع عبث لايجدي ، واتفقت كلمة الزعماء والقادة على التسليم ، وارسل ابو القاسم لمفاوضة فرديناند ، فاستقبله بترحاب وحفاوة . وتم الاتفاق على ان تسلم غرناطة بشروط كثيرة أهمها أن يؤمن المسلمون على أنفسهم ودينهم وأموالهم . وان لاتمس مساجدهم وشعائرهم وشرائعهم وتقاليدهم ، وان يجوز منهم الى المغرب من شاء[٩] . وهكذا اذعنت غرناطة وسلمت ، وانتهت دولة الاسلام بالأندلس (صفر ٨٩٧ هـ ديسمبر سنة ١٤٩١ م) وطويت الى الأبد تلك الصفحة المجيدة الرائعة من تاريخ الاسلام ، وقضى على تلك الحضارة الأندلسية الشامخة وآدابها وعلومها وفنونها وكل ذلك التراث الباهر بالفناء والمحو ، ودخل النصارى غرناطة في الثاني من ربيع الأول سنة ٨٩٧ (٢ يناير سنة ١٤٩٢) واحتلوا حمراءها وباقي قصورها وحصونها وخفق علم النصرانية ظافرا فوق الصرح المنهار .

* * *

اما الملك التعس ابو عبدالله فقد قضت معاهدة التسليم أن يغادر غرناطة مع أسرته الى البشرات وأن يحكم هذه المنطقة باسم ملك قشتالة وفي طاعته وأن يكون مقره في قرية اندرش . ولما ذاعت أنباء التسليم اضطرم الشعب غضبا وسخطا على أبي عبدالله واعتبره مصدر كل مصائبه ومحنه ، فبادر أبو عبدالله بالأهبة للسفر مع أسرته وخاصته وحشمه ، وبعث بأمواله ونفيس متاعه الى مقره الجديد في اندرش . وفي نفس اليوم الذي دخل النصارى فيه غرناطة ، غادر أبو عبدالله قصره وموطن عزه ومجد آبائه الى الأبد ، وخرج للقاء عدوه الظافر في سرية من الفرسان والخاصة ، فاستقبله فرديناند في محلته على ضفة شنيل . وتصف الرواية هذا المنظر المؤثر فتقول ان أبا عبدالله حين رأى فرديناند ، هم بترك جواده ، ولكن فرديناند بادر بمنعه وعانقه بعطف ورعاية ، ثم قدم اليه أبو عبدالله مفاتيح الحمراء قائلاً : «ان هذه المفاتيح هي الأثر الأخير لدولة العرب في اسبانيا . وقد أصبحت أيها الملك سيد تراثنا وديارنا وأشخاصنا . هكذا قضى الله . فكن في ظفرك رحيما عادلا» . وسار أبو عبدالله بعد ذلك صحبة فرديناند الى حيث كانت الملكة ايزابيلا ، فقدم اليها تحياته وخضوعه ، ثم انحدر الى طريق البشرات ليلحق بأسرته وخاصته .

وهنا تقول الرواية أن أبا عبدالله أشرف أثناء مسيره في شعب تل البذول (بادول) على منظر غرناطة فوقف يسرح بصره لآخر مرة في هاتيك الربوع العزيزة التي ترعرع فيها ، وشهدت مواطن عزه وسلطانه ، فانهمر في الحال دمعه وأجهش بالبكاء ، فصاحت به أمه عائشة : «أجل فلتبك كالنساء مالم تستطع ان تدافع عنه كالرجال» . وتعرف الرواية الاسبانية تلك الأكمة التي كانت مسرحا لذلك المنظر المحزن باسم شعرى مؤثر هو : «زفرة العربي الأخيرة» EL ultimo Sospiro del moro . وما تزال قائمة حتى اليوم يعينها سكان تلك المنطقة للسائح المتجول .

ثم تقول الرواية أيضا إن باب غرناطة الذي خرج منه أبو عبدالله لآخر مرة قد سد عقب خروجه برجاء منه الى ملك قشتالة وبقي مكانه حتى لايجوزه من بعده انسان[١٠] .

* * *

لم يطل مكث أبي عبدالله بمقره الجديد في اندرش ، ولم تمض أشهر قلائل حتى أدرك عمه من قبل أنه يستحيل عليه البقاء في هذا الوضع الشاذ كعامل لملك قشتالة ، وكان فرديناند من جانبه ينظر الى وجوده بعين الريب ويخشى أن يكون مثار الفتنة ، فعول أبو عبدالله أن يحذو حذو عمه في الجواز الى افريقية ، ونزل لفرديناند عن حقوقه نظير

مبلغ كبير، ثم جاز بأسرته وماله ومتاعه من ثغر المرية الى المغرب الأقصى فى سفن أعدت له (١٤٩٣ م) ونزل أولا بمليلة، ثم قصد الى فاس واستقر بها، وتقدم الى ملكها السلطان محمد شيخ بنى وطاس الذين خلفوا بنى مرين فى الملك، مستجيراً به، مستظلا بلوائه ورعايته، معتذراً عما أصاب الاسلام فى الأندلس على يده، متبرئا مما نسب اليه، وذلك فى كتاب طويل مؤثر كتبه عن لسان كاتبه ووزيره محمد بن عبدالله العربى العقيلى، وسماه «بالروض العاطر الأنفاس فى التوسل الى المولى الامام سلطان فاس»، وقد افتتحها بعد الديباجة بقصيدة رائعة هذا مطلعها:

مولى الملوك ملوك العرب والعجم
رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار انت لمن
جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلبا
وافظع الخطب ما يأتى على الرغم
حكم من الله حتم لا مرد له
وهل مرد لحكم منه منحتم
كنا ملوكا لنا فى أرضنا دول
نمنا بها تحت أفنان من النعم
فأيقظتنا سهام للردى صبت
يرمى بأفجع حتف من بهن رمى
فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا
وأى ملك بظل الملك لم ينم

وهى طويلة جدا، يمتدح فيها ملوك فاس ويشيد بعلائقهم القديمة مع بنى الأحمر؛ ويشير ابو عبدالله بعد ذلك الى حوادث الأندلس، ويعتذر عن نكبته، ويعترف بخطئه، ومن قوله فى ذلك «اللهم لا برىء فاعتذر، ولا قوى فأنتصر، ولكنى مستقيل، مستنيل، مستغيث، مستغفر، وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء» بيد انه يدفع عن نفسه تهم الزيغ والتفريط والخيانة بشدة، ويقول: «ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خير فيها، وأعطى من أمانه المؤكد فيه خطه بأيمانه، مايقنع النفوس ويكفيها، فلم نر ونحن من سلالة الأحمر مجاورة الصفر، ولايسوغ لنا الايمان الاقامة بين ظهرانى الكفر، ما وجدنا على ذلك مندوحة ولو شاسعة» ثم يرثى ملكه بعبارات مؤثرة منها: «ثم عزاء حسنا وصبرا جميلا، عن أرض ورثها من شاء من عباده معقبا لهم ومديلا، وسادلا عليهم من ستور الأملاء الطويلة سدولا، سنة الله التى قد خلت من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا. فليطر الطائر الوسواس المرفرف مطيرا كان ذلك فى الكتاب مسطورا، لم يستطع غير مورده صدوراً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً»[11].

واستقر أبو عبدالله فى فاس فى ظل بنى وطاس، وشيد بها قصوراً على طراز الأندلس رآها وتجول فيها المقرى مؤرخ الأندلس بعد ذلك بنحو قرن (١٠٣٧ هـ - ١٦٢٨ م)، وقضى أعواما طوالا فى غمر الحسرات والذكريات المفجعة، وتوفى سنة ٩٤٠ هـ (١٥٣٤)[12] ودفن بفاس، وترك ولدين هما يوسف وأحمد، واستمر عقبه متصلا معروفا بفاس مدى أحقاب، ولكنهم انحدروا قبل بعيد الى هاوية البؤس والفاقة، ويذكر لنا المقرى انه رآهم سنة ١٠٣٧ هـ فقراء معدمين يعيشون من أموال الصدقات[13] وفى بعض الروايات الاسبانية أن أبا عبدالله توفى قتيلا فى موقعة نشبت بين السلطان احمد الوساطى وبنى سعد الخوارج عليه فى وادى أبى عقبة وقاتل فيها أبو عبدالله جانب أصدقائه بنى وطاس وذلك سنة ٩٤٣ هـ (١٥٣٦)[14] بيد أنها رواية ظاهرة الضعف لان أبا عبدالله يكون فى هذا التاريخ قد جاوز السبعين، ومن الصعب أن نصدق أنه يخوض مثل هذه المعارك الطاحنة بعد أن هدمه الاعياء والهرم، هذا الى أن الرواية الاسلامية فى هذا الموطن أدعى الى الترجيح والثقة.

ويعرف أبو عبدالله آخر ملوك الاندلس بالملك الصغير (وبالاسبانية El Rey Chico) تمييزا له من عمه أبى عبدالله الزغل، ويلقب بالزغيبى، أو عاثر الحظ تنويها بما أصابه وأصاب الاسلام على يده من الخطوب والمحن.

هذه قصة مصرع الأندلس، وقصة آخر ملوكها.

وصار ما كان من ملك ومن ملك
كما حكى عن خيال الطيف وسنان

محمد عبدالله عنان
١٩٣٤

هـــوامش

(١) المقري في أزهار الرياض - (تونس) ص ٥٦
(٢) راجع: Irving: Conquest of Granada حيث يورد أقوال الرواية الاسبانية عن شخصية ثريا (الفصل التاسع) ولكن الرواية العربية لاتذكر الا ان ثريا كانت جارية رومية - راجع المقري فى نفح الطيب ج ٢ ص ٦٠٨، واخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر طبعة ميلر ص ٦ - ويتفق برسكوت مع الرواية العربية Hist. of Ferdinand and Isabella P. 412
(٣) برسكوت ص ٣٢٤ - وايرفنج (الفصل التاسع عشر).
(٤) نرى ان نشير هنا الى ابا عبدالله يعرف فى الرواية القشتالية والافرنجية عامة باسم «بوبديل» Boabdil وهو تحريف لأبي عبدالله.
(٥) راجع اخبار العصر ص ٢٢ و٢٣ - والعتري ج ٢ ص ٦١٢.
(٦) - المدجنون اوأهل الدجن (الفعل تدجن ومصدره الدجنة) كلمة اطلقت على المسلمين الاندلسين الذين دخلوا فى طاعة ملك النصارى واعترفوا بها ومقابلها الاسباني هو كلمة Mudejares وقد شاع استعمالها منذ القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادي) اعني مذ كثر استيلاء النصارى على قواعد الاندلس.
(٧) هو قصر الحمراء الكبير وما حوله من الحصون والابراج.
(٨) راجع تفاصيل هذه الرواية فى أخبار العصر بانقضاء دولة بنى نصر ص ٤٣ - ٤٨، والمقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥. وراجع كتابى مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام (الفصل السادس عشر).
(٩) راجع تفاصيل هذه الشروط فى نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ و٦١٦.
(١٠) برسكوت ص ٢٩٨ و٢٩٩ - وايرفنج (الفصل التاسع والتسعون) ويذكر ايرفنج فى خاتمة كتابه (فتح غرناطة) أنه توجد فى متحف جنة العرب (جترانيف) بغرناطة صورة لابى عبدالله تمثله بوجه وسيم ولون جميل وشعر أصفر. ويرتدي فيها ثوبا أصفر يظلله حرير اسود. وقلنسوة من الحرير الاسود يعلوها التاج. ويوجد فى متحف مدريد الحربى ثوبان درعان يقال انهما كانا لابي عبدالله؛ ويبدو من حجمهما أن أبا عبدالله كان كبير القد قوى البنيه. ويخصص ايرفنج فى كتابه Tales of The Alhambra فصلان للذكريات والآثار الخاصة بابي عبدالله.
(١١) أورد المقري هذا الكتاب بنصه فى نفح الطيب ج ٢ ص ١٧ - ٦٢٨ - وفى ازهار الرياض ص ٦٢ - ٨٧.
(١٢) وذكر المقرى في أزهار الرياض أنه توفى سنة ٩٢٤ هـ (ص ٥٨) وهى رواية خاطئة.
(١٣) نفح الطيب ج ٢ ص ٨١٧.
(١٤) راجع ايرفنج - فى الملحق الخاص بنهاية ابى عبدالله - وراجع الاستقصاء فى تاريخ المغرب الاقصى للسلاوي ج ٢ ص ١٦٨



أضواء ثقافية

يقدمها: طلعت الشايب

صورة جماعية مع هاينرش بول

في السادس عشر من الشهر الماضي احتفلت الدوائر الأدبية والثقافية في ألمانيا بشطريها بمرور عام على وفاة الكاتب الألماني الشهير « هاينرش بول » الذي قضى قرابة ٤٠ عاماً في الكتابة الغزيرة في مجالات الرواية والقصة القصيرة والمقال والتمثيلية الإذاعية وطبقت شهرته الآفاق بعد أن ترجمت أعمال كثيرة له إلى لغات متعددة.

ولد « هاينرش بول » في كولونيا عام ١٩١٧ (وهو الابن الأصغر لنجار موبيليا) وقضى شبابه أثناء الأزمة الاقتصادية والسياسية لجمهورية « ويمر » الضعيفة كما عاصر صعود « هتلر » إلى السلطة.

رفض أن يلتحق بالشباب النازي ولكنه أرسل عنوة ليحارب على الجبهتين الشرقية والغربية بعد تجنيده عام ١٩٣٨ وليعاني من « مصير جندي يتمنى أن تنتهي الحرب بالهزيمة » ـ كما يقول ـ وليصاب اربع مرات في ساحة القتال. ويسقط أسيراً في يد القوات الأمريكية ثم يعود الي كولونيا عام ١٩٤٥ « خالي الوفاض إلا من عاطفة جامحة ورغبة قوية في الكتابة »..

صدرت أول رواية له « جاء القطار في موعده » عام ١٩٤٩ وبعدها بعام واحد صدرت مجموعته القصصية « المسافر » وقد قام فيهما بتشريح حاد للانهيار المعنوي والجروح النفسية التي حفرتها تجربة الحرب في وجدان الناس.

ورغم اشادة النقاد بأعماله منذ البداية إلا أنه لم يصبح مشهوراً إلا في عام ١٩٥٤ بعد أن انتشرت أعماله وحققت نجاحاً كبيراً على المستوى الفني والمستوى التجاري أيضاً.

والمادة الأساسية لجميع أعمال « بول » مستقاة من الفترة المضطربة التي عاصرها وكان شاهداً عليها. لذلك يعتبره النقاد راصداً نقدياً لجميع مراحل تطور بلاده فيما بعد سنوات الحرب. فقد سجل في روايته « بلياردو في التاسعة والنصف » ـ ١٩٥٩ ـ ، « المهرج » ـ ١٩٦٣ ـ وقصص مثل « شيء ما لابد أن يحدث » حياة الناس العادية انطلاقاً من أرضية اجتماعية وأدبية حقيقية إثر التحول اللاأخلاقي للمجتمع الألماني إبان حكم النازي والفترة التي تلت الحرب. وقدم تابلوها عريضاً وعادياً رسمه بسخرية شديدة وملأه بأهداف شن عليها هجوماً عنيفاً.. وهذه الأهداف هي « لا جدوى الحرب » « افتراس القوي للضعيف » وظهور معشوقة جديدة في حياة البشر هي « المال والنفوذ والسلطة ».

كان « بول » شوكة في جانب شطري ألمانيا في السنوات العشر الأخيرة من حياته كثف

نشاطه السياسي ليهاجم سوء استخدام السلطة في السبعينات وليتهم النظام الألماني بالهستيريا ويشارك في مسيرات الاحتجاج المعارضة لنشر شبكة الصواريخ الأمريكية في أوربا عام ١٩٨٣ .

كما هاجم صحافة ألمانيا ـ المحافظة ـ لمواقفها العدائية المسبقة من منظمة « بادر ما ينهوف » وعندما اتهمه معلق إذاعي بدعم وموالاة الإرهاب قاضاه وكسب حكماً وتعويضاً مادياً .

أما في ألمانيا الشرقية وفي سائر الكتلة الشرقية عموماً فقد جعلهم الاعجاب به وبإبداعه يغضون الطرف عن انتقاداته اللاذعة للشمولية بكل صورها وعن دفاعه المستميت عن الذين يعيشون تحت نيرها في أي مكان . في إحدى زياراته للاتحاد السوفيتي استطاع أن يهرب معه مخطوطات لبعض من أعمال الكساندر سولجنستين ، كذلك كان هو الملاذ والملجأ لنفس الكاتب عندما نفي الى خارج الاتحاد السوفيتي عام ١٩٧٤ .

وفي عام ١٩٧٢ حصل « بول » على جائزة نوبل في الآداب « لدوره البارز في تجديد الأدب الألماني منذ الحرب العالمية الثانية » . بعد أن نشر روايته الهامة « صورة جماعية مع سيدة » وليكون أول ألماني ينال هذا الشرف بعد « توماس مان » الذي كانت جائزة نوبل من نصيبه عام ١٩٢٩ .

« صورة جماعية مع سيدة » قصة أرملة تطحنها الديون وتعكس حياة ألمانيا على مدى نصف قرن .

ورغم مرض « بول » الذي اشتد عليه في أواخر الأيام فقد كان يعمل بلا توقف سواء بالكتابة أو بإخراج أعمال سينمائية أو تصوير أفلام تسجيلية ، وعند وفاته كان يقوم بمراجعة البروفات النهائية لآخر أعماله وهي رواية بعنوان « نساء أمام منظر طبيعي للنهر » تروي عن « بون » وعن النساء في السياسة الألمانية الغربية .

وفي السادس عشر من يوليو ١٩٨٥ عندما أعلن خبر وفاته اجتاحت موجة الحداد ألمانيا بشطريها ونكست الأعلام في دولتين لم تتفقا على شيء قدر اتفاقهما على تقدير رجل ترك بصمات لا تمحى على تاريخ الأدب الألماني . ويعتبرونه إلى جانب « جونتر جراس » أعظم من أثروا اللغة الألمانية والأدب الألماني منذ توماس مان حتى اليوم كما يدينون له بفضل انقاذ حروف اللغة من بين رماد وأطلال الحرب العالمية الثانية .

الجليد الثقافي بين العملاقين هل يذوب ؟

يبدو أن الاتفاق الثقافي الذي تم بين كل من الرئيس السوفيتي جورباتشوف والرئيس الأمريكي ريجان بجنيف في نوفمبر الماضي قد بدأ يؤتي ثماره من أجل إذابة الجليد الكثيف الذي جمد العلاقات الثقافية الرسمية بين الدولتين لمدة ٦ سنوات ومنذ أن قطعت الولايات المتحدة علاقاتها الثقافية والفنية مع موسكو عام ١٩٨٠ احتجاجاً على التدخل السوفيتي في أفغانستان .

في الشهر الماضي كانت صالة مسرح الأطفال والموسيقى في موسكو مليئة بالجمهور الذي أمطر خشبة المسرح بالزهور تعبيراً عن الاعجاب الشديد بالكوميديا الموسيقية « العروسة دولي » التي كانت مفاوضات طويلة من أجل عرضها استمرت لسنوات وباءت كلها بالفشل .

وفي موسكو قام المخرج بتعديل العمل لكي يناسب ذوق الجمهور السوفيتي لكي تلقي العروسة من وقت لآخر ببعض الكلمات أو العبارات الروسية فتدوي الصالة كل مرة على الجانب الآخر كانت قاعة « آفري فيشر » في مركز لنكولن للفنون مزدحمة بمتذوقي الموسيقى الراقية وهم يستمعون بأداء « يوري تميركاتوف » و « نيكولاي بتروف » وهما يشاركان أوركسترا نيويورك الفيلهارموني في العزف .

وبعد زيارة لموسكو استمرت ١٠ أيام عاد مدير وكالة الاستعلامات الأمريكية ليعلن أن أوركسترا لينينجراد السيمفوني وأوبرا وباليه البولشوي وباليه كيروف وفرقة ما سييف للرقص الشعبي و ٤٠ لوحة من مقتنيات المتاحف السوفيتية الشهيرة سيزورون الولايات المتحدة .

وقد قدم الاتحاد السوفييتي أيضاً الدعوة لاوركسترا فيلادلفيا من أجل إقامة أربع حفلات هناك في الربيع القادم ، والمعروف أن هذا الأوركسترا كان قد عزف لآخر مرة في موسكو في عام ١٩٥٨ في إطار التبادل الثقافي الذي اتفق عليه كل من أيزنهاور وخروشوف حينذاك .

أما فلاديمير هاروفتش عازف البيانو الروسي الشهير والذي كان قد ترك بلاده منذ ٦١ سنة ليعيش في أمريكا فقد زار موسكو في ابريل الماضي ليعزف أمام جمهور يعشق الموسيقى في بلده الذي وجده « أكثر جمالاً وأكثر رأسمالية » مما كان يتوقع على حد تعبيره .

ولا تعني كل هذه التظاهرات أن جميع الأمور قد أصبحت على ما يرام بين البلدين في اطار التبادل الثقافي ، فكل طرف لديه تحفظاته ومخاوفه وشكوكه في نوايا الآخر .

الصحف الأمريكية تردد بدون توقف النغمة المكرورة بأن موسكو تقيد حركة كل من يدخل ويخرج ، وبأن الكرملين يحدد ـ وبتدقيق صارم ـ المادة الثقافية الأمريكية التي يسمح بدخولها إلى البلاد .. « مرحباً بالعروسة دولي » « لا .. لمادونا ! » مثلاً .

كما أن الصحف السوفييتية أيضاً لا ترحب بالقيم الثقافية الأمريكية وترفض « رامبو » و « روكي ١٧ » وجميع الأعمال السينمائية المشابهة ... « حينما تغري المراهقين وتزين لهم الشر والعدوان فلن تستطيع أية روابط ثقافية تغييرهم بعد ذلك » كما تقول رئيسة قسم أوربا الغربية وأمريكا في وزارة الثقافة السوفييتية .

فهل يستمر باب التبادل الثقافي مفتوحاً بين البلدين ؟ وهل تنجح الثقافة في اصلاح ما أفسدته السياسة ؟ ربما !

حوار مع الأديب والفنان التونسي

عز الدين المدني

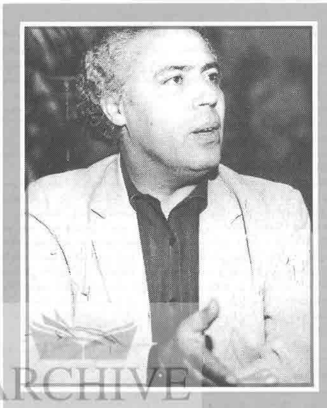
- المسرح العربي رخو يفتقر للإبداع والمغامرة ؟!
- لا توجد زعامة أدبية .. والكتابة العربية مازالت متخلفة
- أصالتنا العربية مُشِعَّة ونَيِّرة
- أبحث وأسعى من أجل شكل مسرحي عربي

أجرى الحوار : أحمد محمد عطية

عز الدين المدني مفكر وأديب وفنان عربي أصيل في المنبت والنشأة والتكوين والإبداع . فهو ينحدر من عائلة عربية حجازية . وقد ولد في تونس العاصمة سنة ١٩٣٨ ونشأ في بيت اسلامي ، ثم جمع بين الأصالة العربية والحداثة العالمية في دراساته العليا بباريس ، حيث تخصص في اللغة العربية والأدب العربي والفلسفة والأنثروبولوجيا وسوسيولوجية المغرب .

وقد شارك المدني في عدد كبير من المؤتمرات والندوات الفكرية والثقافية ، العالمية والعربية . لعل أهمها مؤتمر التراث العربي في الكويت ، ومؤتمر صقر الرشود في الكويت أيضاً ، وندوة الحوار العربي الأوروبي في هامبورج ، ومؤتمر الأدب العربي الحديث بمعهد الدراسات الافريقية والعربية بجامعة لندن .. وقد انتخب سنة ١٩٧٥ كأكبر كاتب عربي في فرنسا . كما شغل المدني عدة مناصب ثقافية ، محرراً ثقافياً ورئيساً للتحرير ومديراً للمركز الثقافي الدولي . وهو يعمل حالياً مستشاراً لوزارة الشؤون الثقافية بتونس ورئيساً لتحرير صحيفة العمل الثقافي التونسية ، كما يحرر مقالاً ثقافياً أسبوعياً باللغة الفرنسية لمجلة « ديالوج » التونسية .

وقد انعكس هذا كله في أعماله الفكرية والأدبية والفنية . فتميزت بالشمول والتنوع والثراء والأصالة والتجديد والتجريب والمغامرة والتجويد . فكتب عز الدين المدني في القصة القصيرة : « خرافات » و « من حكايات هذا الزمان » ، وفي الرواية : « العدوان » و « افتتاح موسم الصيد » ومسراوية و « الحمال والبنات » . وفي الفكر والنقد الأدبي والتنظيري . « الأدب التجريبي » و « سهرت منه الليالي » عن علي الدوعاجي رائد القصة التونسية ، ودراسة عن الشاعر التونسي الراحل أبوالقاسم الشابي في ذكراه الخمسينية ، ودراسة في الخط العربي عن أعمال الفنان التونسي نجا المهداوي ، وكتاب عن الرسام التونسي عمار فرحات « فنان الشعب » ، وآخر عن الفنان التشكيلي التونسي والمناضل الكبير علي بن سالم ، وكتاب فني عن



عزالدين المدني

« تونس العتيقة » بالحفر على ورق حرير.

مسرح عربي أصيل

غير أن عالمه المسرحي العربي الأصيل هو عالمه الأثير والمتفرد بإحيائه واستلهامه لأشكال وموضوعات وقيم وروح التراث العربي في مسرحه ، وتقديمه للتراث العربي والشخصيات التراثية العربية برؤية نقدية وصور جديدة مبدعة وخلاقة ، ومزجها بقضايا العصر وثقافته وواقعه ، بغية إبداع مسرح عربي أصيل ، متحرر من الأشكال الغربية والمضامين الغربية ، لأنه يرفض كل أنواع التبعية . فالمسرح هو كل حياته ، كما قال لي في حديث سابق (نشر بمجلة « الموقف العربي » عدد يونيو ١٩٨٣) ، وردد بقوة وإصرار : المسرح .. المسرح .. المسرح لا لشيء إلا لأنه كتابة ساخنة ، كتابة حارة ، فيها الفكرة متفاعلة مع الجمهور ، فيها اتصال بالجمهور ... »

ولعل أبلغ تعبير عن إخلاص عزالدين المدني للمسرح العربي ما ذكره في افتتاحية العدد الرابع من مجلة « فضاءات » المسرحية التونسية قائلاً : « أنا أكتب من موقع الكاتب المسرحي الذي عايش الحركة المسرحية التونسية منذ ما يقارب من عشرين سنة متصلة ، وأطلع على الكثير من الاتجاهات في المسرح العربي والأوروبي ، ومارس العمل المسرحي مع المخرجين ومصممي الديكور والأزياء والأضواء والتوضيب ، وقاسم مشاغل الكتاب والممثلين والمخرجين والاداريين في أوقات الفرح الشديد ، وفي فترات العمل المسرحي وقبله وبعده بفكر مجنون ووجدان محموم ... » .

كما عبر المدني عن نهجه العربي الأصيل والحديث ، وعن حرصه على التراث العربي وابداعه وتجديده ومزجه بقضايا العصر وثقافته ، في تقديمه لشخصيات مسرحيته « رحلة الحلاج » ، بقوله : « لقد تدبرت أمر الشخصية في الآداب العربية القديمة ، ووقفت على ما ذكرته المعتزلة في شأن الشخص ، وربطت ذلك بما صرحت به بعض الملل والنحل مثل المجسمة ، وتأملت في عدد من كتابات المعاصرين ، وتتبعت عن كثب علم تحليل النفس ، وتقلباته المستفحلة ، وشاهدت الناس في الشارع ، والبيت ، والمصنع ، والسفر ، ومازلت في ذلك أرقبهم . فطويت جانباً شخصيات كورناي ، واقتفيت أثر شكسبير ، وعرجت على بيرانديللو ، وارتحت لبريشت ، لكني مع ذلك ظللت أبحث عن الشخص ، وأفتش عنه ، وهاإني أنقب عنه في هذه الرحلة المسرحية . وإني أترك للقارئ وللجمهور استكشافه . »

هذا هو نهج وفكر عزالدين المدني ، الفنان العربي الأصيل المتوهج والمدقق والمجدد والمقل في إبداعه المسرحي ، لأنه يستغرق سنوات وسنوات في كتابة المسرحية الواحدة . فقد ذكر في ختام مسرحيته « الغفران » أنه كتبها « بعد ثمانية أعوام من الطلب والوجع والنقش والمراجعة » ، كما قال لي عن أحدث مسرحياته ، « على البحر الوافر » ، إن كتابتها استغرقت خمس سنوات وتطلبت ٢٥ مسودة . ذلك أنه كاتب صبور ومدقق وحريص على أن تأتي الكلمة « كالكريستال » متألقة وثمينة وفي صميم موضوعها . غير أن دأبه وانتظامه وإخلاصه وجنونه بالمسرح العربي أثرى هذا المسرح بمسرحياته التراثية المتعددة والمتميزة : « ثورة صاحب الحمار » ، « ديوان ثورة الزنج » ، « رحلة الحلاج » ، « مولاى السلطان الحسن الحفصى » ، « التربيع والتدوير » ، « تعازي فاطمية » ، « الأسد والثور » ، و « على البحر الوافر » .

الحوار ...

وفي هذا الحوار ، الذي دار في القاهرة لدى مشاركة المدني في احتفالات المسرح القومي



المصري بيبوبيله الذهبي ، نتعرف على خصائص عالم عزالدين المدني الفكري والفني والأدبي ، ونحاول النفاذ إلى جوهر تجربته المسرحية التراثية ومفاهيمه للأصالة والحداثة والمعاصرة ، كما نتابع رؤاه لطرق إبداع المسرح العربي الأصيل والحديث ، ونطالع آراءه في تجارب تأصيل المسرح العربي المعاصرة وردوده الرصينة على نقاده ، في حوار يجمع بين العمق والتنوير والشجاعة في التعبير وقوة الايمان بالحضارة العربية الإسلامية ...

وعندما يتحدث المدني فإنه يبدو كالحالم والسابح مع الرؤى ، ولكنه يتكلم بحماسة وإيمان ، فتبرق عيناه وتلمعان بذكاء وحيوية ، وتعكسان مدى إيمانه وإخلاصه لقضايا العروبة والأصالة العربية الاسلامية .. انه يرد كل شيء إلى العرب القدماء ، ولكنه يؤكد على التجديد لاستلهام والخلق والابداع ، ويرفض النقل والتقليد والتبعية .

وهذا هو نص حوارنا معا :

الشخصيات التراثية

• في إبداعك المسرحي تظهر الشخصيات التراثية العربية في صور جديدة مغايرة لصورها القديمة الواردة في مصادر التراث العربي ، كما هو الحال في مسرحيات « الغفران » و « رحلة الحلاج » و « ثورة صاحب الحمار » .. ما هو نهجك ورؤيتك في هذا المضمار؟

ــ الشخصيات المسرحية التي أتناولها في هذه الأعمال لها سمات وخصائص تراثية ، صحيح . لكن كيف يمكن لي أن أقرأ التاريخ ، هل أقرأه من حيث هو تاريخ ؟ أم أفهمه من خلال حاضر أراه ؟ إذن فالحاضر هو الذي يتحكم في الماضي ، ويتحكم في التاريخ ، ويتحكم في التراث . فالحاضر هو الذي يستطيع أن يبين ويفسر ويشرح ويغوص في قضايا كثيرة . إذن ، في اعتقادي ، أن هذه القضية تستحق الكثير من التحليل . لكني أقول بإيجاز إن نظرة الحاضر هي التي تتحكم دائماً وأبداً في الماضي ، من حيث تناول الشخصية ، من حيث المميزات ، من حيث الصفة ، من حيث الإبداع بصفة عامة .

الخذلان والتقهقر

• بماذا تفسر سقوط البطل الثوري في مسرحياتك مثل « ثورة صاحب الحمار » و « ديوان ثورة الزنج » ، و « رحلة الحلاج » ؟

ــ في الحقيقة ، في « ثورة صاحب الحمار » هو يشبه نفسه بالثوري ، بينما هو ليس كذلك ، فهو شخص معزول عن الشعب ، عن الارادة الشعبية ، فهو ليس ثورياً بالمعنى الحقيقي ، بل قام بانتفاضة فقط ، والانتفاضات مآلها الفشل . طال الزمن أو قصر . وهذا ماقالته المسرحية في « ثورة صاحب الحمار » .

وفي مسرحية « ديوان ثورة الزنج » ، علي ابن محمد ليس ثورياً ، ولاهو مصمم من حيث المبادئ والقيم . فقد انحرف من أول طريق عن المسار الحقيقي ، وتراجع تراجعاً كلياً ، واستفاد من الأموال الخارجية ، وإذا به يتعاقد مع السيد الذي كان يستولي عليه من قبل .

فهناك خذلان وتقهقر وتراجع . هذه الثورية ليست ثورية في الحقيقة . لكن ممكن أن أسمي شخصيات مسرحياتي بأشباه الثوريين ، سقوط أشباه الثوريين ، ليس الثوريين الحقيقيين ، لأن الثوريين الحقيقيين ، سواء كانوا في التاريخ أوحتى في المسرح ، هم قليلو العدد . الشيء المتميز الأخاذ ، الشيء القوي هذا قليل نادر جداً ، في عصر يأتي عبقري واحد أو اثنان فقط ، ثوري معناه يمهد الطريق ، يعطي الأفكار ، يكون مشعاً إشعاعاً ، ويكون منصهراً هو وشعبه ، وهذا شيء قليل ونادر جداً .

والحلاج شخصية مثيرة ، مات في سبيل أفكاره وهو نموذج قليل جداً في الحضارة العربية . وأنا مبهور به إلى يومنا هذا . ولو أن الكتابة تمحو الانبهار . حينما يكتب الانسان كتاباً يتجاوز نظرته . أنا ما زلت إلى يومنا هذا منبهراً بهذه الشخصية . وحاولت بكل وفاء لا أن أكتب عن الحلاج من حيث هو التاريخ ، الحلاج التاريخي لا يهمني ، ولا يهم المتفرج ، لكن الحلاج هذا الذي يعيش في القرن العشرين ، هذه هي القضية ، الحلاج هذا هو الطرح الذي طرحته ؛ هي الأفكار الثورية المعمقة التي يمكن أن تطرح في بلدان العالم الثالث ، في هذا العالم المتخلف الذي يريد أن يكون متقدماً من ناحية القيم ، من الناحية الثقافية ، من الناحية الاقتصادية ، من الناحية الحضارية ، هذا شيء مهم جداً . وأنا إلى يومنا هذا معجب شديد الاعجاب بالحلاج .

الأصالة العربية

• في تقديمك لمسرحيتك « ديوان ثورة الزنج » ، قرنت مصطلح « الأصالة » بكلمة « المزعوم » ، فما هو قصدك بهذا التعبير؟ وماهو مفهومك للأصالة ؟

ــ الأصالة هي في الحقيقة أصالات . لا توجد أصالة واحدة ؛ هي متعددة ، هي مستويات متعددة في الحضارة ، متكدسة على بعضها البعض . لكن في آن واحد متطورة تاريخية ، نحن أصالتنا من هذا القبيل ، من



يوسف ادريس


الطيب الصديقي

■ يوسف ادريس لم يخلق شكلاً عربيّاً للمسرح!

■ لابُدّ من زرع شجرة الثقافة في كل بلد عربي

■ الطيّب الصدّيقي فنان كبير.. وليس نصّاباً!

■ في تونس أدباء كبار مثل المسعدي ومحمد مزالي

■ النّصّ العربي الأصيل يختلف عن النموذج الغربي

هذا النوع . من هذا الحجم أيضاً . أصالتنا العربية . أصالتنا فيها الأماكن المشعة . الأماكن النيرة . والمناطق النيرة . غير مناطق الأصالة التي هي بمعنى التأخر وألا يعيش الانسان في عصره . الأصالة التي أعنيها أنا هي أن يعيش الانسان في صلب عصره . مندمجا فيه كل الاندماج . كما عاش العرب مثلاً في عصرهم . في مختلف العهود . عاشوا عصرهم وتفاعلوا معه . إذن فأنا أعيش عصري . لا أقلد الماضي . بل أنحت في الحاضر وأمشي نحو المستقبل بثبات وصمود وبنضال . هذا المعنى غير معنى الأصالة بمعنى الشيء القديم الرث الشائع المتداول المبتذل . هذا هو الأساس .

لا زعامة أدبية

• قلت في بيانك الثاني عن الأدب التجريبي : إن المبادئ الأساسية التي يعتمدها الأدب التجريبي هي رفع الحواجز الفكرية التي ظلت تهيمن على القرائح والمواهب طيلة سنوات وتعطلها في سيرها نحو الخلق . وتبعث فيها عقد النقص ومركبات الاحتقار الذاتي . فهذه الحواجز التي كانت ترد علينا من أوروبا الغربية (وبالخصوص من فرنسا) ومن المشرق العربي هي التي كان لها النصيب الأوفر في تثبيط العزائم الصادقة ، وهتك المواهب الخلاقة . وتخريب الطاقات المبتكرة . وهي حواجز لابد من كسرها ورفعها لأنها كانت مهيمنة على الأذهان . وكان من مبادئ البيان الأول لك سلوك طريق ثالثة هي طريق الواقع التونسي . والمجتمع التونسي . والتاريخ التونسي ، والمعاصرة التونسية ، والخلق التونسي ، هي طريق التونسية بكل اختصار . وكان من المبادئ أيضاً وما يزال إبراز الشخصية الأساسية التونسية التي وأدها الانحطاط والاستعمار ... فماذا تقصد بهذا الهجوم على الثقافة في المشرق العربي ، وبموازاتها بالثقافة الغربيةالاستعمارية ، وبتأكيدك الاقليمي على التونسية والشخصية التونسية ؟ وهل يتفق هذا مع دعوتك لتأصيل الثقافة العربية ومسرحياتك المستمدة من التراث العربي الواحد ؟

ــ شكراً على هذا السؤال . أنا لازم أضع كلماتي الواردة في هذا السؤال في سياقها التاريخي ، لا أريد أن أبرر الأفكار . ولكن أريد أن أضع هذه الأفكار ، التي كتبتها منذ أكثر من خمسة عشر عاماً ، في نطاقها التاريخي . لم يكن هناك في تونس سوى أدب قليل ، تونسي . كان هنالك رواد ، وكانوا يكافحون ويناضلون من أجل أن تخلق بذرة أدبية فكرية من تونس . فلا مراجع فكرية غير كتب مشرقية وكتب غربية . لا أعني بذلك أني أهاجم الشرق ، لا ليس هذا هو المعنى ، ولكن المعنى هو حين يأتيك ناقد من تونس أو يريد أن يكون ناقداً ، ويقول لك ليس عندك كلام أمام العقاد وأمام طه حسين وليس عندك أي شخصية . هذه هي القضية الأساسية ، ومعناها تقديم الشرق من خلال بعض الناس المتمشرقين بتحيز لطمس معالم الفكر الثابت في تونس .

كانت عملية تغريب ، عملية استلاب ، فكنت أنا أهاجم هذا الاستلاب .. ممكن يكون طه حسين ، ممكن يكون مردم بك في الشام ، ممكن يكون الكتاني في المغرب ، ممكن يكون كاتب ياسين في الجزائر ، في أي مكان ، في ليبيا ، وفي تونس أيضاً .. لنعترف أن في تونس هناك محمود المسعدي ومحمد مزالي ، وأن فيها ناساً مفكرين ، ولكن الاخوان الذين كنت أهاجمهم كانوا يقولون لا محمود المسعدي ولا مزالي ولا شيء مثل هذا . هذه هي القضية الأساسية الجوهرية التي أردت أن أقولها لك لأوضح سر هذه الكتابة من أساسها . لماذا انطلقت لمهاجمة ناس لم تكن لديهم شخصية .

فنحن لا نستطيع أن نكتب الثقافة العربية إلا بجميع روافدها ، هنا رافد مصري ، وهناك رافد تونسي ، وهناك رافد مغربي ، وهناك رافد لبناني .. الى غير ذلك . لا أقول هناك ثقافة مشرقية فقط عند العرب ، لا ، هذا غلط . إذن هي دعوة ثانية الى الروافد لبناء شخصية عربية إسلامية في الحاضر ، هذا شيء أساسي . ومن خلال هذه الكتابة تفتحت عيون الكتاب ، من جيلي أنا ، على الواقع المحرق في تونس . ماذا في تونس . صور لي الخباز ، وصور لي العامل ، وصور لي المؤسسة ، وصور لي البيروقراطية ... لأن الواقع في تونس هو جزء من الواقع العربي ...

ثم شيء أخير . هو الهيمنة والوصاية . أنا لا أقبل أي وصاية كانت من أي عربي كان . لأن الزعامة العربية الأدبية فشلت على جميع الأصعدة ، فلا توجد زعامة أدبية ، حتى على أفكار الخلق والابداع . أنا لا أعترف بهذا مطلقاً ، فمعناها أن يأتي واحد ليقول لي ماذا تكتب ، غير معقول الكتابة هي ضد كل وصاية .

• والآن ، هل أنت مصمم على ما جاء في أقوالك هذه التي ذكرتها في سؤالي السابق ؟ أم أنك تجاوزتها ؟

ــ الوضع التاريخي هو الذي تجاوزها ، هو الذي تحرك ، بفضل جهود الكثيرين ، ليس أنا فقط . جهود محمد مزالي في مجلة « الفكر » مثلاً غيرت الكثير ، معناها أن الأخوان من جيلي أنا ، مثلاً رشيد الذوادى صديقنا ، كتب عن الشخصية التونسية وعن شخصيات أخرى عربية .. مثلاً « علي البهلوان » انسان مفكر كبير ، تونسي عاش في الشرق وكتب كتابات جيدة جداً ، ومن



المؤسف أن هذا المؤلف لا يعرف في المشرق العربي.

أنا متأكد أن ثراء ما يقع في الثقافة العربية، في مختلف الزوايا، هذا شيء يسر، وهو أساسي في تنمية وتطوير الثقافة العربية لتكون ثقافة عالمية. هذا هو الأساس.

النص العربي المبدع

• في بيانك التنظيري، نحو كتابة مسرحية عربية حديثة، تحدثت عن أهمية النص المسرحي، وعن النصوص المحاربة والمناضلة، والنصوص المجنونة، والنصوص المغامرة والمجازفة، والنصوص الأغنام والمدجنة.. وكانت كلماتك موجزة وغامضة، فأرجو أن توضح مفاهيمك عن هذه النصوص وعن تعريفك للنص المسرحي العربي والنص في التصور العربي؟

ـ والله هذا موضوع كبير جداً. مثلاً النصوص العربية في يومنا هذا التي تعتمد على تقنيات العرب وبناء الشخصيات العربية، انك ترى فيها الشخصية عربية لأنها تتكلم اللغة العربية فقط، أيا كانت اللهجة تونسية أو مصرية أو مغربية.. لا يهم، انما تتكلم العربية، هذا لا يكفي. ثمة أشياء أخرى، دراسة النفسية العربية مثلاً، من ناحية تركيباتها وتعقيداتها، ومن ناحية قضاياها المصيرية أيضاً، ومن ناحية كيفية التحليل فيها.. معناها أن النموذج العربي يختلف عن النموذج الغربي، وهذا يسمى إبداعاً. أما النصوص الأغنام فهي معروفة، وهي تعني التقليد، تقليد بشع، أي تأخذ قالباً من القوالب وتدخل الطين ويخرج شكل من الأشكال، كشكل بيرانديللو أو شكل بيتر فايس أو غيرها من الأشكال المعروفة.

لكن أن يأخذ هو من تربته العربية فهذا هو الابداع من الطراز الأول. ومعناه أن يأخذ من القضايا العربية، من التربة العربية، من التاريخ العربي، من النفسية العربية، من الوضعية العربية. هذا هو الأساس. وهذه تكون نصوصها رائدة. وهي ما زالت قليلة إلى يومنا هذا. وأنا لا أدعي أني نجحت فيها. لا أدعي، وإنما أحاول دائماً وأبداً. وهذا لا يحتاج إلى جهد كاتب واحد، ولكن يحتاج إلى جهود كتاب كثيرين أيضاً موجودين في الوطن العربي من المغرب إلى عمان، ولاتكفي حياة واحدة ولكن حيوات متعددة، لأن المسرح لا يمكن له في خمسين سنة أو مائة سنة أن يقدم مسرحيا عبقرياً نابغة عنده موهبة كبيرة جبارة. لا، هذا شيء يأتي مع التطور التاريخي في الواقع العربي إلى يومنا هذا. هذا شيء محقق. أنا أتكلم فيه يقيناً.

وهناك النصوص الأغنام، وهناك النصوص الرائدة أيضاً، وهناك النصوص الكلاب أيضاً، وهي أبشع النصوص، هي التي تحرس، ونصوص، والعياذ بالله، نصوص الخونة، ونصوص حسب العرض والطلب...؟!

أما النص العربي في تصوري، فهو النص الذي يمكن أن يفجر الواقع ويعرفه من جديد، وحينما يدخل مثلاً الجمهور المسرح وبعد ما يشاهد يرسم له في فكره صورا ثابتة. لكن صورا توحي له بأفكار عظيمة، أفكار خلاقة، أفكار وصور جميلة جداً. وهذا ليس معناه أن الفكر ليس فرجة أيضاً وأنه قضايا مطروحة فحسب. فحينما تقدم فكراً تقدم فرجة. وبهذا تستطيع أن تقدم شيئاً. ليس معنى الفكر هو الابتئاس واليأس والقنوط والحزن والعبوس. لا ولكن أيضاً أن تقدم الفكر العربي ليكون مبتسماً ومنشرحاً فيه الضحك والنكتة. ولكن فيه الفكر المركز. فكر قوي جبار. هذا هو التحدي.

الترجمة وإعادة الكتابة

• في تقديمك لترجمة مسرحية «اشبيل: «الفرس»، تحدثت عن الترجمة كإعادة للكتابة وكمنافسة. فماذا تقصد بهذين التعبيرين في ضوء تجربتك في إعادة كتابة هذه المسرحية وتجديدها؟

ـ اعادة الكتابة مصطلح يعني بالضبط أن تكون أنت المؤلف الأول. ممكن تعبيري تصوفي، أو فيه شيء من الصوفية.. هي قضية الحلول، أن تحل في بدن الأول وتعيد الكتابة حسب منظار واقعك. هذه هي القضية، مع أنك تأخذ نفس الموضوع. ولكن العرب من قديم قد عالجوا نفس الموضوع بدون أن يقولوا إعادة الكتابة، خذ مثلاً المعارضات في الشعر أو التخميسات، هي نوع من اعادة الكتابة، هذا البيت:

يا ليل الصب متى غده
أقيام الساعة موعده

فكم من نص شعري أيضاً معارض يأخذ من نفس اللغة ونفس البحر ونفس القافية، كثير من القصائد.. أي أن الحصري لم يكن حصرياً واحداً ولكن حصريين كثيرون.. هذا شيء طريف وميزة من مميزات الأدب العربي، لا تجده مثلاً في الأدب الفرنسي، حسب معلوماتي، وانما هذا يختص به الأدب العربي. أو كتاب يناقض كتاباً مثلاً، ككتب الكندي وسواه، أو نقد كتب الراوندي. ولكن هذا يرينا كيف يعمل التفكير العربي. وأنا أردت أن آخذ منه وأن أقتبس منه.

أما المنافسة، مثلاً، تأخذ مقدمة الجاحظ لكتاب الحيوان. فحينما يتحدث الجاحظ، وأنا لا أحفظ النص ولكن أحفظ المعنى، حينما




الفريد فرج



سعدالله ونوس

■ مســرح سـعدالله ونـوس نـموذج لبـريخت

■ قـاسم محمد ممثل ممتاز وكاتب عـربي جيد

يتحدث مثلاً عن مترجم لكتب أرسطو، كما أعتقد، فيشترط الجاحظ أن يكون المترجم من نفس مستوى المؤلف الأصلي للنص. وأنا أراها من هذا الحجم أيضاً. فإذا استطعنا أن نوازن بين المترجم والمؤلف، فهناك أيضاً المنافسة بطبيعة الحال. بذلك تكون الترجمة، كما أراها، منافسة بالدرجة الأولى.

الجاحظ والكتابة العربية

• لك تجارب متميزة في مجالات أدبية وفنية متعددة بالاضافة الى عالمك المسرحي: في كتابة السناريو السينمائي، وفي القصة والرواية، وفي الفنون التشكيلية والخط العربي، وفي الدراسة الأدبية والنقدية.. أرجو أن تحدثنا عن هذه التجارب وعن مدى تأثيرها في عالمك المسرحي؟

ـ هي قضية ترجع الى مفهوم الكتابة. الكتابة ليست تخصصاً، في أن تكتب قصة فقط أو تكتب رواية أو مسرحية أو نقداً فنياً، بهذه المصطلحات. الكتابة هي شيء كلي يهتم بالكليات الابداعية. وأنا من الناس الذين دعوا منذ عشرين سنة الى شمولية الكتابة العربية أي أن تتضامن النوعيات لخلق شكل وسمات ومميزات عربية، وخصائص تعرفها فتقول هذا شيء عربي. لكن هذا يستحق طول نفس على كل حال. الكتابة عندي هي المفهوم الأساسي للأدب أو لشروع ما تكتبه. في النقد الفني أو القصة أو ما الى ذلك..

الكتابة هي الأساس، ولها مواصفات حديثة غير المواصفات القديمة. مثلاً الايجاز: ليس بالمعنى البلاغي القديم، ولكن بمعنى الإفادة وبمعنى جمال الكلمة، بمعنى الشمول أيضاً. فكيف يكون انسان ولا يكون له إلمام بالفنون التشكيلية أو بقضايا النحت وقضايا السينما؟ تكتب مثلاً لأنك تستفيد من السينما، من حيث القص، من حيث المونتاج، من حيث.. كثير من أنواع الكتابة يمكن أن تستغلها في أعمالك الفنية.

في يومنا هذا: أنا أقول بصراحة الكتابة العربية ما زالت متخلفة. لا توجد كتابة جيدة إلا قليلة ونادرة. وأنا لا أحب أن يفهم القارئ أنني أتحدث عن نفسي، ولكني أتحدث عن كتاب آخرين عرب لهم كتابات قليلة جداً جيدة. أنا أتصور كتاباً مثلاً فيهم هذه الأنواع كلها.. أن تكتب مثلاً مثل السيناريو بتقنياته، أنك تعالج القضايا الأساسية. انك تغوص على عمق الفكر العربي. انك تقدم هذا الشيء على المسرح. شيء آخر.. انك تدخل الكتابة العربية في دورة دموية أخرى. غير الدورة المقسمة المجزأة الى يومنا هذا حسب أنواع وأجناس أدبية مختصة. بل بالعكس الكتابة هي حرية، لاتعترف بالشيء التخصصي. تخصص في الموضوع.. هذا شيء معقول، لكن تخصص في الابداع.. لا يوجد تخصص في الابداع، أن يكون الانسان مبدعاً أو لايكون مبدعاً. في الحقيقة هذه قضية ألح عليها.

نوعية الكتابة في يومنا هذا، عندما نقرأ كتاباً لهنري ميلر أو لبروست.. هذه الكتب الأدبية التي صدرت في العشرينات أو الأربعينات أو الخمسينات، هي نماذج أوروبية أنا لا أشاطرها، ولكني أشاطر الجاحظ. فهو يكتب في كل موضوع. وأعتبر أن الجاحظ هو أول الكتاب العرب بهذه النظرة هو وأبو حيان التوحيدي، لأنه له نظرة اندماجية للمعرفة.. أي أن المعرفة تندمج، فروع المعرفة تندمج. هو يكتب في الحيوان، ويكتب أيضاً في البلاغة وفي النحو وفي الشعر وفي الكاريكاتير وفي القصص وفي الحكايات، هذا شيء بديع جداً.

حينما تصعد الثقافة وتصل الى مستوى معين من الرفعة، ومن القوة، ومن المناعة، تحس أن هناك كتاباً أيضاً يريدون أن ينشئوا من جديد الكتابة العربية. وكان هذا يحدث في زمن الجاحظ وفي أزمان أخرى، لذلك تفسير الأدب العربي حسب التقنيات القديمة، بايخ جداً!! فهناك تفسيرات أخرى. وتقنيات أخرى. وقراءات أخرى للأدب العربي. لأن المفاهيم التي نعمل من أجلها في يومنا هذا ونسير في سكتها، في السكك الحديدية المرسومة، هذا خطأ.

• وماذا عن تأثير هذا كله في مسرحك؟

ـ عن «البحر الوافر» مثلاً: أنا كتبتها حسب العروض العربي في ستة عشر بحراً، ثم كتبت كتابة عربية موجزة ليس بها بلاغة. ثم كتبتها من الناحية الشكلية سينمائياً، ثم هناك الصورة، مثلاً مستحيل أن تكتب بدون صورة، مستحيل أن تكتب كلام ثرثرة وأن تعيد محاورات أفلاطون من جديد، مستحيل. ولكن معها أيضاً فكر ومادة فكرية. أنا أعتقد أن هذه المسرحية ممتازة، أعالج فيها قضايا كثيرة ومهمة جداً.

مسرح عربي كيف؟

• هل المسرح شكل أوروبي أو إغريقي وانموذج غربي يحتذى، أم أن لنا مسرحنا العربي الأصيل والمتميز؟

ـ المسرح العربي في حالة ميلاد ومخاض. هناك النموذج الأغريقي، ولكن ليس معناه أن نأخذه أو ننسج على منواله.

• هناك من يقول بأن المسرح أوروبي وأن العرب لا علاقة لهم بالمسرح..

ـ هذه مبالغة، فالعرب عرفوا المسرح، بدليل أن محمد بن دانيال خلف نصوصاً موجودة ونشرت هنا في مصر. هذا معناه، من ناحية الوثائق، إن المسرح العربي موجود. وهناك وثائق تاريخية كثيرة جداً موجودة تثبت هذا. ولكن المواصفات للحفل المسرحي الأوروبي، هذا شيء آخر. هذا نحن اقتبسناه: القرداحي وأبو خليل القباني.. هذا شيء آخر. لكن المسرح كشكل، كعرض، كنوع، كجنس أدبي فني موجود في القديم، لكن المواصفات الحديثة هي الأوروبية. فنحن نطمح الى تغيير هذا النموذج، الى تغييره حسب مقتضيات الواقع العربي المتشعب في يومنا هذا. معناه أن يكون هناك التحام أكثر بين العرض والجمهور، لا من ناحية الموضوع. فهذا مفروغ منه، لكن من ناحية الشكل، ومن حيث الشخصيات التي تقدم على المسرح، أعتقد أن هذه هي القضية.

شجرة الثقافة

• أرجو أن تحدثنا عن مفاهيمك حول الغزو الثقافي والتبعية الثقافية والاستعمار الثقافي والقطيعة المعرفية، التي ترد كثيراً في كتاباتك؟

ـ الغزو الثقافي هو الاستلاب أو الاغتراب بصفة عامة. وأننا في بلد مثل تونس، والحمد



لله . خطونا خطوات جبارة نحو محو الاستلاب . وأنا أقولها بصفة خاصة لأني عشت الثقافة إلى أخمص قدمي ، وأتمنى أن تمحو الأقطار العربية الأخرى هذا الاستلاب ، سواء أتى هذا الاستلاب والغزو من الغرب أو من اسرائيل .. لا توجد ثقافة مستوردة . الثقافة هي ثقافة أبناء البلد ، كالفلاحة والزراعة ، أقولها بكل فجاجة بالمعاني الرديئة ، تكون كالزراعة ، أن تزرع أنت شجرتك . لابد من زرع شجرة الثقافة في كل بلد عربي . أما حكاية الاستلاب والغزو الثقافي فقد طواها الزمن . فمن في يومنا هذا يحتمل غزواً ثقافياً إمبريالياً أو صهيونياً ؟!

أما القطيعة المعرفية فإنها تدعو في نطاقها إلى شيئين ، أولاً القطيعة المعرفية هي فهم أسس الثقافة الغربية ومنطلقاتها ووضعيتها الفسيولوجية ، في محاورها الأساسية ومبادئها ، في المسرح .. من أين أتى المسرح الأوروبي ، فيجب أن يكون المثقف العربي ملماً ، أكثر من المثقف الأوروبي ، بالثقافة الأوروبية ، ومن ذلك يستطيع أن ينفصل وأن ينقطع عن هذه الثقافة الأوروبية ، وأن يؤسس الثقافة الوطنية . هذه هي الفكرة الأولى للقطيعة المعرفية ، أما الفكرة الثانية فهي الانفصال والانقطاع عن الثقافة التي ترجعنا إلى الماضي وإلى عهود التقهقر والانبتات والاستلاب والدوخة الفكرية المريضة من كل المنطلقات .

تجارب تأصيل المسرح

• ما رأيك في التجارب الحديثة لتأصيل المسرح العربي عند الفريد فرج وسعد الله ونوس وقاسم محمد والطيب الصديقي ؟

ـ الفريد فرج اشتغل كثيراً على التراث العربي ، لكن الشكل لديه في أغلبه وفي بداياته غربي .. مسرحياته الأخيرة أحسن بكثير . الطروحات التي قدمها هي طروحات موضوعية في المحور ، في الشكل ، في البنية الفنية . مثلاً في «الزير سالم» نجد المشاهد كلها ، كل مشهد في «الزير سالم» يرجع إلى مسرحية غربية معينة . هذا شيء معروف . لكن مع تكدس تجربته الفنية نظر في قضية الشكل ، وفي البنية ، وقدم أشياء ذات أهمية كبيرة ، مثلاً «رسائل قاضي اشبيلية» قرأتها منذ سنوات وهي جيدة .

أما الطيب الصديقي فقد قدم أيضاً مسرحيته «سيدي عبدالرحمن المجذوب» ، وهي من أحسن مسرحياته من الناحية الشكلية ، ومن ناحية العرض ، ومن ناحية الملابس ..

سعدالله ونوس قدم أيضاً مسرحية «الملك هو الملك» . لكن ، أقولها بكل صراحة ، سعد الله ونوس أقل جرأة من الطيب الصديقي ، من ناحية التكنيك ، لم يكسر التقليد ، لم يتجاوز المرحلة بكل جرأة . أما الطيب الصديقي فقد قدم أكثر من مسرحية ممتازة . وله فخر أنه قدمها بكل جرأة . سعدالله ونوس لديه فكر متقدم ، لكن البنية فيها نموذج خلق ..

• لبريخت ؟

ـ صحيح ، لبريخت . لقد قدمنا مسرحية «الملك هو الملك» في تونس وهم قدموها في التلفزيون السوري بدمشق . ولكن تسلسل الأحداث فيها يعود إلى تسلسل غربي ، بينما في «سيدي عبدالرحمن المجذوب» شيء آخر . وتقنية أخرى . ولباس آخر . وزي آخر . وشخصيات أخرى . بطبيعة الحال «سيدي عبدالرحمن المجذوب» ليس رجل القرن الخامس عشر ، بل رجلنا الآن .

أما قاسم محمد فقد عمل «بغداد الأزل» ، وهي جيدة جداً ، أما العرض فكان ثقيلاً جداً ، لم يكن في مستواه ! لكن الكتابة جيدة ، كتابة عربية اعتمد فيها على المقولات الشعبية ، وهذا هو الممتاز فيها . قاسم محمد انسان يكتب بمهارة كبيرة جداً ، لأنه ممثل ، وممثل من النوع الممتاز القليل والنادر الموجود في الوطن العربي في يومنا هذا ، فهو من أحسن الممثلين العرب .

المقامات والتأصيل

• هل المقامات وخيال الظل والتعازي والذكر وكتابات النويري والأصفهاني أشكال مسرحية عربية يمكن أن تشكل معالم ودعامات مسرح عربي جديد وأصيل ؟

ـ لا ، هي علامات ، هي خصائص ، الذي ينقص هذا هو الكاتب المبدع ، الذي يأخذ هذا الشيء ويتناوله ويبدع منه شيئاً .

• هل يمكن الانطلاق منها وعمل مسرح عربي أصيل ؟

ـ ممكن ، أنا انطلقت مثلاً من طرق الراوي والرواة العرب ثم تخليت عنها ، لم أجد فيها فائدة . المهم بذل محاولات كثيرة ، لأن هذا يستدعي جهوداً كثيرة لمؤلفين متعددين وتجارب بعد تجارب ... لكن الاقتصار على خيال الظل لا يعطي مسرحاً عربياً في يومنا هذا . فمن يعمل مسرحاً عربياً بخيال الظل في يومنا هذا ؟! هذا غير معقول . لكن ممكن الاستفادة منه .. يبقى دائماً وأبداً باب البحث مفتوحاً وليس مغلقاً .. هذا هو المهم ، أن يستطيع كاتب مبدع أن يفتح نوافذ الابداع ويكتب . ولكني أقول بأن هذه ليست مميزات عربية للمسرح ، لأن الأصول عندما ندرسها ، نجد أن أصول خيال الظل مثلاً تركية أو مغولية أو اندونيسية أو صينية ..

• والمقامات أليست حواريات تمثيلية عربية أصيلة ؟

ـ المقامات يمكن هي السمة العربية الوحيدة ، لكن من ناحية السرد لا من ناحية التمثيل فعندما نقرأ نصوص محمد بن دانيال نجد شيئاً آخر . فالعراق ، في تلك الفترة العسيرة التي مر بها محمد بن دانيال في الموصل ، خلقت أشياء متمازجة ثقافياً ومتعددة ، مع السناجقة والتتار والمغول والصليبيين ، مع الثقافة العربية القديمة والتراث العربي ، ثمة أشياء متعددة ... هذا ليس تبريراً سوسيولوجياً لأعماله ، لكنها العلاقة . ممكن نجد خيال الظل في ثقافات أخرى وحضارات أخرى . تبقى هي المقامة . لكن هل الحريري أو بديع الزمان الهمذاني أو سواهما كتبوا المقامات من ناحية التمثيل ؟ لا أعتقد . ولو أن علي عقلة عرسان كتب الكثير في هذه الموضوعات ، وأراد أن يستدل بالمقامات وبغير المقامات على أنه كان هناك مسرح عربي ، ولكني لا أعتقد بهذا .

شكل مسرحي عربي

• في دراسة لمسرحياتك التراثية قال الأديب التونسي الطاهر قيقة ، أن ما كنت وماتزال تصبو إليه من أشكال مسرحية جديدة طريقة تتلاءم مع المسرح العربي ، في مجال

التعبير الجسدي ومجال تعدد الخشبات ومجال التعامل مع الزمن ، لم يحقق بأكمله ، وأنك مازلت تبحث وتبحث .. وأن الهدف واضح لديك ، وهو تخليص المسرح العربي من محاكاة أشكال المسرح الأوروبي التي طغت عليه واستنباط مسرح عربي يستمد جدته من القصة والقصة الشعبية على الخصوص ... ما رأيك فيما قاله الطاهر قيقة ، هل ترى أنك حققت ما استهدفته من ابداع مسرح عربي أصيل وجديد ؟ وما هي خصائص مسرحك العربي الأصيل ؟

ـ خصائص مسرحي مستمدة من التراث كالعروض أو الحكاية الشعبية أو النص العربي القديم أو النصوص التاريخية أو أيضاً من ميكانيزم الفكر العربي القديم أو من الأشياء والعلامات المميزة في التراث العربي الاسلامي . البحث عن الشكل ، هذا صحيح ، أنا الى يومنا هذا أبحث عن الشكل ، وأحاول وأسعى بكل جهدي أن أكتب وأن أحقق هذا . ولكن كما قلت هذا يستدعي محاولات وتجارب كثيرة جداً . فأنا أكتب مسرحية بعد ست أو سبع سنوات حتى أرتبها ، وممكن عمري لا أعرف كم أعيش حتى أكتب ثلاث أو أربع مسرحيات أخرى . لا أعرف ..

• هل توصلت لهدفك أم مازلت في الطريق إليه ؟

ـ والله النقاد هم الذين يقولون هذا أحسن مني . أنا أحس بنفسي أني لم أتوصل . ممكن أكون خطوت خطوة واحدة ، ثم قد يأتي كاتب بعدي ، بعد ثلاثين سنة أو أربعين سنة ، ويقول : عزالدين المدني هذا ماذا عمل للمسرح العربي ؟! ممكن ، هذا شيء غير مستبعد . أنا أقولها بكل صراحة أنا خطوت خطوة فقط ، ولا أقول عملت أشياء . والأفضل أن يقولها النقاد .

• في دراسته لمسرحيتك « مولاي السلطان الحسن الحفصي » أخذ الأديب والكاتب المسرحي الليبي عبدالله القويري على هذه المسرحية أنها « نمطية » ، وأنها خلت من الصراع الدرامي ، وأن خاتمتها لم يعقبها حسٌ مأساويٌ ولم تحدث تطهيراً ، وأنها غيرت من الواقع التاريخي لتونس في القرن السادس عشر ، لأنها فترة خلت من النضال الشعبي .. ما رأيك في أقوال القويري ؟

ـ لا أعتقد هذا ، لأنها تنتمي أولاً الى رباعية (صاحب الحمار ، الزنج ، الحلاج ، السلطان الحفصي) وهي الرابعة فيها كتتويج للثلاث الأخر . أما الخط الدرامي ، أو الحس كما يقول ، فهو موجود من أول المسرحية إلى آخرها ، وهو على مستويين : الأول بين السلطان وابنه حميدة ، والثاني بين السلطان والشعب . وفي النهاية يمتزج المستويان في نقطة معينة من المسرحية ليكون الصراع بين الشعب والغزاة . أما من الناحية التاريخية فهي تحت « الخط العام للتاريخ التونسي » في القرن السادس عشر . وإنني أتعجب ، لماذا لم يدرك صديقي القويري الهندسة الداخلية لهذه المسرحية ، فيما أعرف أنه قصاص كبير ومتميز . فهل أحسب نقده هو من نوع نقد الكتاب لزملائهم ؟!

• في دراسته عن « المسرح التراثي » كتب الناقد التونسي الدكتور الحبيب الجنحاني عن مسرحياتك التراثية قائلاً إنك ألفتها دون تأويل أو تحريف في التراث ، وتقديم رؤية جديدة للشخصيات التراثية ؟!

ـ الدكتور الحبيب الجنحاني ، مهنته التاريخ ، ثم هو أيضاً ناقد أدبي وفكري ممتاز وأنا أوافق على رأيه ، ففيه جانب كبير من الصحة . ولكني لا أستطيع أن أعمم ، فهذا حكم عام ينطبق على أشياء ولا ينطبق على أشياء أخرى .. مثلاً يوجد تأويل كثير عندي ، وتوجد أيضاً صور أخرى غير الصورة النموذجية الأولى ، هو ممكن يسميها انحرافا ، ولكن هناك تعديل بالنسبة للواقع . إذن يمكن هو رأى الشخصيات التي تتفق مع اتجاهه الفكري ، وانني لم أقدم تأويلاً ، والتأويل بالنسبة له يعتبر لا شيء .

يوسف ادريس

• كتب يوسف أدريس ، في مقال بجريدة « الأهرام » ، قائلاً إنه أسبق الكتاب العرب المحدثين في مجال تأصيل المسرح العربي ، وضرب المثل على ذلك بمسرحيته « الفرافير » ، ونفى أصالة المخرج والكاتب المسرحي المغربي الطيب الصديقي ، بل لقد وصفه بأنه « نصاب » ؟ ما رأيك في أقوال يوسف إدريس وفي تجربته المسرحية في مجال تأصيل المسرح العربي ؟

ـ هناك ناس آخرون سابقون عليه في الدعوة لتأصيل المسرح العربي . نحن نعرف في التاريخ الأدبي لتونس مثلاً أن هناك دعوات لتأصيل المسرح العربي في الثلاثينات .. طيب ، ولكن هذا شيء ليست له قيمة كبيرة ، لأن الكاتب عندما يدعو فإن هذا يدخل في اطار حركة ثقافية وفكرية عامة ، لكن المهم في الابداع ، هو النجاح في الابداع ، وخصوصاً في المسرح .

ويوسف أدريس لم يبدع مسرحاً عربياً . أما عن أسبقيته في الدعوة لمسرح عربي فأقول بأنه في الأدب والفن لاتوجد أسبقية ولا أقدمية ، لا توجد أقدمية قدماء المحاربين ، لا يوجد هذا المفهوم . هناك انسان ينجح في إبداعه ، فتكون الطينة عربية ، والشخصية عربية ، والنفسية عربية ، والاطار عربي ، والعرض عربي ، والخلفيات عربية ... وهذا كله غير موجود في « الفرافير » ، هذا شيء معروف .

إذن أعتقد أن ما قاله يوسف ادريس غير جيد تماماً . فالطيب الصديقي ليس بنصاب ، ولكنه فنان كبير جداً . الطيب الصديقي ليس نصاباً بتاتاً . و « الفرافير » ، كيف تنتمي إلى المسرح العربي ؟! أنا لا أعرف ! ممكن الموضوع فقط ، أما التناول .. فهل لأن الشخصيات تتكلم العربية فقط يمكن أن نسميها عربية ؟! ممكن الشخصيات الأوروبية تتكلم العربية . إذن هي مسرحية غربية وشخصيات غربية .. وممكن شخصيات تسمى عبدالله ومحمد وصالح ، ولكنها تظل غربية تفتقد الروح العربية والخصائص العربية .

المسرح العربي رخو

• هل يمر المسرح العربي الآن بأزمة ، ما هي في رأيك معالم هذه الأزمة وأسبابها ؟!

ـ المسرح العربي يعاني من أزمة نمو ، ومن أزمة نصوص خلاقة ، ومن أزمة كتاب مبدعين مغامرين ، ومن أزمة ممثلين شاملين يتمتعون باللياقة البدنية . وهو مسرح رخو يفتقر إلى العظام وإلى الابداع والخلق والمغامرة ! ولكنه تقدم كثيراً في التقنيات .

ومع هذا فأنا متفائل بمستقبل المسرح العربي ، وحتى هذه الأزمات أراها مفيدة وضرورية ، لأنها تحفزنا على التقدم بالفن المسرحي العربي وتجاوز تلك الأزمات . فالأزمات مفيدة للثقافة ، ومامن ثقافة إلا وتعاني من أزمة

أحمد محمد عطية



فدوى طوقان في رحلتها الصعبة

بقلم : علي الخليلي

ان كتب التاريخ المدرسية لاتذكر الا المفاصل الأساسية فى التاريخ السياسى لفلسطين : وعد بلفور ، ثورة القسّام ، نكبة ١٩٤٨ ، والقليل الباهت من أوراق الأحزاب الأقليمية الوطنية . ولكن .. ماذا عن الناس ؟ ماذا عن الفلاحين ؟ ماذا عن الأسرة ؟ ماذا عن المرأة تحديداً ؟ تأتى رحلة فدوى طوقان لتشرق علينا ونحن فى النفق ، مانزال !

جرزيم وعيبال جبلان يحتضنان مدينة نابلس ويصنعان سيرة « جبل النار »[1] فى الجغرافية الفلسطينية منذ مطلع هذا القرن . أما فدوى طوقان ، فتحتضن هذا الجبل كله ، ليس على مستوى المدينة أو الاقليم ، وانما على مستوى « الوطن » الذى يمتد عبر اللغة العربية كلها ، من ابن الرومي والمتنبى ، حتى أحمد شوقى والشابي وأخيها الغالي ابراهيم ، صاعدة من القمقم المفزع ، حتى أقصى رحاب الروح في « رحلة صعبة ــ رحلة جبلية »[2] ، سيرة ذاتية ، تماماً كما هي سيرة الجبل ذاته . فاذا كان الجبل فى ثورته انتج ناراً تحرق المعتدين الغاصبين ، وحقق أسطورة الصمود والبقاء والثبات للشعب الفلسطينى ، رغم أقصى الظروف ، فإن فدوى طوقان في قصائدها ، انتجت ثواراً وفدائيين فى « قصة الكفاح مع العطش والصخر ــ ص ٩ » .

قصة ؟ شاءت فدوى نفسها أن تطلق هذا « المصطلح » على سيرتها الذاتية : رحلتها مع الحلم والارادة والعمل ، ٢٣٩ صفحة من القطع المتوسط . اندفاعة من السطر الاول « ظللت طيلة عمري الأدبي أحسّ بانكماش ونفور من الاجابة على الاسئلة ... » الى السطر الأخير : « ملتاعة ، كئيبة ، آملة ، تتطلع الى ما وراء الافق » ، توكيداً للطريق الشائك الصعب .

التوغل فى هذه الرحلة يبدأ فى زمان قاس جداً : الاستعمار البريطانى والهجمة الصهيونية على فلسطين . وفي مكان أقسى : « سجن الدار » . وقد تداخل هذا السجن الاجتماعى ــ الذاتي ــ بالزمان العنيف لتخرج فدوى الى الدنيا دون « شهادة ميلاد » عادية ! حتى انه فى العام ١٩٥٠ ، حين كان عليها أن تستخرج أول جواز سفر لها ، اضطرت لأن تستعين بشاهدة قبر ابن عم أمها لكى تستخرج من تاريخ وفاة هذا الشهيد الذى رافق تاريخ وجودها فى رحم أمها ، شهادة ميلادها !

من اللحظة الأولى ، من الإجهاض الذي حاولته الأم وهى حاملة بفدوى ، حتى شاهدة القبر التى صارت شهادة ميلاد ، وحتى فقدت ابراهيم فى العام ١٩٤١ ، وفقدان الوطن كله تباعاً فى العام ١٩٤٨ ، والعام ١٩٦٧ ، تتحرك قصة كفاح فدوى طوقان ، تحت أفق من الحزن العبقريّ العظيم . ذلك أن احزان فدوى ليست انعكاساً للذات ــ رغم أهميتها الكبيرة ــ فحسب ، وانما هى أحزان القضية الفلسطينية أيضا . ان « زمان ومكان » فدوى هما بالضرورة ، وبالشمول ، هذه القضية العربية الكبرى . وقد حرصت الشاعرة على هذا الترابط العميق فى رحلتها : « سجن الدار » من جهة ــ حيث تفجرت القوة الكامنة في فدوى الشاعرة ضد القهر الاجتماعى ، وسجن الوطن كله من جهة اخرى ، حيث تكامل هذا التفجر بالواقع السياسيّ ــ الثورى فى فلسطين . ان فدوى المحاصرة بسجن الدار « الحريم » فلا يدرك عنها او منها اخوها أحمد مثلا ، سوى ان تكون « تسلية لزوجته » فى الغربة ، فى مرحلة ثورة ١٩٣٦ ــ ، تتجاوز هذا الحصار المقيت ، وتكتب « قصيدة مبهورة » عن بطولة القائد فوزي القاوقجى :

« بطل الابطال يازين الشباب
هات حدثنا عن الامر العجاب »

(ص ١٠٣) ، وهو تجاوز هام له دلالته التى اكّدت خلْقَ الشاعرة فى مرحلة تالية . واذا كانت هذه « القصيدة المبهورة » قد ضاعت مع قصائد « المحاولات الفاشلة » كما تقرر الشاعرة (ص ١٠٤) فإنها تبقى المدخل ، لنفهم مغزى إصرار فدوى على ايراد نص الشعر للشاعر ابى سلمى ، فى اشارة منها لوعي « الزمان الجديد » الذى بدأ يأخذ مجراه في حياتها ، رحلتها الصعبة .

ان ذاكرة فدوى طوقان بذلك ليست ذاكرة

فردية . ولكنها ذاكرة شعب . ان « الزمانكانية » تخرج هنا من إطار المرأة المقموعة والبيت العائلي المتراكم في ادق التفاصيل : الى إطار مرحلة تاريخية ـ جغرافية هامة جدا من حياة الشعب العربي الفلسطيني ، ومن أرض فلسطين العربية . وأحسب أن السيرة الذاتية لشاعرتنا المبدعة فدوى طوقان في تلك المرحلة بالذات ، تصبح ذات أهمية قصوى ، وهي تتحرك في نفق معتم طويل ، مازال مهملاً ، في كتب التاريخ « الرسمية » حتى الآن .

ان كتب التاريخ المدرسية لاتذكر الاّ « المفاصل » الأساسية في التاريخ السياسيّ لفلسطين : وعد بلفور ، ثورة القسّام ، نكبة ١٩٤٨ ، والقليل الباهت من أوراق الأحزاب الاقليمية الوطنية . ماذا عن الناس ؟ ماذا عن الفلاحين ؟ ماذا عن الأسرة ؟ ماذا عن المرأة تحديداً ؟ تأتي رحلة فدوى لتشرق علينا ، ونحن في النفق . مانزال !

واذا قالت لنا فدوى : « لم أفتح خزانة حياتي كلها » ص ١٠ ، فقد شاءت أن تتحدث عن « الكفاح » بصدق وشجاعة ، وبحزن عميق أيضا ، أكثر مما شاءت أن تسرد لنا « قصة رحلة » عن امرأة متمردة تتهم كل الرجال بالعداء .. الخ . لم تسرد فدوى شيئاً من ذلك ، ولم تقسم المجتمع الى قسمين متناقضين : رجالي من جانب ، ونسائي من جانب آخر ، كما يفعل بعض السير الذاتية لبعض « الرائدات الاجتماعيات » . ان أحزان فدوى طوقان فوق هذا « التناقض » الثانوي ، وهي حين تناضل ضد التسلط الاجتماعي من قبل الرجل ، الأب والرجل ، الأخ والرجل ابن العم ، لا تنغلق في أية « عقدة » فقد كان ابراهيم رجلاً بالمقابل .

ومع هذا الوجه المشرق وحده ، بدأ نهر الحياة في قلب فدوى يندفع ، ويفيض ، ويكتشف أصالة الدفاع ضد الانتحار ، الذي كان ـ هذا الانتحار ـ هو « الشيء الوحيد الذي يمكنني ان أمارس من خلاله حريتي الشخصية المستلبة » (ص ٥٧) . كان الشعر ، وكانت الشاعرة : « كنت أقوم بأعمال المنزل وبجيبي دائما قصيدة للحفظ ، أكوي قمصان اخوتي وبنطلوناتهم وانا احفظ الشعر ، أرتب الأسرة وانا احفظ الشعر ، أغسل زجاجات مصابيح النفط وأملأ المصابيح بسائل الاشتعال وانا احفظ الشعر ... » (ص ٧٨) .

هذا التثقيف الذاتي المبدع المذهل قصة هامة كواقع مميّز في صناعة الأسس المبكرة للشاعرة . وهو يستحق الدراسة التامة والمستقلة في متابعة داخل هذه الرحلة الصعبة ، لأنه يوفر الشرط الكامن في فهم هذه العبقرية .

لقد صنعت فدوى عبقريتها بإرادة صلبة ، وعمل مستمر . كان يمكن أن يأخذها طاحون عصر الحريم ، وكان يمكن أن تأكلها الأميّة المتفشيّة ، وكان يمكن أن تنتحر ، وكان يمكن أيضا أن يغفلها ابراهيم في غمرة أحداث حياته . ولكن « البذرة التي تشق الأرض » كانت موجودة في فدوى نفسها ، حتى أصبحت فدوى هي البذرة ، وهي الشجرة ، وهي الأرض ، في زمن مفقود وفي مكان مفقود .

« ان حياة الانسان سلسلة متواصلة الحلقات من الفقدان ، بدءاً من اقصائه من ثدي أمه ، وانتهاء بفقدان الحياة ذاتها » (ص ٣٠) . مع ذلك أصبح الشعر موجوداً ، وأصبحت الشاعرة موجودة ، وبالتالي ، عاد للزمن وللمكان وجودهما ، داخل القصيدة ، داخل الصراع .

لقد سقطت « الشيخة صاحبة الهيبة والسلطة والبوليس السري الذي يعمل لحساب أرباب العائلة .. » (ص ٣٢) وواصلت بالمقابل تلك الأمنية العميقة في نفس فدوى حياتها الصاخبة لأن تصبح يوما « جنكية أو راقصة » (ص ٣٧) . كان الوصال في القصيدة ، وهو بالضرورة رقص وغناء ، يقدر ماهو بالضرورة أيضا ، قضية اجتماعية وسياسية وحضارية كاملة . ان صدق فدوى طوقان هو الذي يقود تلك الامنية ، باخلاص وتفان ، نحو خلود الشاعرة العربية الكبيرة فيها .

لم تتبجح فدوى ، ولم تضخّم « أناها » الى درجة « البطولة » الخارقة : جنكية أو راقصة فحسب ! ، رفضاً قاطعاً للكسل الحريمي الميت بين الجدران . تكتب الشعر من خلال أحزانها . هل هي أحزان « ذاتية صغيرة » ؟ هل تمارس الدجل اذن على مستوى القصيدة ؟ تقول فدوى بصدق باهر : « اذا لم أكن متحررة اجتماعياً فكيف أستطيع أن أكافح بقلمي من أجل التحرر السياسيّ أو العقائدي ، أو الوطني ؟ » (ص ١٣٣ ـ ١٣٤) . لم تكذب في « وحدي مع الأيام » وفي « وجدتها » و « اعطنا حباً » و « أمام الباب المغلق » و « الليل والفرسان » و « على قمة الدنيا وحيداً »[4] . ان قصائدها في كل مجموعة تؤشر لهذا الصدق الباهر . فقد أعطت في مجموعاتها المبكرة الأولى اشراقات أحزانها داخل السجن الاجتماعي المقيت ، وأعطت في مجموعاتها الأخرى اشراقات روح الثورة ، وقد تكامل لديها الوعي السياسي بالثقافة العميقة ، بالسفر ، بالعلاقات ، بالانتشار ، بالحرية ..

ان « تفجير الحزن » الذي تم على يدي فدوى طوقان ، عبر التفجيرات السياسية ـ الاجتماعية التي زلزلت الواقع العربي كلّه ، جعل منها شاعرة كبيرة من نوع فريد . فهي لم تتكئ على « رأس القضية » لتأخذ شهرتها من هذا الرأس السياسيّ الجاهز في شهرته وعلاقاته وانتشاره . وهي لم تتجمد على « هموم المرأة » لتنال حضورها الاجتماعي الدائم في رحاب « حركة التحرر للمرأة العربية والعالمية » . وانما هي أسست قصيدتها السياسية ـ الاجتماعية بدأب وصبر ، وتطوّر ، واستمرارية فذة دون انقطاع ، من « وحدها » الموحش الكئيب ، حتى الذروة .

ومن الملفت للنظر كثيراً في هذه المسيرة ـ السيرة ـ الرحلة الطويلة الصعبة ، ان فدوى لاتتعلق بـ « الأسماء الكبيرة » حولها . ان شخوص أحداثها تمضي بأجواء شعبية متواضعة محببة ، على حبّة القلب ، تماماً ، من صديقتها الفقيرة الطيبة علياء ، حتى معشوقها الفقير الأسمر الذي طواه الزمن ، دون تذكار واحد ، سوى سمرته وفقره . ان هذه الشخوص الشعبية الطيبة الفقيرة قد أثّرت في صناعة فدوى الشاعرة اكثر مما كان من تأثير النقّاد والناشرين والشعراء الكبار المعاصرين لصبا فدوى . فاذا كان هؤلاء النقاد والناشرون والشعراء قد حققوا صقل اللغة ـ الأداة لدى فدوى ، فإن أولئك « الشخوص » وحدهم قد صنعوا « مضامين » قصائد فدوى .

علي الخليلي

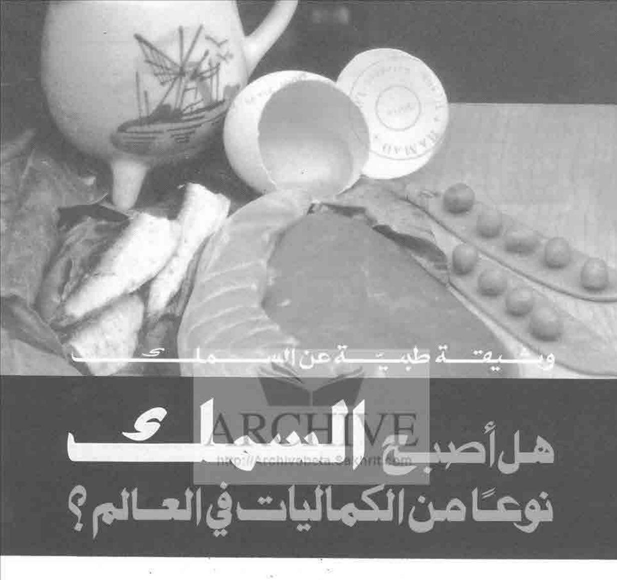
هـوامـش :

١ ـ جبل النار ، تسمية نضالية لحقت بجبل نابلس الذى اشعل الثورة باستمرار ضد الغزاة والمعتدين .

٢ ـ « رحلة صعبة ـ رحلة جبلية » ـ فدوى طوقان ـ منشورات دار الاسوار عكا ـ الطبعة الاولى حزيران ١٩٨٥ ، وقد قدم لهذه الطبعة الشاعر سميح القاسم .

٣ ـ من المعروف ان موشيه ديان وزير الحرب الصهيوني الأسبق ، قال « ان قصيدة واحدة لفدوى طوقان كافية لصناعة عشرة فدائيين » .

٤ ـ عناوين مجموعات شعرية للشاعرة فدوى طوقان ، صدرت تباعاً ، وفي مراحل مختلفة .



وثيقة طبية عن السمك

هل أصبح السمك نوعاً من الكماليات في العالم ؟

عرف الإنسان السمك كمصدر غذائي منذ غابر الزمان ، ووجدت أشكاله محفورة على الحفريات والآثار المكتشفة ، ويمثل اليوم غذاءً عالمياً للملايين في مختلف أنحاء العالم ، وبينما كان صيد السمك وتناوله للغالبية القاطنة بقرب السواحل أمراً ميسوراً صار مع مرور الوقت صعباً ، فالزيادة الواضحة في السكان ، مع رغبة الدول في الحصول على مصادر للدخل ، ومع تطور صناعة السمك ، كل ذلك وغيره ، أدى إلى صعوبة الحصول على السمك الطازج وبالأسعار المناسبة ، لدرجة أنه أصبح في غالبية البلدان بمثابة نوع من الكماليات ، فبعض الناس في تلك البلدان ـ للأسف ـ لا يستطيعون تناول حتى سمكة صغيرة ولو مرة واحدة في الأسبوع ، وهذا إضافة إلى أنك لو ذهبت لتناوله في أحد المطاعم في أي مكان فإن أول ما يواجهك هو فرق الأسعار بينه وبين بقية المواد الغذائية !









سمك الكنعد

بقلم
الدكتور: عبدالله الباكر

إن مشكلة الحصول على طبق طازج من السمك قد تتفاقم أكثر، فسكان العالم كانوا ٤،٣ بليون شخص في عام ١٩٨٠، ومن المتوقع أن يصلوا إلى ٥،٣ بليون في عام ١٩٩٠، وتقدر كمية السمك التي نستخرجها من البحار والبحيرات والأنهار وبرك السمك وحقول الأرز بما يقارب من ٧٠ مليون طن متري، ولا تزال كما هي منذ سنوات، وهناك نوع من التشاؤم حول امكانية زيادة هذه الكمية، إذ أن هنا كلك إحتياجا إلى زيادة ما يقرب من ١٥ مليون طن في عام ١٩٩٠ لسد النقص، وبالرغم من هذا الاحتياج فإن الرغبة في طرح أكبر كمية من السمك في الأسواق تؤدي إلى ضياع ١٠ ملايين طن كفضلات من جراء التصنيع، ويذهب ٢٠ مليون طن إلى صناعة وجبات الأسماك التجارية المختلفة.

هذا ويعتقد البعض أن مد حقوق الصيد المتفق عليه دولياً إلى ٢٠٠ ميل، والذي قد يساعد الدول الصناعية والشركات التجارية على تحسين دخلها لن يكون إلا وبالاً على المستهلكين في مختلف البلدان، وسيكون أحد أسباب حرمانهم من الحصول على السمك. وسيؤدي إلى استنزاف الثروة السمكية في العالم.

التلف النوعي للأسماك

يتحدث البعض دائماً عن أهمية السمك الطازج وقيمته الغذائية. وفي هذا الصدد لابد أن نقول أنه لا يوجد سمك طازج ١٠٠٪ حسب ما تصفه الكتب إلا أثناء صيده في البحر وأكله في الوقت نفسه! وهذا لا يتوفر فعلا إلا للصيادين أنفسهم! إذ أن التلف النوعي يبدأ في السمكة منذ اللحظة التي تخرج فيها من الماء! لكننا نستطيع القول أن السمك المبرد أو المجمد يكون طازجا أيضاً بشرط أن يبرد أو يجمد رأساً وبعد اصطياده، وهذا هو الذي يحدث لسمكنا الطازج هذه الأيام.

فلقد مكن اسلوب التبريد الحديث سواء بماء البحر أو الثلج أساطيل السمك والجرافات من المكوث في البحار مدداً أطول دون أي تلف نوعي في السمك. أما التجميد فقد أطال المدة أكثر ويعتبر في الوقت الحاضر أهم وأحسن الطرق لحفظ السمك، إذا أنه بالامكان إذابة الثلج عنه وإعادة تجميده دون أن يطرأ عليه أي تلف. وهذا هو الذي يحدث في صناعة أصابع السمك «!!» حيث يخضع إلى عدة عمليات من التجميد والإذابة حتى يصبح في الشكل الذي نراه في البرادات في السوق.

لقد أصبح بالإمكان الآن حفظ السمك الهزيل لأكثر من سنتين والسمك السمين لمدة سنة بالتجميد تحت ـ ٣٠° مئوية، ولربما يكون أكثر بالنسبة للسمك السمين تحت ـ ٤٠° مئوية، والشكل «١» يبين مختلف الدرجات تحت الصفر والمدة التي يمكن أن يخزن فيها السمك.

أما الحفظ بالتبريد فيقاس بالأيام والشكلان (٢، ٣) يوضحان مدة الحفظ في الدرجات المختلفة بالنسبة للنوعين «الهزيل والسمين».

لماذا الحديث عن السمك؟

معروف عن السمك أنه أحد المصادر المهمة للبروتين من الدرجة الأولى: شأنه شأن اللبن ومشتقاته واللحوم والبيض، وهو يحتوي على الأحماض الأمينية الأساسية المهمة لبناء ونمو الجسم وتعويض الأنسجة التالفة في الصحة والمرض.

ويحتوي السمك على عدد من الفيتامينات أهمها فيتامين ا . د وبالذات كبد السمك. ومن الأمثلة المشهورة على ذلك استعمالات زيت كبد الحوت في الأحوال المرضية المعروفة كمرض لين العظام «الكساح» ولهذه الفيتامينات أهمية في الجلد والعيون والأسنان. كذلك فإن السمك غني بفيتامينات «ب» وبالذات «النياسين»، (ب ٦) وتدخل هذه الفيتامينات في العديد من التفاعلات في الجهاز العصبي والجلد وهي مهمة جدا في استقلاب البروتين. ويحتوي السمك ـ أيضا ـ على الفوسفور ويعتبر مصدراً مهماً له، وكذلك يحتوي على الكلسيوم والبوتاسيوم ومعدن السلينيوم الذي يربط الفنلنديين بين نقصه وخطر الإصابة بأمراض القلب والوفاة منها، هذا وتختلف نسب هذه المعادن والفيتامينات

هل أصبح السمك نوعاً من الكماليات في العالم؟

حسب أنواع الأسماك في الوقت الذي يحتوي بعض السمك على ٢٤٠ مجم من الفوسفور نجد أن سمك «التونة» يحتوي على ٧٥٠ مجم منه..

أما الدهون في السمك فبالرغم من معلوماتنا عنها . إلا أنها لم تخرج إلى دائرة الضوء إلا في السنين الأخيرة . ولو فتحت أي كتاب يتحدث عنها فلن يتعدى القول عن كونها تدخل ضمن اضافة سعرات حرارية إلى التغذية ، وأنها تدخل في تكوين الأنسجة ــ وبالذات أغشية الخلايا ــ وفي تكوين الفوسفوليبيدات في جدار الخلية ، وسأحاول في هذه الوثيقة أن أدخل في تفاصيلها وعلاقتها بالصحة التي كثر الحديث عنها أخيراً .

فالدهون عموماً تتكون من أحماض دهنية وجليسرين . هذه الأحماض الدهنية لها دور كبير في اعطاء الدهون طبيعتها . وعلى أساسها نقسم الدهون حسب تشبعها إلى «دهون مشبعة» ، وهذه تشكل غالبية الدهون الحيوانية وتوجد في الشكل الجامد الصلب في درجات الحرارة العادية «حرارة الغرفة» ، أما النوع الآخر فهو «الدهون غير المشبعة أو اللامشبعة» ، وهذه تشكل غالبية الزيوت النباتية ، وتوجد غالباً في شكل سائل في درجات الحرارة العادية . والدهون اللامشبعة إما أن تكون «أحادية اللاتشبع» مثل حامض الأولييك الذي يعرف به زيت الزيتون والذي يكثر استعماله في منطقة البحر الأبيض المتوسط وجرت حوله كثير من الدراسات التي تربط بين استهلاكه وهبوط نسبة الوفاة بأمراض القلب في هذه المناطق . أو «عديدة اللاتشبع» والتي من أمثلتها «حامض اللينولييك» والذي غالباً ما يكون في أكثر الزيوت النباتية المصنوعة من البذور . ويوجد في المرجرين أيضاً و «حامض اللينولينيك» وهو أيضاً زيت نباتي ، ويكثر في النباتات ذات الأوراق الخضراء .

المهم أن الأحماض الدهنية عديدة اللاتشبع «PUFAS» تعتبر «أحماضاً أساسية» أي أنه لا يمكن تصنيعها داخل جسم الانسان ، وتدخل في الأنسجة المهمة مثل الجهاز العصبي والمخ والشبكية وأجهزة الاخصاب والانتاج والأوعية الدموية وغالبية الأعضاء الحيوية . وعلى سبيل المثال يعتبر ٦٠٪ من وزن المخ مجففاً من الدهون ، وأن ٦٥٪ من المادة الرمادية في المخ مكونة من الدهون ، وأن أهم نوع من الدهون فيه هو النوع (DHA) . وهذا يوجد بكثرة في السمك ، فلا غرابة إذا قيل أن السمك غذاء للمخ .

وتبرز أهمية هذه الأنواع من الدهون نتيجة لدخول مشتقاتها في صناعة مواد مهمة تعرف باسم «البروستاجلنديز» التي تدخل في الكثير من التفاعلات في جسم الانسان وتقوم بتنظيمها فيه ثانية بثانية . هذه المشتقات أيضاً أحماض دهنية أشهرها النوع أو ميغا ــ ٣ «3 ــ W» وهو نوعان أحدهما حمض ايكوسانبتانويك «EPA» والثاني حمض دكوسا هكسانويك وينتجان من تحول حمض اللينو ليتيك في الجسم ولكن بكميات اختيارية .

هذان النوعان يوجدان في الأسماك التي تعتبر أهم مصدر لهما ، ويعتبر الحمض الأول EPA أهمها على الاطلاق ، وهو الذي تدور حوله الدراسات والابحاث في الفترة الأخيرة أما حمض اللينولييك فينتج عنه حمض الارشيدونك (AA) وهو من النوع أوميغا ــ ٦ «6 ــ W» ، ويعتبر هذا الحمض الدهني مبيناً في الجهة المعاكسة للأول ، ويدخل في عمليات التجلط ومختلف الأنسجة والبروستا جلنديز واللوكوتريبنز الذي تفرزه كرات الدم البيضاء أثناء إثارتها ، حتى يساعد على التصاقها وانتقالها لمحاربة المواد الغريبة داخل الجسم .

■ هل صحيح أن السمك غذاء لمخ الإنسان؟

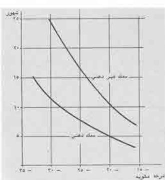
■ الشعوب التي تعتمد على الأطعمة البحرية نادرة الإصابة بأمراض القلب والشرايين

ولكن ما الذي دعى العلماء إلى سبر أغوار هذه الدهون وما هي علاقتها هي والسمك بالصحة ؟

قال الدكتور ستكلير منذ ثلاثين عاماً أن الأمراض التنكسية المزمنة الشائعة في المجتمعات الغربية قد يكون سببها نقص الدهون الأساسية ، وتوالت من بعده الملاحظات والدراسات ، حتى أن المؤتمر الدولي عن الأحماض الدهنية الأساسية الذي عقد في مارس عام ١٩٨٥ ربط الكثير من تلك الأمراض بهذه الدهون .

لقد تكونت على مر السنين قناعة لدى الكثير من الدول الأوروبية وأمريكا بأن هذه الأمراض ومعها القاتل الأول «تصلب الشرايين» والوفاة بأمراض القلب لها علاقة بنسبة الدهون التي وصلت إلى أكثر من ٤٠٪ في الأغذية الحديثة وهي من الأنواع المشبعة بالذات ، ولذا قامت الهيئات الصحية والجمعيات الطبية بدعوة صريحة إلى تقليل نسبة الدهون إلى أقل من ٣٠٪ من الغذاء على أن لا تزيد نسبة الدهون المشبعة والتي تضر ولا تنفع عن ١٠٪ منها والباقي من الدهون الأساسية واللامشبعة . والأخيرة توجد كما ذكرنا في الزيوت النباتية والمهم والصحي منها يوجد في السمك . وهكذا سجلت الاحصائيات انخفاضاً في نسبة الوفيات بأمراض القلب في السنوات الأخيرة في أمريكا ، ولكنها سجلت أيضاً في المقابل من ١٩٧٥ ــ ١٩٨٤ انخفاضاً بمقدار ٢٥٪ في استهلاك الكعك والبسكويت والسكر والبيض والمربى والشوربة المعلبة ، وبمقدار ٥٠٪ في استهلاك الزبد وأغذية الأطفال المعلبة . وسجلت زيادة في استهلاك السمك والدجاج المجمد بنسبة ٢٥٪ ، وبنسبة ٥٠٪ زيادة في استهلاك الخضروات وزيت الطبخ والخبز البني .

وتتابعت الملاحظات حيث جاءت هذه المرة من الدنمارك بعد مراقبة لشعب الاسكيمو في منطقة جرينلند . فلقد تبين أن الاسكيمو يقل تعرضهم للاصابة بأمراض القلب والشرايين والتخثر والتجلط كتعقيدات لهذه الأمراض . وأنهم سريعو النزف عند تعرضهم للكدمات مع زيادة في زمن النزف . هذا إلى جانب قلة اصابتهم بارتفاع الضغط . وتكاد تكون الأمراض المزمنة شبه معدومة . ولقد وجد بالدراسات التي أجريت عليهم أن الكلسترول والشحوم البروتينية والدهنيات عموماً



الشكل (١) يبين مختلف درجات الحرارة تحت الصفر ، والمدة التي يمكن أن يخزن فيها السمك تحت كل درجة

منخفضة لديهم ، وأن الشحوم البروتينية عالية الكثافة (HDL) عالية فيهم وهذا مايبرر قلة اصابتهم بأمراض القلب والشرايين ، وأن نسبة الدهون (EPA) أعلى من نسبة الدهون ، AA ، وهذا ما يبرر/سرعة النزف لديهم ، إذ أن النوع الأول EPA يمنع تكدس الصفائح بمنافسة النوع ، AA ، الذي يلعب دوراً كبيراً في التصاق وتكدس الصفائح الدموية .

وتستنتج الدراسات أن هذا الوضع بالنسبة للاسكيمو لا يخضع لتأثيرات جينية ووراثية ، ولكن سببه في الغالب التغذية ، فهم يعتمدون على المأكولات البحرية من الأسماك والحيتان وحيوان البحر التي تحتوي على كمية من الدهون الأساسية وفي مقدمتها النوع EPA ويقدر استهلاك الزيوت الأساسية في الاسكيمو بسبعة جرامات يومياً .

أما اليابان فلقد وجد أيضاً أن نسبة الوفاة فيها بسبب أمراض الشريان التاجي منخفضة ، وربما يكون السبب هو الاستهلاك العالي للسمك نسبياً إذ يقدر استهلاك الشخص اليومي بمائة جرام ، وأن أقل نسبة لحالات الوفاة في اليابان نفسها في منطقة أو كيناوا حيث يعتبر معدل استهلاك السمك فيها ضعف معدل استهلاكه في بقية اليابان ، ولقد أجريت في اليابان دراسة عن تأثير النوع EPA من الدهون على لزوجة الدم في أشخاص من قرية تعيش على صيد السمك وتمت مقارنتهم بأشخاص من قرية زراعية ، فتبين أن لزوجة الدم تقل بشكل ملحوظ في القرية الأولى عنها في القرية الثانية وأن كمية الأسماك التي يتناولها الأشخاص في الأولى يزيد على ضعفي ما يؤكل منها في القرية الزراعية .

وفي تجربة أخرى تم إعطاء مجموعة من المتطوعين ١,٤ غم يومياً من حمض (EPA) مستخلص من زيت السردين وقد انخفضت لزوجة الدم فيهم بشكل ملحوظ بعد أربعة أسابيع . ولوحظ أن الانخفاض كان أكثر في المتطوعين الذين كانت لزوجة دمهم زائدة قبل التجربة ، كذلك لوحظ أن هناك فرقاً ملموساً في تكديس صفيحات الدم قبل وبعد إعطاء (EPA) ويستنتج اليابانيون من هذه الدراسات والملاحظات أن تناول الأسماك الغنية بالدهون ربما تكون ذات أهمية حين استعمالها للوقاية من وعلاج مشاكل التخثر .

وتتوالى الدراسات عن تأثير زيت السمك (EPA) على النزف وتكدس صفائح الدم ، وتظهر هذه الدراسات أن الأساس هو دخول (EPA) في الفوسفوليبيدات المكونة لأغشية الصفائح وكريات الدم الحمراء ، إذ أن التخثر في العادة يبدأ عندما تتكدس الصفائح فتنتج مادة الثرمبوكسان أ٢ (TXA2) التي تزيد من التصاق الصفائح ، وتؤدي إلى زيادة تقلص الأوعية لاستمرار عملية حدوث الجلطة ، وهذه المادة تتكون من تفاعلات الحامض الدهني AA والاسبرين الذي يتناوله المرضى الآن ويؤدي إلى زيادة زمن النزف يعمل على منع تكوين TXA2 أما إذا كان الحامض EPA متوفراً فإن تكدس الصفائح ينتج عنه TXA3 وهذا لا يؤدي إلى التصاق الصفائح وفي نفس الوقت ينتج مادة البروستاسيكلين PGI3 التي تمنع تكدس الصفائح وتؤدي إلى توسيع الأوعية الدموية بفعالية واضحة .

وفي دراسة من السويد نشرت عام ١٩٨١ أتضح أن غذاء السمك الذي يحتوي على ٢ ــ ٣ جرام من EPA في اليوم يطيل زمن النزف بنفس المستوى الذي أحدثته حبة الأسبرين ، وأن تناول الاثنين ، الاسبرين والسمك ، أدى إلى اطالة زمن النزف بشكل مضاعف ، وأن زمن النزف الذي طال استمر لمدة ٦ ــ ١١ اسبوع حتى بعد توقف التجربة ، بينما كانت غالبية الدراسات عن تأثير السمك على المتطوعين من الأصحاء ومدة المتابعة لم تكن تتعدى الثلاثة شهور حتى عام ١٩٨٠ ، وقد صدرت دراسة من شيفلد استعمل فيها مُركّز من زيت السمك MAX EPA على ١٥٠ شخصا كان من بينهم أشخاص مرضى بالذبحة الصدرية ومرضى مصابين بالاحتشاء القلبي ومجموعة من المتطوعين الأصحاء وتم تتبعهم لمدة ٣ سنوات فتبين أنه بعد عامين من تناول هذه المادة انخفضت نسبة ثلاثي الجليسرايد ، الدهون ، في الدم انخفاضاً ملحوظاً في الأسابيع الأولى ثم تدريجياً فيما بعد ، وانخفضت ــ كذلك ــ نسبة الكلسترول بشكل ملحوظ بينما ارتفعت نسبة الشحوم البروتينية عالية الكثافة (HDL) وزادت سيولة الدم خاصة في المرضى الذين تناولوا جرعات فوق ٢٠ مللتر ، وكان الانخفاض في عدد صفائح الدم ملحوظاً في الستة أسابيع الأولى ، واستمر ذلك تدريجياً خلال الستة شهور التي تلتها ، ثم عادت الصفائح إلى ما كانت عليه بعد ١٢ شهراً ، كما لوحظ في أن المرضى بالذبحة الصدرية قد انخفض استعمالهم لموسعات الشرايين من الأدوية التي توضع تحت اللسان ، وأن قدرتهم على الاحتمال أثناء التمرين قد زادت .

واستكمالاً للدراسات على مرضى الشريان التاجي قام الدكتور (E WARREN) من أمريكا باعطاء خمسة من المرضى ٤٠ مللتر يومياً من زيت كبد الحوت على ثلاث جرعات لمدة ستة أسابيع فوجد أن هناك زيادة في الدهون البروتينية العالية الكثافة HDL مثلما يحدث بعد ممارسة التمارين الرياضية ، وأن نسبة الكلسترول إلى هذا النوع من الدهون قد انخفضت من ٥,٤ إلى ٤,٧ إذ أن الخطورة تزداد عندما ترتفع النسبة عن (٥) ، وأن هناك زيادة في زمن النزف وأن نسبة الدهون EPA إلى الدهون (AA) قد زادت ، وهذا يطمئن إذ أن نتاج ذلك سيكون البروستاسيكلين الموسع للأوعية .

وتوالت الدراسات بعد ذلك واشتركت فيها المانيا بدراسات على المتطوعين سواء باعطائهم وجبات من سمك المكاريل ، الكنعد ، ، أو استعمال زيت كبد الحوت فتوصلت إلى نتائج مشابهة ، وفي ميونيخ أجريت تجربة مختبرية على الحيوانات فوجد أن التي تتغذى على الدهن (EPA) يقل حجم التلف في عضلات قلبها عندما تصاب بالاحتشاء القلبي ، وكذلك الحال بالنسبة للاحتشاء الدماغي .

وقد شهد عام ١٩٨٥ طفرة في هذا المجال حيث صدرت ثلاث دراسات مهمة جداً في هذا المضمار ، لا يزال النقاش يدور حولها ، وكانت أولى هذه الدراسات هي التي قام بها الدكتور ومهوت D. KROMHONT etal من هولندا حيث درس حياة ٨٥٢ رجل من مدينة واحدة منذ عام ١٩٦٠ وسجل بدقة طرق تغذيتهم بسؤالهم أو سؤال زوجاتهم عن ذلك ، وركز بالتحديد على استهلاك السمك في غذائهم ، وتتبعهم في دراسة مستقبلية لمدة عشرين عاماً حيث توفي منهم في هذه المدة ٧٨ رجلاً بسبب أمراض الشريان التاجي فاستنتج

هل أصبح السمك نوعاً من الكماليات في العالم؟

التالي :

١ ـ أن هناك علاقة عكسية بين استهلاك السمك خلال العشرين عاماً وبين الوفاة بسبب أمراض الشريان التاجي .

٢ ـ كانت الوفاة بسبب الشريان التاجي أقل بـ ٥٠٪ في الذين استهلكوا ٣٠ جم من السمك يومياً على الأقل مقارنة بالذين لا يأكلون السمك .

٣ ـ أن كمية ٣٠ جراما بالرغم أنها قليلة مقارنة بالذي يستهلكه الاسكيمو واليابانيون إلا أنها ذات مفعول في الوقاية .

٤ ـ أن أي نوع من السمك ، قد أحدث هذه النتيجة حتى السمك الأبيض والأقل في كمية الدهون والدسم .

وقال في نهاية الدراسة « بالرغم من عدم وجود تفسير شامل للعلاقة بين تناول السمك وقلة الاصابة بأمراض الشريان التاجي ، إلا أن ما يتوفر من معلومات في الوقت الحاضر يدعونا على أساس من الحكمة أن ننصح بتناول وجبتين من السمك أسبوعياً للوقاية من هذا المرض » .

وبعد هذه الدراسة في سبتمبر من نفس العام اتضح للدكتور شيكل ومجموعته ، بناء على ما وجدوه في دراستهم على موظفي شركة الكهرباء الغربية في شيكاغو ولمدة ٢٥ عاماً أن نتائجهم الجديدة والمتجمعة لديهم تؤيد رأي الدكتور كرمهوت في أن السمك له علاقة عكسية بالوفاة بسبب أمراض الشريان التاجي وغيرها من الأسباب .

أما الدراسة الثانية فلم تكن أقل شأناً حيث قدمها الدكتور (B.E.PHILLIPSON etal) من جامعة أوريجون ، وفيها قام بدراسة ٢٠ من المرضى بزيادة ثلاثي الجليسرايد « الدهنيات » HYPERTRIGLYCERIDEMIA ، عشرة منهم مرضهم من الدرجة الثانية المعتدلة والعشرة الآخرين من الدرجة الشديدة أو النوع الخامس ووضعهم على ثلاثة أنواع من الأغذية الدهنية لمدة ٤ أسابيع لكل نوع من الغذاء فوجد أن غذاء السمك قد أثر تأثيراً واضحاً في تخفيض الكلسترول والدهنيات معاً ، وأنه أكثر وضوحاً في تخفيض هذين الاثنين في النوع الشديد من المرض . وتعتبر هذه الدراسة شيئاً جديداً إذ أن الطرق العلاجية السابقة كانت تدعو إلى منع هؤلاء المرضى من تناول المواد التي تحتوي على الدهون لكن هذه الدراسة تفتح احتمالات علاجية جديدة للمستقبل ، وهي أيضاً في نفس الوقت متناسقة مع دراسات سابقة بينت أن استهلاك زيت السمك أدى إلى خفض انتاج « الأحماض الدهنية » والشحوم البروتينية الهابطة الكثافة جداً من الكبد بشكل ملحوظ .

أما الدراسة الثالثة التي نشرها (T.H.LEE etal) فهي تختص بعمل إضافي جديد للدهون الأساسية وهو عملها على كرات الدم البيضاء حيث بين أن زيوت السمك تؤدي إلى خفض عمل الكرات البيضاء « المتعددة الأشكال » POLYMORPHNUCLEAR ، والوحيدة « MONOCYTE » في الانسان العادي وقد استند على نفس الفكرة الفسيولوجية في التفسير . فالذي يحدث في الصفائح هو أن نتاج دهن (EPA) هو (TXA3) و (PG13) المختلفان لالتصاق الصفائح فإن نتائجه هنا هي نوع من المواد يعرف باسم (الليكوترين ـ ٥) وهذه المادة مشابهة (لليكوترين ـ ٤) الفعالة التي تفرزها كرات الدم البيضاء لكي تساعدها على التصاقها بجدار الأوعية ثم انتقالها إلى مكان الالتهاب أما الليكوترين ـ ٥ فإنها تقلل من هذه الفعاليات ، وبناء على ذلك استنتج الباحث أن الغذاء الغني بالسمك أو بزيوت السمك ربما يكون له دور في مقاومة الانتفاخ والالتهابات . وبذلك فتح باباً جديداً . وقد يكون السمك في المستقبل بديلاً للاسبرين أو الأدوية المضادة للالتهابات كالكورتيزون وغيره .

■ دراسة هامة تنصحك بتناول وجبتين من السمك أسبوعياً للوقاية من أمراض الشريان التاجي

■ زيت السمك يؤدي إلى نقص في نمو خلايا الثدي السرطانية

هناك أيضا دلائل أولية على احتمال استغلال هذا الأمر في علاج حالات الصدفية والشري الجلدي باستعمال زيت السمك .

أهمية زيت السمك

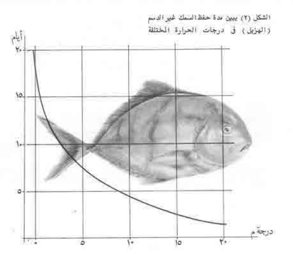
ان دور زيت السمك في التأثير على حركة وفعالية الكرات البيضاء في الدم وبالذات الخلايا الوحيدة له دور أيضا في مقاومة تصلب الشرايين ، فالمعروف أن الخلايا الوحيدة عندما تنتقل إلى مكان الالتهاب تنتفخ ويتضاعف حجمها وتتحول بعد ذلك إلى الخلايا البلعمية « MACROPHAGE » ، وهذه الخلايا بدورها تقوم بدور الكنس لجميع المخلفات ، وهذا الذي تصنعه عند وجودها في جدار الأوعية الدموية حيث ترسب الكلسترول وتجمعه فيها مع بقية الشحوم البروتينية ، وهناك احتمال أيضا ، في أنها تفرز عوامل لنمو وتكاثر الخلايا العضلية الملساء في جدار الأوعية ، وكل هذه العوامل المساعدة للتصلب ستقل إن لم ينته حدوثها إذا كان تأثير (EPA) على الكرات البيضاء هو فعلاً ما أكدته الدراسة الأخيرة .

هل ننصح بالسمك ؟

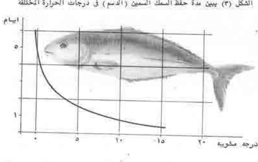
وهكذا يتضح في أن النتائج التي توصلت إليها غالبية الدراسات سواء على الحيوانات أو المتطوعين من الأصحاء والمرضى والتغيرات التي سجلت في الحالة الوظيفية أو البيوكيميائية كلها تشير إلى أن للسمك دور صحي وبالذات في أمراض القلب والشرايين ، فهل ننصح بتناول السمك ؟

نعم .. يقول ذلك الدكتور وليم هاريس والدكتور وليم كونور وهما من الباحثين البارزين في مجال الكلسترول وأمراض القلب .

ان وجبة السمك إلى جانب فوائدها الجمة ، فهي سهلة الهضم وينصح بها في حالات انزال الوزن أو المحافظة عليه ، فهي قليلة السعرات الحرارية ، فعلى سبيل المثال إذا تناولت عصير برتقال يوجد في كل ١٠٠ جم منه ١٣٣ سعرا حراريا ناتجة من ٣٣ جراما من المواد السكرية و٢,٢ جراما من المواد البروتينية ، وفي ١٠٠ جم من فطيرة الدجاج



الشكل (٢) يبين مدة حفظ السمك غير الدسم (الهزيل) في درجات الحرارة المختلفة



الشكل (٣) يبين مدة حفظ السمك السمين (الدسم) في درجات الحرارة المختلفة

٢٣٦ سعرا حراريا من ٢٤ جم من المواد النشوية و٩،٩ جرام بروتين و١٢،٩ جم من الدهون ، بينما تناول ١٠٠ جرام من سمك « الرينبوتراوت » يعطي ١٠٧ سعرات حرارية من ٢٠،٧ جرام بروتين ، وهذه كمية جيدة إذ انها تعادل ثلث احتياجنا اليومي منه وبه ٢،٧ جم من الزيوت والتي لها دور صحي ، لكن إذا أكلت ١٠٠ جرام من أصابع السمك المطبوخ فستحصل على ١٧٩ سعرا حراريا من ١٦،٦ جم بروتين و٦،٥ مواد نشوية ، طبعا مضافة في التحضير ، و٨،٩ جم دهون .

السمك وعلاقته بالسرطان

على الرغم من أن بعض الدراسات الوبائية ربطت بين هبوط نسبة الكلسترول والزيادة في سرطان القولون ، إلا أن أغلب الدراسات أظهرت أن تناول الدهون والكلسترول بكميات كبيرة لا تقلل من فرص الإصابة بالسرطان . وأن مجموعة من الدراسات المجمعة لم تظهر أي ارتباط لهذه العلاقة بل على العكس إن الرأي الذي لا يزال قائما حتى الآن هو أن ارتفاع نسبة السرطان في القولون سببه هو التغذية الغربية التي تعتمد على نسبة عالية من الكلسترول والدهون المشبعة وقليل من الألياف ، ولهذا السبب أيضاً ترتفع بينهم نسبة الإصابة بأمراض القلب ، وأن بين الاثنين السرطان وأمراض الشريان التاجي عاملاً مشتركاً هو ارتفاع استهلاك الدهون والكسترول .

أما بالنسبة للسمك فإنه على الرغم من أن دراسة (Kronbout) لم تتناول علاقة تناول السمك والأمراض الأخرى غير إصابة الشريان التاجي ، فإننا نستطيع القول إن تناول كميات كبيرة من السمك بقصد منع أمراض الشريان التاجي يمكن أن تكون أيضا مفيدة في الوقاية من السرطان والوفاة منه ، فقد أشار Kronbout إلى دراسات تذكر أن أكل السمك في جرينلاند واليابان يرتبط أيضا بمستوى منخفض من إصابات سرطان الثدى بالاضافة إلى انخفاض مستوى اصابات الشريان التاجي ، فمثلا في الاسكيمو الذين يعيشون في جرينلاند تشكل الدهون والتي معظمها من السمك ٧٠٪ من مجموع السعرات الحرارية التي يتناولونها ، وتقل عندهم الاصابة بسرطان الثدى بشكل كبير عن الدانمارك التي تشكل الدهون ٤٠٪ من مجموع السعرات الحرارية والتي معظمها ليست من السمك مثل الأمريكيين ، أما في اليابان التي تعتبر من أقل بلدان العالم اصابة بسرطان الثدى فإن الدهون تشكل ٢٠٪ من مجموع السعرات الحرارية ، ونصف هذه الدهون من السمك . لذلك فإننا نستطيع القول بأن تناول السمك الدهن يقلل من الاصابة بسرطان الثدى .

أما سرطان الأنف والحنجرة والغدد اللعابية في جرينلاند وسرطان المعدة في اليابان فيعتبران من أعلى النسب في العالم ، إلا أنه لا يوجد دليل على أن للسمك علاقة بذلك ولكن قد يكون لطريقة تحضيره مثل السمك المدخن أو المجفف علاقة بالسرطان لوجود مادة النايترات التي إذا تحولت إلى مادة النيتروزمين تصبح مادة مسرطنة .

لقد أثبتت الدراسات المختبرية أن زيت السمك يؤدي إلى نقص في نمو خلايا الثدى السرطانية ، كما أن زيت السمك وليس لحمه كان فعالاً في تقليل الاصابة بسرطان البنكرياس ، وحسب المعلومات المتوفرة حتى الآن لا يوجد دليل على أن زيت السمك يزيد من الاحتمال بالاصابة في السرطان .

بناءً على الملاحظات والدراسات في السنوات الأخيرة قامت الكثير من الهيئات الصحية بنشر جداول كبيرة عن أنواع السمك الموجودة فيها ، وعن النسب التي تحتويها من البروتينات والزيوت بأنواعها مركزة بالذات على الأنواع التي تحتوي على كمية أكبر من (EPA) وعلى سبيل المثال فإن السردين ، التونة ، السلمون ، الحوت ، التروت ، المكاريل ، الكنعد ، الهرنج ، وحيوان البحر تعتبر من الأسماك السمينة الغنية بالزيوت ، أما بقية الأسماك فتحتوي على نسب متفاوتة منه .

بودي بعد أن دونت ما أعتقد أنه يستحق التدوين في هذه الوثيقة عن السمك ، أن أكون قد وضعتك في مكان تستطيع منه أن تجيب بنفسك أو تتحدث مع الذين حولك عن السمك وعن علاقته بالصحة حيث تقع عليك مسئولية المناقشة .. واتمنى بعد تلك المناقشة أن تقول نعم مثلما قالها غيرنا من العارفين لفوائد السمك ، فوقتها سأقول لك : على بركة الله ، وهنيئاً لك ما تختاره من طيب السمك وطازجه من أجل الصحة .

عبد الله الباكر

وصلتنا هذه الرسالة والقصيدة المرفقة بها من الأديب الشاعر «عمار جحيدر» من ليبيا ، والدوحة تنشر الرسالة والقصيدة مع اعتزازها بأن يكون بين أصدقائها أمثال الأديب صاحب الرسالة والقصيدة ، كما تأخذ الدوحة على نفسها وعداً بأن تعمل على تنفيذ الاقتراحات القيمة الواردة في الرسالة في أعدادها القادمة .

في ظلال الدوحة

رسالة وقصيدة مُهداة إلى روح العالم الفقيد عبد المحسن صالح

تحية عطرة وبعد ، فإن أصدق ما أبدأ به سطوري الأولى اليكم هو أنني من قراء الدوحة (العشاق) الذين يجدون في قراءتها تواصلاً أدبياً رفيعاً ، إنَّ من أمتع الساعات في أيامي تلك التي أجلس فيها إلى كل عدد جديد منها مستغرقاً في مقالاتها وقصائدها وتحقيقاتها الأدبية ، ومقالاتها ولوحاتها الفنية الرائعة .. لقد استمتعت حقاً بتلك اللوحات الجميلة ، وسرتني ما يكتبه الاستاذ الشاروني عن أعلام الفن التشكيلي العرب المعاصرين ، وهو ما يقف بجدارة إلى جوار تلك اللوحات العالمية التي يقدمها الفنان الاستاذ جمال قطب . لقد اعتزمت الكتابة اليكم منذ شهور عن (طلب فني أرجو تحقيقه) ولكن الأيام التي تقسو أحياناً صرفتني عن ذلك .. وهاهي الفرصة تسنح في تجربة صادقة مع عشقي لمجلة الدوحة الظليلة ، وهو ما سأحكيه أدناه .. وهنا أجدني أقدم ذلك الطلب الفني القديم في السياق .. قلت إنني سررت بمشاهدة بعض اللوحات الفنية (العربية) على صفحات الدوحة ، وخاصة في غياب المعارض الفنية وتعذر الوصول إليها ، ولست أدري لم استغرقتني تلك اللوحة الآسرة بالذات ، أعني (أنشودة الرحيل) المنشورة بالعدد ١١٥ (شوال ١٤٠٥ ـ يوليو ١٩٨٥ ، ص ٩٣) للفنان سيد سعد الدين .. ها هي الآن أمامي ماثلة في جلال موضوعها الوفي وخطوطها البينة والوانها المضيئة .. لقد عنَّ لي يومئذ أن أكتب اليكم باقتراح مفيد ، فقد تمنيت أن تختار دوحتنا الظليلة في كل عدد لوحة رائعة من لوحات فنانينا العرب ، أو من اللوحات العالمية ، لتقوم بطبعها في حجم مناسب وتوزيعها هدية مع العدد المصاحب ، ولو استدعى الأمر زيادة رمزية في السعر .. لو تحقق ذلك الرجاء ، لكان في بيت كل قارىء عربي ، مع توالي الشهور معرض فني دائم دائم ، يغذي وجدانه ويربي ذوقه ويمنحه المتعة الفنية الأخاذة

نحن في حاجة إلى تغذية هذا الوجدان الظمآن ، بكل متعة فنية رفيعة .. ولست متغلقاً حين أقول إنه من المناسب حقاً أن تكون لوحاتنا

في ظلال الدوحة

يَا دَوْحَةً فَيحَاءَ لِلْفِكْرِ	لِلشعْرِ .. وَالأَلْوَانِ .. وَالنَّثْرِ
كَمْ ذَا تَفَيَّأْتُ الظِّلاَلَ بِهَا	بِالـوَارِفِ المُخْضَلِّ فِي العُمْرِ
بِـ...ـنْ كُلِّ رَائِعَةٍ مُحَلِّقَةٍ	لِمَدىً بَعِيدِ الشَّأْوِ كَالنَّسْرِ
بِمَقَالَةٍ تَسْمُو بِجِدَّتِهَا	وَقَصِيدَةٍ مِنْ أَنْبَلِ الشِّعْرِ
وَبِقِصَّةٍ كَمْ عِشْتُ (حَبْكَتَهَا)	وَكَأَنَّنِي المَعْنِيُّ بِالأَمْرِ
وَبِلَمْحَةٍ (عِلْمِيَّةٍ) كَشَفَتْ	أَسْرَارَ مَا فِي الكَوْنِ مِنْ سِرِّ
وَبِلَوْحَةٍ فَنِّيَّةٍ جَمَعَتْ	أَطْرَافَ مَا فِي (اللَّوْنِ) مِنْ سِحْرِ
أَكْرِمْ بِـ...ـذَاكَ العَقْلِ مُعْتَصِراً	ذَوْبَ الشُّعُورِ وَيَانِعَ الفِكْرِ
وَالشَّاعِرِ الفَنَّانِ فِي أَوْجٍ	وَاللَّوحُ مِنْ عَلْيَائِهِ يَسْرِي
وَالصَّفْحَةِ البَيْضَاءِ فِي أَلَقٍ	وَالرِّيشَةِ المُلْقَاةِ فِي الحِبْرِ !

* * *

إِنِّي أُبَارِكُهَا مُضَمَّخَةً	قَارُورَةً مِنْ أَطْيَبِ العِطْرِ
وَأَرُشُّهَا فِي خَاطِرِي بَرَداً	لِتُعَانِقَ الأَشْوَاقَ فِي صَدْرِي
كَم ذَا سَعَيْتُ وَرَاءَهَا جَزِعاً	مُتَلَهِّفاً مِنْ حُرْقَةِ الصَّبْرِ
ـ عِنْدَ الصُّدُورِ .. جَدِيدُهَا (عَدَدٌ)	مُتَرَقَّبٌ فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ ـ
وَضَمَمْتُهَا وَمَحَضْتُهَا بَصَرِي	وَالسَّمْعَ وَالوِجْدَانَ لِلذِّكْرِ
وَقَرَأْتُهَا وَالحِسُّ يَغْمُرُنِي	مَا بَيْنَ وَقْتِ الظُّهْرِ وَالعَصْرِ[1]
يَا دَوحَةً ضَمَّتْ بِأَيْكَتِهَا	لِلْمُنْشِدِينَ خُلاَصَةَ الطَّيْرِ
وَتَفَتَّحَتْ فِيهَا غُرُوبَتُنَا	بِرَوَائِعِ الإِبْدَاعِ كَالزَّهْرِ
أَفْصَحْتِ عَنْ آفَاقِ جَامِعَةٍ	مُمْتَدَّةٍ فِي الأَرْضِ وَالدَّهْرِ !

* * *

يَا مُلْهِمَ الأَوْرَاقِ أَحْرُفَهَا	وَمُنَضِّدَ الكَلِمَاتِ فِي السَّطْرِ
تِلْكَ الرُّؤَى مِنْ كُلِّ شَارِدَةٍ	سَبَّاحَةٍ فِي لُجَّةِ البَحْرِ

المعلقة على جدران بيوتنا والمنتشرة في الأسواق والمحلات العامة من إبداع هؤلاء الفنانين العرب الذين يمتاحون من بيئتنا الغنية الساحرة . بدلاً من تلك اللوحات السوقية المقلدة المشوهة المعروضة للبيع بالمحلات .

أما قصتي مع هذا العدد الأخير من مجلتي الأثيرة (العدد ١٢٦ رمضان ١٤٠٦ ــ يونيو ١٩٨٦) فهي طريفة وصادقة في آن .. وذلك أننا نعاني حقاً من قلة النسخ الموزعة في طرابلس ، وهو ما يجعلني اترقب صدورها في مطلع كل شهر ، لأمرَّ على محلات بيع الصحف والمكتبات سائلاً متلهفاً ، ويكلفني الأمر شيئاً من المشقة في بعض الأحيان ، وفي هذا الشهر الأخير فاتني الحصول على نسختي المؤملة منه ، فالححت في السؤال دون جدوى .. ثم لم أجد إلا الكتابة اليكم شاكياً لوّاماً ، لارجوكم زيادة عدد النسخ رفقاً بقراء المجلة ، وكثيراً من أكد لي الأخوة باثعو الصحف والمجلات قلة النسخ الموزعة عليهم منها .. ولكن الأمر لم يمض في هذا السياق . لأنني كما اسلفت من القراء العشاق ، فإذا بي أجد قلمي يخط بعض الأبيات . وقد يئست من هذا (العدد) لعلي ألقى فيما أكتب شفاء مما أجد في نفسي من خيبة المسعى ، وتتوالد الأبيات وتتداعى وقد انطلق الشعر بعد احتباس ليعانق أشواقي الى حركة أدبية سخية بالعطاء ، ذلك ما قرأته من آثارها وثمارها التي أينعت خاصة في النصف الأول من هذا القرن ، ولكن المؤسف أنها بدأت تتقلص شيئاً فشيئاً . ولقد شهدنا في طرابلس حركة طيبة على صفحات (الاسبوع الثقافي) وخاصة في سنواته الأولى ، في السنوات الأولى من العقد الماضي ، ولكنها لم تلبث أن توقفت عن الصدور . وهانحن نجد في (جامعة العرب الأدبية) دوحاً ظليلاً ملتف الأغصان وارف الظلال يانع الثمر ، يغذي حاجات القراء الأدبية في سهولة ويسر ، مع الاحتفاظ لمجلات مجامعنا العلمية ومراكز البحوث بما تأخذ به نفسها من تخصص أكاديمي .

وصباح هذا اليوم فاجأني صاحب أحد (الأكشاك) وقد عرف حرصي على (الدوحة) وسؤالي الدائم عنها ، بسؤاله هل حصلت على الدوحة ؟ قلت لا ، فقال لقد وجدت لك نسخة ، وكانت فرحتي بها كبيرة وشكرته صادقاً .

بدأت تصفح العدد من أوله ، فاذا بالصفحة الأولى تفاجئني بخبر وفاة ذلك العالم الفقيد الدكتور عبدالمحسن صالح ، وقد شدنا كثيراً بلمحاته العلمية المثيرة ، وقد كان القصد إليه حقاً وصدقاً بهذا البيت من قصيدتي المرفقة :

وبلمحــــة علمـيــــــة كشفت
أســـرار مـا في الـكـون مـن سـر

ومن صادق الاتفاق ، أنني كنت ــ عند حصولي على هذا العدد الأخير ــ قد بلغت في صياغة القصيدة البيت التالي الذي لم يتكامل آنذاك :

كم كــان في الصفحــات مـن قلم
آثـــارُهُ مــن أطـيـب الـذُّخُـرِ

لقد قرأت نعيه الوفيّ بتأثر بالغ ، وأنا أجد في سطور حياته عطاء متصلاً ، فلم أجد إلا هذه التحية الشعرية التي خصصت بها مجلتي الأثيرة فكان من تمام النبل والوفاء أن تهدي الى روح هذا الفقيد من أسرة الدوحة العلمية .

إن الحديث ذو شجون ، ولكن لابد هنا من تحية ظاهرتين طيبتين في حياتنا الثقافية المعاصرة ، أولهما هذا الاتجاه المحمود ، من بعض دول الخليج العربي ، نحو توظيف أموالها وامكانياتها الفكرية والمادية للمساهمة في بناء الحياة الثقافية .إن تجربة الكويت الرائدة .. ثم تجربة قطر الفتية خير مثل لاحتضان أدوات الفكر ورعايتها .. أما الثانية ، فهي هذا الاجماع الظاهر على أنّ العطاء العربي الفكري لايمكن أن يؤتي أكله الطيب إلا في جامعة فكرية واسعة الآفاق تجمع الشتات وتقدح العقول وتثير الجدل الخلاّق .

وها أنا أرنو الآن الى هذا العنوان الفرعي لمجلة الدوحة (ملتقى الابداع العربي والثقافة الانسانية) .

وفي الختام تحيتي الصادقة أرفعها إلى كل الأخوة العاملين في هذه المجلة الأثيرة لا أستثني منهم أحداً .

المخلص عمار جحيدر
طرابلس ــ ليبيا

جَــاءَتْكَ وَالآفَــاقُ مُنْــطَلَقٌ ..   مَــهْمُــوسَــةً فِــى هَــدْأَةِ السَّحَــرِ
فَــكَسَــوتَـهَــا كَلِمــاً مُــرَصَّعَةً   ثَــــوبــاً مِــنَ الأَصْدَافِ لِلدُّرَرِ
وَسَـــكَبْتَ مِــنَ فَــيضٍ وَمَعْرِفَــةٍ   ذَوباً مِــنَ النُّفُثَــاتِ والفِــكْــرِ
مَــا أَطْــيَبَ الثَّمَــراتِ مِــنْ شَجَــرٍ   قَــدْ أَينَعَتْ كَــالأَنْجُــمِ الزُّهْــرِ !

* * *

الفِــكْــرُ .. فِــى وَثَــبَاتِــهِ قِمَمٌ   شَمَّــاءُ بَيْــنَ السِّــرِّ والْجَــهْــرِ
لاَ تَــدَّعِى بِــالقَــولِ مَعْرِفَــةً   جَــوفَــاءُ مِثْلَ النُّقْــطَــةِ .. الصِّفْرِ !
لَــكِنَّــهَــا فِــى الصِّدْقِ مُعْرِقَــةٌ   شَــتَّانَ بَــيْنَ الثَّوبِ والسَّبْرِ !
قَــدْ تَجْمَــعُ الأَيَّــامُ بَــيْنَــهُمَــا   والحَــقُّ مَــا تَجْلُوهُ بِــالصَّهْــرِ !
المَــاءُ .. فَــوقَ الأَرْضِ مُخْصِبَــةً   لاَ المَــوجُ مُنْزَلِقــاً عَلَى الصَّخْــرِ !

* * *

هَــذَا أَوَانُ الصِّدْقِ فَــانْــهَمِــرِى   يَــاقِمَّــةَ الأَشْــوَاقِ فى النَّــهْــرِ
أَيْــنَ (الْــكِتَــابَــاتُ) الــتى صَنَعَتْ   أَجْــيَــالَــهَــا مِــنْ حَــيثُ لاَ تَــدْرِى
كَمْ كَــانَ فِــى الأَقْلاَمِ مِــنْ وَهَــجٍ   كَــانَتْ بِــهِ إِشْــرَاقَــةَ العَصْــرِ
كَمْ كَــانَ فِــى العَزَمَــاتِ مِــنْ جَلَدٍ   لاَيَنْثَنِــى فِــى الــيُسْــرِ والعُسْــرِ
كَمْ كَــانَ فِــى الصَّفَحَــاتِ مِــنْ قَلَمٍ   آثَــارُهُ مِــنْ أَطْــيَبِ الــذُّخُــرِ
مَــاذَا نَــرَاهُ الــيَومَ مِــنْ عَبَثٍ   وَصَفَاقَــــةٍ فى الشِّعْرِ والنَّثْــــرِ
وَكَــأَنَّ فِــى الصَّفَحَــاتِ مُــتَّسَعاً   لِلْهَــذْيِ والشَّــطَحَــاتِ والــهَــذْرِ
وَصَحَــافَــةُ الايَــامِ مُفْلِسَــةٌ   بِــالغَثِّ تَــدْفَعُهُ إِلى النَّشْــرِ

* * *

هَذَا احْتِرَاقُ الحَرْفِ .. فَاصْطَبِرِى   نَفْسِــى .. عَلَى دُخَّــانِــهِ المُــرِّ !
لاَ زَالَ فِــى سَمْعِي وَفِــى بَصَرِى   تَــيَّــارُ فِــكْــرٍ مُشْــرِقٍ حُــرِّ
لَــمْ يَــتَّخِــذْ إِلاَّ شَــواهِــدَهُ   فِــى الصِّدْقِ عُنْــوَانــاً إِلى الفَجْــرِ !

عمّار جحيدر تاجوراء ــ ليبيا ١٨ يونيه ١٩٨٦ م

(١) لقد عدت مراراً الى بيتي إثر انصراف من العمل ، ومعي عدد جديد من الدوحة لاجلس إليه في تلك السويعات من القيلولة مستظلاً بظلال وارفة من الأدب الندى !



عاصي الرحباني .. عبقرية الموسيقى والتلحين والشعر والمسرح والسينما والعزف والتمثيل



رحيل عاصي الرحباني يعيد كشف سجل: المدرسة الرحبانية



بقلم: جان الكسان

في اليوم الحادي والعشرين من حزيران «يونيو» ١٩٨٦، أنهى الموت رحلة الفنان العربي الكبير، عاصي الرحباني، عميد الأسرة الرحبانية، عن عمر يناهز الثالثة والستين، قضى الأعوام الأربعة عشرة الأخيرة منها في معاناة مضاعفات المرض بعد النزف الدموي الحاد الذي أصاب الجزء الأيسر من دماغه في خريف عام ١٩٧٢، وبذل الجراحون من أجله جهوداً استثنائية لانقاذ حياته، حيث قضى هذه الأعوام الأخيرة وهو يعاني من شلل جزئي، ومن فقد بعض ملكاته الدماغية ..



فيروز ... الانسانة المتفردة صوتا وتمثيلا...

على مدى ثلاثين عاما

■ إنجاز الرحبانيين: ألف عمل فني، بين أغنية وقصيدة ولحن ومقطوعة واسكتش وحوارية وموشح ومسرحية وتمثيلية إذاعية وفيلم سينمائي وعمل تليفزيوني

■ غنى الرحبانيون: مكة.. والقدس.. وعمان.. والشام ولبنان الأخضر.. ولبنان الذي يحترق

وعلى الرغم من أن اسم عاصي الرحباني، يرتبط، تلقائياً، بالاسرة الرحبانية وبأعمالها وعطاءاتها، وعلى الرغم من هذا التلاحم في العطاء، بين الركنين الأساسيين في هذه الأسرة، الأخوين عاصي ومنصور، إلا أن جميع الذين درسوا هذه التجربة المتميزة في دنيا الموسيقى والألحان، كانوا يشهدون لعاصي بالعبقرية الموسيقية المتميزة، وبخاصة في ألحان الطرب الشرقية، بالاضافة الى مواهبه في الشعر، والعزف، والتمثيل، والمسرح، والسينما... ولم يحدث في تاريخ الفن العربي، القديم والحديث، أن أعطى فنان كما أعطى عاصي الرحباني، من خلال هذه الجوقة الرحبانية، إذ أن بيادرها تشتمل على ألف عمل فني بين: أغنية، وقصيدة، ولحن، ومقطوعة، واسكتش، وحوارية، وموشح، ومسرحية، وتمثيلية إذاعية، وفيلم سينمائي وعمل تلفزيوني، ليس بينها عمل واحد هابط..

حوار على مدى ١٥ عاماً

وقد أتاحت لي صداقتي مع الأسرة الرحبانية، ولقاءاتي وحواراتي المتواصلة مع أفرادها على مدى خمس عشرة سنة في مواسم معرض دمشق الدولية، منذ منتصف الستينات وحتى نهاية السبعينات وبداية الثمانينات، أن أدرس تجربتهم الفريدة بشيء من التفصيل، وأن أقف ــ عن كثب ــ على الكثير من كواليس هذه التجربة

كانوا يأتون الى دمشق كل عام وهم يحملون بجدارة عبء عمل فني جديد يخاطب العقول والقلوب معاً، ويعطر أجواء مدينة معرض دمشق بألف لون ونغم..

وكما الطيور الأليفة تأتي على موعد، وكما مواسم الأرض الطيبة اغمار فوق أغمار.. كما العطاء الأصيل يتجدد ولا يهرم، هكذا كانوا يطلون علينا، وهكذا كنا نلتقي فنهم الذي أصبح علامة كبيرة ومتميزة في مسيرة الفن

المدرسة الرحبانية

العربي المعاصر وذلك على مدى أكثر من ثلاثين عاماً، إذا تجاوزنا مرحلة الارهاصات والبدايات التي تمتد الى عشر سنوات.

المسرح الغنائي الشامل وليس الأوبريت

في جلسة حوار مع منصور الرحباني في أواخر شهر آب من عام ١٩٧٧ وفي بهو فندق الشرق بدمشق، احتدم الحوار بينه وبين الناقد الموسيقي فاهيه تمزجيان.. وكان الرحبانيون يقدمون في ذلك الموسم مسرحية «بترا».. وفي أعقاب الحوار قلت لمنصور: يطلق البعض على مسرحكم الاسم التقليدي «الأوبريت».. هل توافق على هذه التسمية؟

قال: لا.. لا أوافق.. مطلقاً.. الأوبريت أصبح فناً متخلفاً وقد ذهب عهده.. فللأوبريت مواصفات معينة تجدها في أي قاموس.. إنها عمل موسيقي لها عقدة خفيفة، ومعالجة خفيفة، ومن خصائصها «الفالسات»، كما أنها تمثل مرحلة سقوط الموسيقى الكلاسيكية.. أما الشائع في العالم وبصورة خاصة في أمريكا والبلاد الانكلوسكسونية، فهو «المسرحية الغنائية»، لأن فيها مقومات مسرحية درامية، كما أن فيها مقومات موسيقية ضمن شروط معينة ومعروفة.. ونحن ننتمي إلى هذا المسرح الغنائي الشامل..

التاريخ ليس حكاية

وقلت لمنصور: لماذا اخترتم بترا وهي مسرحية تاريخية تراجيدية؟

— كل قصة في التاريخ يختارها فنان معاصر أو أديب معاصر، يجب أن تحمل بعضاً من هموم الانسان في هذا العصر، والاسقطت.. وفي المعالجة الدرامية للمسرحية التاريخية يجب أن نحافظ على الأمانة التاريخية، ولكننا نخلق خطوطاً وجواءً هي من جوائنا المعاصرة..

قلت لمنصور: لم أجد أن معالجة بترا كانت درامية؟.

أجاب: هذا صحيح.. فمعالجة هذه المسرحية هي من النوع المأساوي التراجيدي الخالص.. أي أنها ليست درامية ولا ميلودرامية، وفي المسرح التراجيدي لا يظهر الأبطال عواطفهم وتفجعهم في تفجّر نهائي.. حتى اخراج المسرحيات التراجيدية اليونانية القديمة الآن يتجه هذا الاتجاه، من خلال الرأي القائل، إن عدم تفجر العاطفة إلى النهاية مستحسن في المعالجة التراجيدية»..

واستدرك عاصي: صدقني إننا أمضينا ثلاث سنوات ونحن ندرس المصادر التاريخية لهذه المسرحية حتى خرجت على هذا الشكل الذي رضينا عنه ورضي عنه الجمهور والنقاد على السواء..

عاصي.. وما وراء الطبيعة

أردت الدخول إلى التجربة الرحبانية من هذا الحوار مع منصور «الناطق المتمكن باسم الأسرة الرحبانية» لأشير إلى مدى احترام الرحبانيين جمهورهم من خلال الجهد الكبير الذي يبذلونه في اعداد الأعمال الكبيرة والصغيرة.. وحول هذا قال لي عاصي مرة، وأذكر كلامه بالحرف الواحد لأنه جزء من حوار منشور معه:

— «مسرحنا تجسيد للكلمة الهاربة، المستعصية.. الكلمة الضوء.. المحبة.. الموسيقى.. وهذا كله له وضع خاص في مسرحنا.. له استقلالية.. ومن خلال صوت فيروز المتفرد.. ونحن ننوع في مسرحنا لأن الحياة متنوعة.. هناك من يغني عندما يكون حزيناً.. إن الفكرة هي التي تجرنا إلى الكتابة، ومسرحنا مسرح فكرة.. لقطة.. بقعة ضوء»...

في تلك الجلسة، خريف عام ١٩٧١ في قاعة الاستقبال الداخلية بفندق الشرق بدمشق، التفت إلي عاصي فجأة، فقطع حوارنا الفني وسألني:

— ماذا يوجد في «الميتافيزيك».. ما وراء الطبيعة؟

كان سؤالاً غير متوقع..

قلت: لا أدري.. الله أعلم...

قال: هذا الموضوع يشغل تفكيري كثيراً.. لدرجة أنني أصاب أحياناً بالأرق وأنا في هذا التفكير..

يومئذ، أذكر أنني قلت لمنصور ممازحاً:

— إذا ظل عاصي على هذه الحالة من التفكير فقد ينفجر دماغه....

نزف.. في الدماغ

قد يكون هذا الحوار مجرد مصادفة، ولا علاقة له بالجلطة الدماغية التي أصابته بعد عام واحد، أي في اليوم السادس والعشرين من أيلول ١٩٧٢، حيث نقل إلى مستشفى رزق في حي الأشرفية ببيروت...

كان الخبر صاعقاً.. وراح الناس يتابعون النشرات الطبية عن صحة الموسيقي الكبير..

شخص الأطباء الحالة بأنها «نزف دموي في الجزء الأيسر من الدماغ» وليس هناك حل أمام الطب يكفل الابقاء على الاثنين: عاصي الانسان، وعاصي الفنان.. خاصة وأن مركز النطق اجتاحه أكبر قسم من النزف..

كان هم الأطباء أولاً انقاذ عاصي الانسان.. واستطاع الجراح الفرنسي الكبير البروفسير كلود كرو، الذي أجرى له الداخلة الجراحية أن ينقذ حياة الموسيقار الكبير.. وقد صرح الجراح قائلاً آنذاك: «إن عاصي ضحية نبوغه.. وضحية فنه الذي يبتغيه كاملاً، وضحية العمل المتواصل، المتعب، المرهق، الذي يدفعه إليه طموحه، وهو بالتالي ضحية المسؤولية الجسيمة التي يلقيها عليه الناس، المعجبون منهم والنقاد.. ومع هذا فإن دماغه الكبير، وذكاءه الحاد، وقوة تركيز الانتباه لديه، تجعلني كثير التفاؤل».

وتحدى عاصي آثار المرض على مدى أربعة عشر عاماً.. بل تحدى نفسه ووضع بعض

فيلمون وهبة في مسرح الرحبانيين





عاصي الرحباني يراقب ابنه زياد وهو يعزف على البيانو «العربي» قيثارة دمشق الذي اخترعته العائلة الموسيقية وجيهة عبدالحق في بيتها بدمشق .. وخلفهما يبدو منصور الرحباني وجان الكسان ، كاتب المقال ، وشقيقة صاحبة البيت .

الألحان ، لحن قصيدة الافتتاح التقليدية لموسم الرحبانيين في دمشق عام ١٩٧٧ ، وقاد الأوركسترا أثناء غناء فيروز .. وتجالد على نفسه وهو يعيش محنة الانفصال الزوجي عن فيروز في السنوات الأخيرة ، حيث قدم الرحبانيون بعض الأعمال دون فيروز ، وقدمت هي بعض الحفلات مع فرقة خاصة منها حفلتها في مهرجان بصرى الدولي ١٩٨٥ ، وحفلتها الأخيرة في لندن (حزيران ١٩٨٦) .

عاصي .. الموسيقي والشاعر

أدخل عاصي الرحباني إلى الشعر الغنائي العربي الأناقة والسهولة والعذوبة .. ولعله أقدر من يكتب الأغنية التي تتميز بهذه الصفات ..

كما أدخل على الأغنية عناصر جديدة ومنها قصر الأغنية .. فقد كانت مدة الأغنية العربية قبل تجربة عاصي ومنصور ربع ساعة فما فوق ، وأصبحت الأغنية الرحبانية دقائق قليلة تسحب القلب بلا تكرار .

كما أدخل الأغنية المعربة ، ولكن ليس على طريقة صرعة «الفرانكو ـ آراب» .. بالاضافة إلى المواضيع الجديدة ، وخاصة في الحب ، فلم تعد أغنية الحب هي أغنية التفجع العشقي فقط ، بل أصبحت أغنية الأمل في حياة المحبين والمنتجين والمجدين من أبناء الحياة ..

أما عن الفولكلور ، فقد أدخله عاصي على الأغنية الحديثة والعصرية دون أن يأخذه على أنه تراث يجب أن يحفظ حفظاً متحفياً ، بل ينتشر في الحياة ويحفظ من خلالها ، ومن هنا كان ما أدخل عليه من تهذيب وتشذيب .

وكانت الأغنية العربية ، بصورة عامة ، تأتي وتذهب منفردة ، فأصبحت جزءاً من السياق لقصة محببة .. وكان ما ألف وغنى الرحابنة للوطن ولفلسطين ، وللمدن المقدسة ، من أروع ما صدح به مغنون ومنشدون في هذا المجال .. وكلنا يذكر قصائدهم إلى مكة المكرمة ، والقدس ، وعمان ، والشام ، ولبنان الأخضر .. ولبنان الذي يحترق ..

وكان عاصي أول من ابتكر فكرة الأسكتش ، وخاصة في «مسرح الضيعة» ، كما في : هيفا والديب ـ مسبح الستات ـ رابوق ـ كاسر مزراب العين .. والموسم الأزرق ـ وورد وشبابيك .. ثم تطور الاسكتش في «عين الرمانة» .. وبعد ذلك دخل الرحبانيون ميدان المسرح الغنائي بالاضافة إلى ثلاثة أفلام سينمائية هي : بياع الخواتم ـ وبنت الحارس ـ وسفر برلك ..

بيادر الرحبانيين

- عام ١٩٦٦ : (أيام فخر الدين) في مهرجانات بعلبك
- عام ١٩٦٧ : (هالة والملك) .. على مسرح قصر البيكاديلي في بيروت ، وفي مهرجان الأرز ، وفي معرض دمشق الدولي .
- عام ١٩٦٩ : مسرحية «الشخص» في البيكاديلي ومعرض (دمشق) ، ومسرحية «جبال الصوان» في مهرجانات بعلبك ومعرض دمشق .
- ١٩٧٠ : مسرحية «يعيش يعيش» في البيكاديلي
- عام ١٩٧١ : مسرحية «صح النوم» في البيكاديلي ومعرض دمشق ، ومسرحية «ناس .. من ورق» في أمريكا وفي معرض دمشق
- عام ١٩٧٢ : مسرحية ناس من ورق في البيكاديلي ومسرحية «ناطورة المفتاح» في بعلبك ومعرض دمشق .
- عام ١٩٧٣ : مسرحية «المحطة» في دمشق وقصيدة حب في بعلبك
- عام ١٩٧٤ : مسرحية «لولو» في البيكاديلي ومعرض دمشق .
- عام ١٩٧٥ : مسرحية «ميس الريم» في البيكاديلي ومعرض دمشق .
- عام ١٩٧٦ : منوعات غنائية في دمشق وعمان ومصر
- عام ١٩٧٧ : مسرحية «بترا» في عمان ودمشق .
- عام ١٩٧٨ : مسرحية «بترا» في البيكاديلي وكازينو لبنان .
- عام ١٩٨٠ : مسرحية «المؤامرة مستمرة» كازينو لبنان ، وهي أول مسرحية دون بطولة فيروز .. وكانت من بطولة (رونزا) .
- وفي عام ١٩٨٢ قدم الرحبانيون مسرحية «الربيع السابع» .. وفي هذه المسرحية حاول الرحبانيون تفكيك «مسرح النجم الواحد» الذي طبع مع فيروز لمدة طويلة ، لايجاد مناخ آخر يستطيع مسرحهما أن ينطلق بمعادلة وعمق جديدين كل الجد .. واعتمدا على وجوه غنائية شابة مثل : رونزا ، وملحم بركات ، وإلى ممثلين لهم حضور واضح مثل فائق حميصي ، ويوسف شامل ، والوجه الجديد مريام .. بعد أن خسروا فيروز ونصري شمس الدين ..

وقد اختلفت الآراء حول هذا العمل ، وكانت المقارنة واردة دائماً بينه وبين الأعمال السابقة لهم ، إذ أن صوت فيروز وأداءها التمثيلي ، وحضورها المتألق كان جزءاً أساسياً وهاماً من أعمالهم المسرحية الغنائية .. ولنسمع إلى منصور الرحباني يتحدث عن فيروز قائلاً :

ـ فيروز انسانة متفردة ، صوتاً وتمثيلاً .. وهي فنانة مجتهدة بكل ما في الكلمة من معنى .. تحترم فنها ، وتحترم جمهورها ، وتخلص لعملها بصورة مثالية ، ولا تبخل على هذا العمل بكل ما لديها من جهد وطاقة ، ولو كان ذلك على حساب أعصابها وعلى حساب راحتها ، ولا أعتقد أن

المدرسة الرحبانية

هناك أي ضير فني عندما يكون الانسان متعدد المواهب ، وأن يبدع في أكثر من مجال ، كما ابدعت فيروز في الغناء وفي التمثيل .. أما صوتها ، فمن أوسع الأصوات النسائية ، من حيث الطبقات الصوتية ، وهو يزداد حلاوة عاماً بعد آخر ، أما عن مساحته فهو يتنزّه بين ديوانين ونصف من السلم الموسيقي دون استعمال الصوت المستعار ، وهذه ظاهرة صوتية متميزة » .

الركن الأساسي

وعندما نقول أن عاصي كان الركن الأول في المسيرة الرحبانية فليس لأن هذه الدراسة تأتي بمناسبة وفاته ، فقد كان بالفعل صاحب الدور الأول الفاعل في تشخيص الواقع ، والتعبير عنه ، وتقديمه على المسرح الذي كان نوعاً من المعقولية الواقعية الناهضة على منجزات مسارح أخرى تقدمت عنه في الزمن ولكنه عرف كيف يجددها ، وكيف يطورها بنوع من الترابط بين الواقعية ، والتجريد ، والتعقيد ، والبساطة ، والعمل للقضاء على الخرافة والاسطورة باستخدام الخرافة والاسطورة . وتشخيص حقيقة النفس البشرية ومشاعرها في صور عفوية ، ساذجة « أحياناً » وواعية ، أو غائبة ، دون أن يكون وراء بنيانها فهم جدلي عقيم للأمور والأشياء ، وعقل لا ينفصل عن الشعور وقد حاول عاصي مرة أن يفلسف رأيه باختصار في الفن والحياة عندما قال : « إن الرائع ما كان منسجماً ، ومتناسقاً مع الطبيعة والحياة .. حتى في طرح التناقضات » . من هنا كان النزوع في ختام المسرحيات الى نوع من اللمسات الرومانسية :

طـــولت علي غيـــابك
دلـــونـي عليك صحـــابك
بـيـتك طـــال قـدامـي
ومـا بستـهـدي ع بـابك
قـالــولي انك جـايـة
تـركت الـدنـي مضوايـه
مخجـولـة منك ، بـيـتـي
صغيـر .. قـد الحـكـايـة

الهارموني .. وربع الصوت

شيء آخر هام في مسيرة عاصي الراحل ، انه استطاع أن يدخل الهارموني على ربع الصوت في اللحن العربي ، كما في موشح « اذكريني » .. إذ نجد أن نغمة « البيات » فيه قد عولجت بالعزف الهارموني ، وكذلك نغمة « السيكا » في مقطوعة « السندس » .. أي أنه كان أول من كسر القاعدة القديمة التي تقول « إن التواقعات الأجنبية العالمية لا تنطبق على الأنغام العربية » ..

لم يكن مقلداً ، بل مبتكراً .. ادخل الموسيقى في امكانات لا تحد .. ولهذا دخلت موسيقاه بعشرات النماذج إلى أوركسترات عالمية ، وعزفت من جميع إذاعات الدنيا وعلى مسارحها ..

وكانت لديه روح النكتة في الكتابة الكوميدية .. كان مضحكاً في مواقف حادة ، ولكن ضحك العافية والنقد البناء

مع السيرة الذاتية

ولد عاصي حنا الرحباني في بلدة انطلياس ، في لبنان ، عام ١٩٢٣ .. وقد تتلمذ على يدي فريد أبو فاضل .. وتعلم العزف على البزق ، ثم درس في الأكاديمية الموسيقية باشراف الكسي بطرس .. ودخل بعد ذلك سلك الشرطة .. وقد تأثر هو ومنصور في طفولتهما وأول شبابهما بجدتهما التي كانت تحفظ جميع طقوس الفولكلور اللبناني وترتجل الشعر الزجلي مع أنها كانت أمية ..

يقول عاصي عن مرحلة البداية : في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات قدمنا إلى الاذاعة اللبنانية ، ولم نجد أحداً يردد معنا في الكورال .. احضرنا اختنا سلوى ، واسميناها « نجوى » وغنت معنا لفترة قصيرة .. كانوا يتهموننا بأننا أصحاب اللهجة الجبلية لأننا ابتكرنا ممفردات شعرية جديدة ، ابتكرنا لغة فيها الشوق وفيها الصخور وحين سمعنا رئيس مصلحة الاذاعة اللبنانية ، فؤاد قاسم ، وكنا نسجل على الهواء مباشرة ، أعجب بنا ، وكان له الفضل في تكريس لغتنا الشعرية وأغانينا القصيرة التي كانت تتراوح بين دقيقتين وثلاث دقائق ، في حين كانت فيه أقصر أغنية ثلث ساعة ، ومفرداتها من الغزل التقليدي ..

ويستدرك عاصي : كنت لا أزال شرطياً ، وكنت أرتدي البنطال القصير ، واهتم بمتابعتنا صبري الشريف من إذاعة الشرق الأدنى ، ووضع أمامنا امكانات كبيرة من أوركسترا وعازفين وتقنيين ..

اللقاء الأول مع فيروز

ويتابع عاصي : في ذلك الوقت كنت أعزف أيضاً على الكمان مع فرقة الاذاعة اللبنانية ، وكانت فيروز مع فرقة من المعهد الموسيقي الوطني التي يقودها محمد فليفل .. وفي يوم استدعاني حليم الرومي وأسمعني صوت فيروز ـ كان اسمها نهاد حداد ـ فاعجبت به ، وبدأت أعلمها أصول الغناء ، وانضمت بعد ذلك إلى كورس الاذاعة .

وكان للاذاعة السورية فضل كبير علينا ، فذهبنا إلى دمشق وقدمنا هناك أغنيات كثيرة مثل : « سمراء مها » و « عتاب » ، و « يا ساحر العينين » ، كما ظهرت في تمثيلياتنا تلك الفترة شخصيات نالت جماهيرية واسعة مثل « سبع » و « مخول » و « أبو فارس » ، وبدأت بعد ذلك انطلاقتنا الحقيقية حيث كان الفولكلور اللبناني ملهمنا الأول ، ثم قدمنا عدداً من الموشحات مثل : « ارجعي يا ألف ليلة » و « لما بدا يتثنى » و « يا ليل الصب » و « جادك الغيث » .. كما قدمنا بعض ألحان وأغاني سيد درويش مثل « البنت دي قامت



منصور الرحباني :

نحن ننتمي للمسرح الغنائي الشامل ، والتاريخ على المسرح ليس حكاية



نصر شمس الدين يغني في مسرح الرحبانيين

تعجن بالصبحية » و « زوروني كل سنة مرة » .. ولم تقتصر أغاني فيروز على ألحاننا بل لحن لها آخرون ومنهم محمد عبدالوهاب ، وخاصة فيلمون وهبي الذي لحن كثيراً من أغانيها المعروفة .

سعيد عقل كان وراء زواج عاصي وفيروز

ويعتبر الشاعر سعيد عقل ، الذي لحن له الرحبانيون ، وغنت فيروز ـ عدداً من القصائد والمقطوعات الصديق الوفي لكلا الجانبين ، وقد تحدث كثيراً عن ذكرياته معهم ، وقد كان وراء زواج عاصي وفيروز وحول هذا يقول :

ـ نهاد حداد ، أوفيروز ، اعرفها من بيتها المتواضع هناك في حي البطريركية قرب منزل الصديق الشاعر أمين نخلة .. لقد زرتها هناك مع عاصي ، وكان لا يخفي علي حبه لها ، بل كنت أكتشف أن الفتاة التي يكتب لها أغانيه ليست فتاة خيالية ، وإنما تنطبق عليها أوصاف فيروز ، وان فيروز حينما تغني للرجل في أعمال الأخوين رحباني ، لم تكن تغني لرجل مجهول ، بل تغني لعاصي ، ومن خلال هذه القناعة التي اكسبتني إياها معرفتي بالحب والمحبين ، قلت لعاصي ونحن نعود من زيارة فيروز في بيت أبيها :

ـ ماذا تنتظر يا عاصي حتى تتزوجها ؟ لقد رأيت الحب الخجول في عيني فيروز ، ورأيت حبك لها في عينيك .. في أغانيك ، في أصابعك التي تحترق .. تزوجها يا عاصي ..

ولم يطل أخذ عاصي بنصيحتي لأنه كان ينتظر من يدفعه إلى الخطوة الأولى ..

أنا مستشار للشعر وجورج شحادة للمسرح

ويتابع سعيد عقل : أنا وجورج شحادة نضع استشارتنا منذ زمن تحت تصرف عاصي ومنصور ، أنا للشعر وجورج للمسرح ، ويخطئ كل من يعتقد أن في أعمال الأخوين رحباني شيئاً من آثارنا ، لقد أشاعوا الكثير عن هذا الجانب في أعمال الرحبانيين ، وهي إشاعات ظالمة ، فالإبداع هو لعاصي ومنصور ، ونحن للاستشارة فقط . ولعل الأمر الوحيد الذي عصاني فيه عاصي ، ولم يقبل بنصيحتي هو حبه المتفاني لعمله حتى الارهاق .. وكان يقول لي دائماً :

ـ ما العمل يا سعيد إذا كان الناس قد وزنوا آذانهم على ألحاننا ؟

ماذا بعد رحيل عاصي؟

تساءل كثيرون بعد رحيل عاصي الرحباني : ماذا عن مصير المدرسة الرحبانية ؟

قد لا يكون في يدنا أمر الجواب .. ولكن الأسرة الرحبانية أفرزت جوقة رائعة ، فبالإضافة إلى ركنها الأساسي الآخر منصور ، هناك الياس الرحباني ، الموسيقار الكبير المبدع ، وهناك زياد الرحباني ، نجل الفنان الراحل الذي أذهل الناس بمسرحه الانتقادي الاستعراضي الغنائي وبألحانه المتطورة ، وهناك مروان ، ابن منصور ، وأخوه ، وهناك هدى شقيقة فيروز .. وهناك قبل جميع هؤلاء : فيروز ..

إنهم مؤهلون لمتابعة مسيرة الأسرة الرحبانية وتطوير عطاءات المدرسة الرحبانية التي أرسى أسسها عاصي الرحباني ، الفنان العبقري الراحل ، والذي جاء موته ، كما تقول فيروز في إحدى أغانيها :

تاري الأحبة .. غفلة بيروحوا
وما بيعطوا خبر ..

جان الكسان

دمشق

• مصادر الدراسة :

١ ـ حوارات شخصية بين الكاتب والرحبانيين على مدى خمس عشرة سنة ١٩٦٧ ـ ١٩٨٢

٢ ـ مجموعة حوارات ولقاءات صحفية ، أكثر من عشرين ، نشرت على مدى عشر سنوات في مجلة الطليعة ، وجريدة البعث ، ومجلة المرأة العربية وغيرها ..

٣ ـ جريدة الأنوار ـ العدد ٧٤٨٣ تاريخ ٢٩ ـ ١٠ ـ ١٩٨١ ـ مقال : مدرسة الرحابنة من وجهة نظر فكرية ـ نسيب نمر

٤ ـ مجلة « الحوادث » ـ العدد ٨٣٠ ـ تاريخ ٥ ـ ١٠ ـ ١٩٧٢ ـ مقال : الطب يفصل عاصي الانسان عن عاصي الفنان ـ وليد عوض .

٥ ـ جريدة الثورة السورية ـ العدد ٧١١٣ تاريخ ١٦ ـ ٦ ـ ١٩٨٦ ـ مقال : ما مستقبل التجربة الرحبانية ؟ ـ أحمد يوبس

٦ ـ حوار مع منصور الرحباني ـ جريدة البعث ـ تاريخ ٢٨ ـ ٨ ـ ١٩٧٧ .

٧ ـ جريدة الشرق الأوسط ـ العدد ١٦٦٥ تاريخ ٢٠ ـ ٦ ـ ١٩٨٣ ـ مقال : عاصي الرحباني الذي أقعده المرض .

٨ ـ جريدة الثورة السورية ـ العدد ٧١١٣ تاريخ ٢٦ ـ ٦ ـ ١٩٨٦ ـ مقال : « عاصي الرحباني ـ نجاة قصاب حسن .

٩ ـ برنامج البث المباشر من إذاعة دمشق أيام ٢١ و ٢٢ و ٢٣ حزيران ١٩٨٦

١٠ ـ جريدة اللواء ـ العدد ٣٨١٤ تاريخ ١ ـ ١١ ـ ١٩٨١ ـ مقال : الربيع السابع ـ غسان حمد

١١ ـ جريدة البعث ـ العدد ٧٠٩٣ تاريخ ٢٤ ـ ٦ ـ ١٩٨٦ ـ مقال : عاصي الرحباني ، نهر الموسيقى الصاعد في الاتجاه الصعب .

١٢ ـ مجلة « المستقبل » العدد ٤٨٧ تاريخ ٢١ حزيران ١٩٨٦ ـ حديث فيروز : سنرجع حتماً الى حينا ..

١٣ ـ مجلة التلفزيون ـ التلفزيون العربي السوري ـ مساء يوم ٢٦ حزيران ١٩٨٦ وحديث كل من الدكتور صباح قباني والمحامي نجاة قصاب حسن .

١٤ ـ أرشيف العائلة الموسيقية وجيهه عبد الحق عن الرحبانيين .

العلم هو المستقبل




كاميرا البوزيترون أثناء تصويرها لخلايا مخ أحد المرضى

الفيزياء النووية في خدمة الطب النفسي

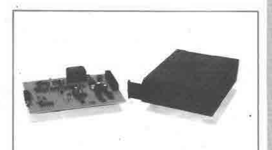
أصبح الطب النفسي اليوم يمتلك أدوات جديدة يستطيع بواسطتها فحص ومراقبة ما يجري داخل خلايا المخ أثناء تأديتها لوظائفها . فمن الأهداف التي يسعى الطب النفسي لتحقيقها بكل الوسائل المتاحة تقييم التغيرات البيولوجية التي تطرأ على خلايا المخ أثناء الاضطراب العقلي أو التي تكون سبباً له . وهي مهمة صعبة ، فحتى وقت قريب لم يكن يمكنا فحص ودراسة العمليات الحيوية في المخ بشكل مباشر ؛ ولكن بفضل التقدم الذي حدث في مجال تطبيقات الفيزياء النووية والكمبيوتر أصبح لدى الأطباء النفسيين أدوات لا تكتفي بالتسجيل التشريحي لمختلف أجزاء المخ فحسب بل أيضاً توضح فسيولوجيتها أي وظيفة كل منها بحيث يمكن أن تكشف عن وجود خلل في هذه الوظيفة .

ومن أهم هذه الأدوات كاميرا البوزيترون والرنين النووي المغناطيسي .

يستطيع الأطباء فهم وتتبع العديد من الظواهر الفسيولوجية للمخ بواسطة كاميرا البوزيترون التي يمكنها تسجيل مسار المواد المشعة التي تنبعث منها عند تحللها جسيمات نووية مثل البوزيترون - وهو جسيم نووي له كتلة الالكترون ولكن شحنته موجبة فعند حقن المريض بمادة مشعة غير ضارة بالانسان مثل الكربون أو الاكسجين المشع يمكن تتبع مسار هذه المادة في خلايا المخ . وبهذه الطريقة يستطيع الأطباء تتبع مسار الأدوية المهدئة في خلايا المخ ، ومراقبة تأثيرها وتحللها وطريقة عملها وتحديد مواضع استقبالها وتركيزها ، وهي تختلف عند السليم عنها عند المريض .. كما يمكن عن طريق هذه الكاميرا المتطورة مراقبة كيفية تكون البروتينات في خلايا المخ المختلفة .

ويأمل الأطباء النفسيون أن يتوصلوا في المستقبل القريب الى طريقة لقياس ارتفاع وانخفاض التركيز ودرجة التنبه بشكل مباشر لاكتشاف الاختلاف بين معالجة مخ المريض بالاكتئاب للمعلومات التي يستقبلها وبين معالجة غير المريض لها .

مراقب إلكتروني لمحرك السيارة



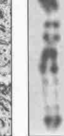
يراقب هذا الصندوق الالكتروني الصغير كل الوظائف الأساسية لمحرك السيارة ويعتمد عمله على مبدأ تقني جديد يؤكد أن عمر المحرك لا يرتبط بعدد الكيلومترات المقطوعة ولكن بعدد الدورات التي قام بها هذا المحرك . ومن ثم فإن هذا المراقب الالكتروني الصغير (١١سم ×١٥,٥ سم ×٤سم) المصنوع من البلاستيك والذي يثبت في تابلوه السيارة يقوم بعد دورات المحرك وتسجيلها في ذاكرته .

وعندما يصل عدد هذه الدورات إلى حد أقصى متعارف عليه يطلق الصندوق اشارة صوتية لتنبيه سائق السيارة الى ضرورة تغيير زيت المحرك ، وتدوم هذه الاشارة ربع ثانية وتتكرر كل عشرين دقيقة . وفي حالة اهمال السائق لهذا التنبيه تصبح الاشارة الصوتية مستمرة .

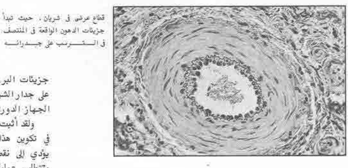
كما يراقب هذا الصندوق الالكتروني عمل المحرك نفسه . فعندما يصل معدل دوران المحرك إلى حده الأقصى وذلك يختلف باختلاف أنواع المحركات فان اشارة صوتية تنبه السائق الى أن محركه يدور بسرعة غير عادية فاذا لم يعر ذلك اهتماماً فإن الانذار الصوتي يصبح مستمراً . ويسجل الصندوق الالكتروني هذا الخلل في ذاكرته .

ويتكرر الشيء نفسه بالنسبة لمراقبة مستوى الزيت ودرجة حرارة الماء وكفاءة تشغيل الفرامل . وتحقق هذه الرقابة الالكترونية توفيراً محسوساً في استهلاك الوقود كما تؤمن حياة أطول للمحرك وتسهل مهمة الصيانة إذ يكفي أن يدخل فني الصيانة بطاقة اختبار في مقدمة الصندوق الالكتروني لتظهر على الفور على اللوحات كل الأعطال أو أوجه الخلل التي اختزنها الصندوق في ذاكرته .

الجينــــة المســؤولة عن أمــراض القــلب


الكروموسوم (١١)



قطاع عرضي في شريان ، حيث تبدأ جزيئات الدهون الواقعة في المنتصف في الـتـرسب على جـدرانــه

أثبت فريق من الأطباء الأمريكيين دور الوراثة في أمراض القلب والجهاز الدوري وذلك باكتشاف الجينة المسئولة عن تصلب الشرايين .

وينتج تصلب الشرايين من ترسب مواد دهنية ـ الكولسترول ـ على الجدار الداخلي للشرايين مما يقلل من مرونتها ويضيق من نصف قطرها ويؤدي هذا التغير الذي يحدث للشرايين ـ خاصة تلك التي تغذي عضلة القلب ـ إلى ارتفاع ضغط الدم وارهاق القلب قبل الأوان ، وكما يهدد بحدوث سكتة قلبية .

ويتم نقل الكولسترول في الدم بواسطة نوعين من الجزيئات البروتينية النوع الأول وهو ذو كثافة كبيرة يمنع ترسيب الكولسترول على الجدران الداخلية للشرايين في حين يقوم النوع الثاني وهو ذو كثافة صغيرة بمساعدة عملية الترسيب . وتكون نسبة هذه الجزيئات عند الشخص الصحيح متساوية بينما تكون نسبة جزيئات البروتين التي تمنع ترسب الدهون على جدار الشرايين عند من يعانون من متاعب الجهاز الدوري قليلة جداً .

ولقد أثبت العلماء أن الجينة المعنية تساهم في تكوين هذا البروتين وأن أي خلل فيها يؤدي إلى نقص في كمية البروتين المتكون . وتتطلب عملية تحديد هذه الجينة من بين عشرات آلاف الجينات التي يتكون منها الحامض النووي للخلية البشرية جهداً وصبراً .

وتكمن أهمية هذا الاكتشاف في أنه يتيح إمكانية تحديد المعرضين للاصابة بأمراض الجهاز الدوري عن طريق رصد هذه الجينة الشاذة بحيث يستطيع الطبيب المعالج اتخاذ التدابير الوقائية المناسبة وتفادي حدوث الاصابة قدر الامكان .

أحدث طريقــة لزرع الأســنان

يقدم أطباء الأسنان السويديون طريقة جديدة وناجحة لزرع الأسنان تعتمد على التحام عظام الفك بجذر السن المزروع والمصنوع من فلز التيتان . وتنقسم هذه الطريقة المبتكرة إلى مرحلتين : المرحلة الأولى الخاصة بتثبيت الجذور الاصطناعية ويمكن تلخيصها في الخطوات التالية .

(١) في غرفة العمليات يقوم الجراح بفتح اللثة من ثلاث جهات تحت تخدير موضعي وأحياناً تخدير كامل ، ثم يجري عملية حفر استكشافية للتأكد من نوعية العظمة ، التي سيزرع فيها الجذر المعدني . ويقوم بعد ذلك بتوسيع الحفرة تدريجياً باستخدام آلات حفر بأحجام متزايدة ، ثم يشكل الجزء العلوي من الحفرة بواسطة مخروط خاص ليعطيها الشكل الذي يتناسب مع رأس الجذر المعدني ورأس العمود أيضاً سيثبت عليه السن فيما بعد .

(٢) وتبدأ عندئذ المرحلة الدقيقة من الحفر وهي لولبة الحفرة أي حفرها بشكل لولبي استعداداً لاستقبال الجذر المصنوع من التيتان والذي يتخذ شكل اللولب أو البرغي .

(٣) ولا يبقى بعد ذلك سوى ادخال البرغي المجوف المصنوع من التيتان والذي يمثل جذر السن في الحفرة المعدة له . ويقوم الجراح بربط الجذر في مكانه بيده ثم بمفتاح خاص للاحكام تثبيته .

ويقفل رأس الجذر المجوف ببرغي صغير ويعيد اللثة إلى ما كانت عليه ويخيطها مرة أخرى بحيث يعزل موضع الجراحة تماماً عن الفم وما به من بكتريا .

وتبدأ عندئذ مرحلة الالتحام العظمي بين الفك والجذر المعدني وهي تستغرق من ثلاثة إلى أربعة شهور بالنسبة للفك السفلي وما بين ٥ ـ ٦ شهور بالنسبة للفك العلوي . بحيث تلتحم عظمة الفك التحاماً كاملاً بالجذر المزروع وتلتصق بلولباته وبتخلل المناطق المفرغة منه .

وعند اكتمال عملية الالتحام تبدأ المرحلة الثانية والتي تتم أيضاً تحت التخدير الموضعي طبقاً للخطوات التالية :

(١) يحـدد الطـبيب موقع البرغي الذي يغطي الجذر ويحدث قطع دائري في اللثة بواسطة آلة خاصة فوق هذا البرغي حتى يمكن نزعه من مكانه ووضع بدل منه العمود الذي سيرتكز عليه السن الاصطناعي .

(٢) وهذا العمود عبارة عن اسطوانة مجوفة من التيتان قاعدتها على شكل مسدس بحيث يندمج في رأس الجذر الذي له نفس الشكل ثم يتم ادخال برغي مركزي في العمود لتثبيته في الجذر وبعد ربط البرغي باحكام يخيط جرح اللثة وتوضع ضمادة خاصة عليه للاسراع بالتئامه .

(٣) وبعد التئام الجرح بأسبوعين يتم تركيب السن أو الضرس الاصطناعي في العمود . فلقد زود كل سن بتجويف اسطواني مثبت فيه برغي يتم بواسطته تثبيت السن في العمود وبذلك يصبح السن مثبتاً باحكام في الفك .

الأم حزينة تنتظر في النافذة وصول إبنها الغائب لقطة من فيلم: ريح السد

الدوحة في مهرجان كان



سينما

بقلم: رءوف توفيق

اضطهاد اليهود مرة أخرى في السينما

وكيف وصل الوباء إلى السينما العربية؟

مرة أخرى .. معاناة اليهود .. وانسانية اليهود .. وبطولة اليهود .. وحق اليهود في الأرض والحياة ..!!

مرة أخرى .. تعود النغمة القديمة، والسخيفة .. لتتردد بشكل صارخ .. وفيما يشبه الحصار المنظم الذي يلتف من حولك، ومن كل جانب!

وتفكر ألف مرة، وتتساءل: ما هي المناسبة لإحياء هذه الدعوة ..؟!

ولماذا تكثف الصهيونية العالمية في هذه الأيام، حملتها لتسخير فن السينما ـ أكثر الفنون جاذبية وانتشاراً ـ للاشادة باليهود؟!

من الخطأ .. التهوين بالأمر .. أو القول بأنه لا جديد في الموضوع .. فمنذ سنوات طويلة ، والصهيونية العالمية تثير نفس الحملة .

ولكن .. ما يحدث خلال هذه الأيام ، شيء مختلف .

وليس هناك إلا أحد احتمالين .. الأول ، أن هذه الخطة الصهيونية تستغل كل الفرص لاشعال الكراهية ضد العرب ، وتصويرهم للعالم بأنهم ارهابيون ، يقاتلون بعضهم ، ويكرهون السلام .. في مقابل اليهود الطيبين ، المكافحين المسالمين دائماً (!!) .

والاحتمال الثاني .. أن اسرائيل تستعد لجولة جديدة في الشرق الأوسط ، لتحقيق الحلم باسرائيل الكبرى .. والمطلوب تهيئة الرأي العام العالمي لتقليل هذا الوضع .. ومباركة الحلم وأصحابه !

وكلا الاحتمالين قائم .. أو الاثنان معاً !!

مهرجان الأفلام اليهودية

أقول كلمتي هذه .. من واقع النشاط الصهيوني في أجهزة الاعلام الغربي (صحافة وتليفزيون) .. والتركيز على مجال السينما ، للوصول إلى قاعدة كبيرة من المشاهدين سواء من خلال دور العرض السينمائي .. أو من خلال شاشات التليفزيون وقنواته المتعددة .

وقد أوضحت في العدد الماضي من « الدوحة » .. كيف دفعت الصهيونية العالمية بكل ثقلها المادي والمعنوي ، للوقوف وراء الارهابي الاسرائيلي « مناحم جولان » وابن عمه « جلوباس » وشركتهما السينمائية « كانون » .. التي جندت ألمع الأسماء من النجوم والمخرجين والكتاب للتعامل معها .. وسيطرت على الأسواق العالمية (الانتاج والتوزيع ودور العرض) في حركة إنقضاض سريعة ، لم يشهد لها مثيل من قبل في صناعة السينما العالمية !

واليوم .. استعرض معكم وجهاً آخر من نشاط الصهيونية العالمية في مجال السينما .. حيث تجري الاستعدادات الآن في باريس لاقامة المهرجان الخامس للأفلام اليهودية .

وقد تحدد تاريخ المهرجان من ١٧ ــ ٣٠ سبتمبر القادم .

وهذا المهرجان يقام سنوياً .. وتحت نفس العنوان « الأفلام اليهودية » في محاولة لتجميع كل الجهود السينمائية في أوربا وأمريكا من داخل اسرائيل والتي تناقش كل ما يتعلق « باليهود » !!

المدرسة الفرنسية تتعاطف مع المدرس اليهودي ضد من يضطهدونه ، وتساعده مع أهالى القرية على الهرب . لقطة من الفيلم الجزائرى « الصورة الأخيرة »

وقد تعودنا أن تكون المهرجانات خاصة بالدول ، كأن يكون هناك مهرجان للأفلام الانجليزية أو الأمريكية أو الايطالية .. أو ..

أو تكون المهرجانات خاصة بنوعيات الأفلام .. كأن يكون هناك مهرجان لأفلام الخيال العلمي .. أو مهرجان لأفلام الرعب .. أو مهرجان لأفلام الرومانسية .. أو ..

أو تكون المهرجانات خاصة بالمدارس السينمائية .. أو بأساليب المخرجين .. أو بتطور الممثلين .. أو ..

ولكن هذه هي السابقة الأولى أن يكون هناك مهرجان متعلق بالدين !

وليس هذا مستغرباً على الصهيونية العالمية .. حيث أنها تتعامل مع « اليهودية » على أنها حركة سياسية واقتصادية واجتماعية .. لها جذورها ، ومعاركها ، وضحاياها .. وأحلامها !!

من هم أعضاء الشرف ؟!

ومهرجان الأفلام اليهودية .. هو أحد أنشطة المهرجان الأم والذي يطلق عليه (المهرجان الدولي للثقافة اليهودية) .. ومقره باريس .. وترعاه الوزيرة الفرنسية « سيمون فيل » . وقائمة أعضاء الشرف تضم عدداً من أساتذة الاجتماع والتاريخ الذين يدينون لاسرائيل .. وهناك أيضاً عدداً من الفنانين منهم : الممثلة آنوك إيميه ــ والمخرجة آريان منوشكين (أبرز افلامها .. فيلم عن حياة موليير) .

أما مهرجان الأفلام اليهودية .. فاللجنة التي تشرف عليه تضم المخرج « كوستا جافراس » (وهو موقف غريب للمخرج الذي قدم فيلم « هانا . ك ») .. وتضم أيضاً المخرجة

اضطهاد اليهود

مرة أخرى في السينما

وكيف وصل الوباء إلى السينما العربية؟

والكاتبة الفرنسية «مرجريت دوراس».. والمخرج «كلود ليلوش».. والممثلة الفرنسية «ايزابيل هوبير».. وغيرهم.

وخطة هذا العام لمهرجان الأفلام اليهودية.. تدور حول اختيارات الأفلام التي تعرضت لطرد اليهود ونفيهم وتشريدهم.. وقد تم بالفعل اختيار أربعين فيلما طويلاً من الانتاج الأوربي والأمريكي والاسرائيلي.

وتقول النشرة الخاصة بالمهرجان.. موضحة اختيار هذا الموضوع بالذات..: (هدفنا أن نعرض الظروف الانسانية لعملية نفي اليهود عن أرضهم).

وقد قسموا عمليات النفي الى قسمين.. حددتهما النشرة كالتالي:

النفي باعتبار الظروف العالمية، والأحداث الاجتماعية والسياسية التي أدت الى إبعادهم عن الوطن الأم..

والنفي باعتبار العالم الداخلي، والانشقاق الشخصي.

وتواصل نشرة المهرجان.. التأكيد بأن عروض تلك الأفلام سوف تعقبها مناقشات يحضرها الكتاب والفلاسفة وأساتذة التاريخ.. وأيضاً حاخامات اليهود.. بالاضافة الى المخرجين والمهتمين بصناعة السينما!

أي أن الصهيونية العالمية ستحول هذا الموضوع الى مظاهرة لاحياء معاناة اليهود.. ومطالبة العالم من جديد بالتكفير عن ذنوبه لما حدث لليهود..!!

لماذا.. اضطهاد اليهود؟

والمثير للدهشة.. أن السينما الصهيونية مازالت حتى هذه اللحظة تستثمر دون كلل.. أحداث اضطهاد اليهود في أيام النازية أثناء الحرب الثانية.. لقد انقضى على هذه الأحداث أكثر من أربعين عاماً.. ولكن ما زالوا يعلقون هذه الأحداث في رقبة العالم أجمع، ويدقون عليها في الحاح عجيب.. وكأنها خطة طويلة المدى لتمرير كل ألاعيب الصهيونية، ومؤامرات اسرائيل وحروبها التوسعية.. فالرد جاهز في كل الحالات: إنهم مساكين.. عانوا الاضطهاد والتشريد، لا تقسوا عليهم، انهم لا يريدون سوى أن يعيشوا على أرضهم في أمان!!

والمطلوب من العالم.. أن يصدقهم وأن يتعاطف معهم...

وقد قدمت السينما الصهيونية مئات الأفلام عن اضطهاد اليهود.. ولكنهم مازالوا يلعبون بنفس الورقة.

ما حدث في مهرجان برلين

في مهرجان برلين هذا العام ــ ٨٦ ــ عرض فيلم مدته تسع ساعات ونصف (!!).. ويتحدث عن اضطهاد اليهود..

مخرج الفيلم «كلود لانزمان» فرنسي، كان يعمل بالصحافة قبل أن يتجه الى السينما.. وكان أول أفلامه عام ٧٣ بعنوان «اسرائيل.. لماذا؟» ومن عنوان الفيلم تتضح هوية هذا المخرج الذي عاد هذا العام ليقدم ذلك الفيلم الطويل، الطويل ــ عرض على جزئين ــ واسم الفيلم «الكارثة»...

والكارثة هي اضطهاد اليهود وتعذيبهم في معسكرات الاعتقال النازي.. ويعتمد الفيلم على شهادة الذين عاصروا تلك الأحداث.

وقد احتفلت الصهيونية العالمية بهذا الفيلم وبمخرجه وسط مظاهرة مبالغ فيها من التكريم والتمجيد. وقال المخرج في حديث صحفي.. انه أراد بفيلمه أن يخلص الألمان من عقدة الذنب التي حملوها منذ الحرب العالمية الثانية!!.

وفي نفس مهرجان برلين ــ وفي المسابقة الرسمية ــ يتقدم المخرج المجري الشهير «ميكلوش يانشو» بفيلم عنوانه «الفجر» ــ انتاج فرنسي اسرائيلي ــ يحكي أيضاً عن اضطهاد اليهود ولكن على أرض فلسطين أمام الاحتلال البريطاني.. (هذا الفيلم اختير للعرض في مهرجان الأفلام اليهودية القادم بباريس).

وكأن مهرجان برلين تحول إلى ساحة مفتوحة للصهيونية العالمية وأفلامها عن اليهود وعذاباتهم وطموحاتهم للسلام.. فهناك الفيلم الاسرائيلي «ابتسامة الحمل» ــ والفيلم الفرنسي «القبلة الحمراء» ــ والفيلم الكندي «آن تريستر» ــ والفيلم المجري «السنوات الاثنتان الأولى من حياتي» ــ والفيلم التسجيلي الأمريكي «كنا محبوبين للغاية».

كل هذه الأفلام تعزف نفس المقطوعة القديمة.. وتفتش في كتب التاريخ عن أي حادثة لاضطهاد اليهود، لتتخذ منها ذريعة لالهاب ظهر العالم بالسياط..

وكأن التاريخ توقف عند اليهود فقط!!

ما حدث في مهرجان «كان»

ويأتي مهرجان كان هذا العام ــ مايو

المدرس اليهودي يحاول الثأر ليهوديته من الذين يضطهدونه. لقطة من فيلم «الصورة الأخيرة» للمخرج الجزائري «الأخضر حامينا».



المذيعة التي اكتشفت أن والدها يهودي في الفيلم الارجنتيني «الفراشة المسكينة».

٨٦ ـ ليقدم داخل المسابقة الرسمية .. الفيلم الأرجنتيني « الفراشة المسكينة » للمخرج « راؤول دي لاتوري » الذي يعرفنا بفيلمه .. فيقول :

« لقد نسينا ما حدث لنا منذ أربعين عاما مضت .. كلفتنا تلك الأحداث كثيراً .. ولهذا فإن تذكر ما حدث ربما يفيدنا للمستقبل » !

وبالطبع ما يقصده المخرج .. هو اضطهاد اليهود !!

والفيلم يبدأ في « بيونس ايرس » ـ اكتوبر ١٩٤٥ .. وأخبار عن سقوط برلين واندحار النازي .. والمظاهرات التي تملأ شوارع بيونس ايرس والتي تقود « بيرون » للحكم في تلك الفترة نتعرف على « الفراشة المسكينة » .. وهي مذيعة في راديو المدينة .. متزوجة ولها بيت وطفلة .. وتفاجأ بخبر وفاة والدها .. فتذهب لالقاء نظرة الوداع .. وتكتشف أن والدها كان يهودياً وقد أخفى هذا عن عيون المتربصين باليهود .. وتشعر في مراسم الجنازة والتي تتم حسب الطقوس اليهودية .. أن هناك الكثير من الحذر والخوف .. وزوجها يحاول ابعادها عن هذا الجو .. ولكنها تصمم لمعرفة الحقيقة .. وهل مات والدها بشكل طبيعي .. أم أنه تعرض للقتل لمجرد أنه يهودي ..

وتسألها طفلتها الصغيرة .. لماذا يضطهدون اليهود ..

ويقودها زميلها الشاب .. اليهودي .. لمشاهدة فيلم عن عمليات تعذيب وقتل اليهود في المعتقلات النازية (نفس المشاهد التي تكررت في مئات الأفلام من قبل) ..

ولأنها فراشة ومسكينة .. فهي لا تقتنع أن يظل اليهودي خائفاً من الذين لا يرغبون في بقائه .. ولهذا فهي تجند نفسها لمواصلة دور أبيها .. تذهب إلى منزله .. ومكتبته .. تقرأ .. وتستقبل أصدقاءه .. ويهددها زوجها بأن تكف عن هذه الاتصالات وإلا فسيضطر لقتل ذلك الشاب اليهودي الذي يقودها لعالم اليهود .. ولكنها لا تستجيب لأي تهديدات .. فقد زاد ايمانها بقضية اليهود ..

5e festival international du
cinéma juif
CHRONIQUE D'EXILS
PARIS 1986 DU 17 AU 30 SEPTEMBRE

غلاف كتاب مهرجان الأفلام اليهودية

وتأتي النهاية .. برصاصة مجهولة تغتالها في الطريق العام .. وهي متجهة الى عملها بالاذاعة .. ونفهم أن هذه الرصاصة أطلقها أعداء اليهود ..

ونستعد لمغادرة قاعة السينما .. فقد انتهى الفيلم ..

ولكن .. لا .. ليس بعد .. فالفراشة المسكينة تظهر لنا على الشاشة وهي تبتسم للمشاهدين وهي تقول « ان الغد سيكون أفضل .. نحن نؤمن بهذا » .

وهكذا .. بمنتهى السذاجة .. يؤكد الفيلم من جديد .. ما يريد أن يقوله أكثر من مرة .. وبكل الوضوح والمباشرة ..

● وفي مهرجان (كان) هذا العام .. تقدم المخرجة الألمانية « مرجريت فون تروتا » فيلماً تشترك به في المسابقة الرسمية ..

والفيلم اسمه « روزا لكمسبورج » وهو عن قصة حياة هذه المرأة البولندية اليهودية .. التي لعبت دوراً بارزاً في بداية هذا القرن بألمانيا من خلال نشاطها في الحزب الاشتراكي وكصحفية ومتحدثة لبقة في الندوات .. وعاشقة لأحد المناضلين .. حتى يصدر الحكم بإعدامها عام ١٩١٨ ..

والفيلم مأخوذ من الخطابات التي كانت ترسلها من السجن لصديقها .. وقد بلغت هذه الخطابات ٢٥٠٠ خطاباً ..

ولا تنسى المخرجة أن تدس بذكاء شديد .. ملامح تلك المرأة اليهودية الأصل .. تعبيراً عن اخلاقيات اليهود .. وتقول المخرجة عنها « لقد أرادت روزا أن تعيش في عالم يمكنها من أن تحب جارها في سلام » ..

وتقول أيضاً عنها .. مستخدمة نفس تعبيرات روزا في خطاباتها « إن الكراهية شيء لم أتعلمه أبداً » !

وقد فازت ممثلة الفيلم « بربارا سكوفا » بجائزة أحسن ممثلة عن دورها ـ مناصفة ـ مع ممثلة أخرى برازيلية .

وهكذا اكتسب فيلم « روزا لكمسبورج » جواز مرور إلى الاسواق العالمية ..

وحتى السينما العربية !!

ومع كل هذه الأفلام ـ المتواصلة ـ عن اليهود .. يبقى التساؤل قائماً ما الذي تسعى إليه الصهيونية العالمية من هذا الالحاح المستمر؟

ويصبح التساؤل أكثر ايلاماً للنفس .. عندما نرى أحد المخرجين العرب ينزلق الى هذا التيار .. دون سبب مقبول أو مفهوم ..



المخرج كلود ليلوش .. عضو الشرف في مهرجان الأفلام اليهودية



الممثلة أنوك ايميه .. المشاركة في الاشراف على مهرجان الثقافة اليهودية

اضطهاد اليهود
مرة أخرى في السينما
وكيف وصل الوباء إلى السينما العربية؟

سوى الحصول على فرصة لعرض الفيلم على الشاشات العالمية ..

وكأن التحدث عن اليهود .. هو التعويذة الأكيدة المفعول لمخاطبة المشاهد الأوربي أو الأمريكي !!

حدث هذا .. مع فيلم «الصورة الأخيرة» للمخرج الجزائري «محمد الأخضر حامينا» .. الذي عرض في المسابقة الرسمية لمهرجان «كان» هذا العام.

وحدث أيضاً .. مع فيلم «ريح السد» للمخرج التونسي «نوري بوزيد» .. والذي عرض في برنامج «نظرة خاصة»، أحد برامج مهرجان «كان» الأساسية ..

وللأسف الشديد .. كان هذان الفيلمان هما الفيلمان العربيان الوحيدان اللذان مثلا السينما العربية في المهرجان ..

مغازلة المخرج الجزائري

يقدم لنا المخرج الجزائري «الأخضر حامينا» فكرة فيلمه .. بقوله : «لقد كان ابني مروان — ١٤ عاماً — هو المحرك لإيقاظ رغبتي في صنع هذا الفيلم .. فهو دائماً ما يحدثني عن مدرسيه ومدرسته ..

«ومنذ عشرين عاماً .. كنت أفكر في هذا الموضوع .. صبي يقع في غرام مدرسة .. ولكن وقتها أحجمت عن التنفيذ ، لاحساسي بسذاجة الفكرة .. ثم تحمست أخيراً لتنفيذها .. وأعتقد أنه بهذا الفيلم الأخير أكون قد انتهيت من ذكرياتي عن عائلتي .. وكان من المفروض أن يكون هذا الفيلم هو أول سلسلة أفلامي .. وليس فيلم رياح الأوراس»

هكذا تحدث «الأخضر حامينا» .. وهكذا يتضح موضوع الفيلم .

الزمن قبل عام ١٩٣٩ .. والمكان قرية جزائرية ..

وأول مشاهد الفيلم مع الأتوبيس المتهالك الذي يربط بين مدن الجزائر .. وبداخل هذا الأتوبيس المزدحم ، نلمح تلك الفرنسية الشابة التي جاءت لتعمل كمدرسة بالقرية ..

ومن ذلك المشهد أيضاً .. نلمح الصبي «مولود» — يلعب الدور ابن المخرج حامينا — وهو يقفز على سلم الأتوبيس ملوحاً بيده للمدرسة الشابة التي تبدو أنيقة ورقيقة وسط ركاب الأتوبيس الفقراء أصحاب الوجوه الكادحة .

وتبدأ منذ تلك اللحظة خيوط الفيلم .. التي تتشكل من عالم تلك المدرسة الفرنسية وزملائها في المدرسة وعالم الصبي وأسرته وزملائه .. وتنشأ تلك العلاقة المبكرة بين الصبي ومدرسته .. محاولات جذب الانتباه والتقرب .. والفضول .. والرغبة .. والحلم المستحيل ..

ويمضي الفيلم متأنياً — وبطيئاً إلى حد كبير — يستعرض نماذج الشخصيات .. والد الصبي ، الطبيب ، الوقور المتدين الذي نراه دائماً يصلي .. شقيق الصبي ، الشاب المراهق المطلوب للتجنيد .. مخبول القرية (يمثل الدور المخرج شخصياً) والذي يتكلم دائماً عن الفقراء والبورجوازية ويعلق في سترته من الداخل صورة لستالين ! .. وهناك أيضاً بعض شخصيات القرية من الفقراء البسطاء .

وفي المقابل شخصيات المدرسة .. التي يمضي عليها المخرج سريعاً (هو كاتب السيناريو) .. ما عدا شخصية المدرس اليهودي الذي يحاول التقرب من المدرسة الفرنسية الجديدة .. وفي نفس الوقت يتعرض لاضطهاد الفرنسيين اتباع المارشال «بيتان» الذين يكرهون اليهود ويطاردونهم .. ويحاول المدرس الهرب منهم .. فيختبئ في بيت المدرسة .. ويساعده أهالي القرية البسطاء على الهرب .. وهو يعلن في تحد للفاشيست أنه يهودي (!!) ويبكيه أهالي القرية ..

وترحل المدرسة الفرنسية عائدة إلى وطنها .. ويودعها أهالي القرية في حزن شديد على فراقها .. بينما الصبي لا يحتمل لحظة وداعها .. فيهرب إلى قمة التل الرملي .. ليراقبها من بعيد بالنظارة المكبرة .. وعيونه مبللة بالدموع .. ونسمع صوته وهو يتذكر تلك الأيام الجميلة ..

والغريب في هذا الفيلم .. ذلك التحدي الذي يعلنه المخرج بصراحة .. وهو يقدم باقة ورد وحب للمستعمر الفرنسي — مهما كانت الشخصية التي اختارها لموضوع فيلمه ..



المدرسة الفرنسية عند وصولها إلى القرية الجزائرية من فيلم «الصورة الأخيرة»



«عماد معلال» الممثل التونسي الموهوب الذي قدمه فيلم «ريح السد» وبجواره صاحب ورشة النجارة

متعاطفة مع الجزائريين .. ورقيقة كنسمة هواء .. إلا أنها في النهاية هي صورة من صور الاستعمار الذي جاء بجنوده ومدرسيه ومناهجه ..

ثم ذلك التعاطف الشديد مع الشخصية اليهودية ـ حتى ولو كانت هذه الشخصية تعاني أصلاً من الاضطهاد ..

كل هذا يرسم أكثر من علامة استفهام حول الفيلم .. الذي تكلف انتاجه عشرين مليون فرنك فرنسي .. وشاركت فيه وزارة الثقافة الفرنسية .

هل يريد المخرج أن يغازل فرنسا ؟ وعلى حساب من ؟

سقطة المخرج التونسي

أما الفيلم التونسي « ريح السد » فهو أول تجربة سينمائية للمخرج « نوري بوزيد » .. وقد وقفت الرقابة في تونس ضد النموذج اليهودي الذي قدمه الفيلم ، واعترضت عليه .. ولكن سمحت بعرضه في المهرجانات خارج تونس ..

وهذا النموذج يثير السؤال بشكل أكثر تحديداً .. لماذا يتعمد المخرج الشاب في أول أعماله السينمائية .. أن يغازل ـ بطريقة فجة ـ اليهود .. ويعتبرهم على حد قول بطل الفيلم « أفضل من أبي » ! !

وفيلم « ريح السد » يبدأ من استعدادات الأسرة التونسية لزواج ابنها الشاب .. (بكل طقوس الاستعدادات لهذه المناسبة) .. ولكن

الممثلة الألمانية « باربرا سكوفا » التي نالت جائزة احسن ممثلة (مناصفة) عن دورها كيهودية مناضلة في الفيلم الألماني « روزا لوكسمبرج »

الشاب يرفض الزواج .. لا لسبب في العروس .. ولكن لعقدة شخصية في حياته .. انه تعرض للاعتداء من صاحب محل النجارة التي يعمل بها .

حدث الاعتداء منذ سنوات وهو صبي .. وما زال يحمل هذا الألم بداخله .. حتى تفجر بشكل حاد عندما بدأت طقوس الزواج .. ولا أحد يفهم ما سر صمته وحزنه وغضبه .. ويقسو عليه الأب بالكلمات وبالضرب أيضاً .. وتصلي له الأم وتحنو عليه وتستنجد بالشعوذة عندما تستنفد كل الوسائل لمعرفة حزنه .

والابن في أزمته هذه .. يلجأ الى بيت الأسرة اليهودية التي كانت تربط بهم صداقة قديمة .. ولم يجد من الأسرة سوى الأب وحيداً بعد أن هاجر أبناؤه للخارج ..

والأب اليهودي يبدو في الفيلم طيباً جداً .. وحنوناً .. يعزف على العود ويغني .. ويقدم الشراب لزائره الشاب .. ويمتص كل ما به من حزن وغضب .. فيقول الشاب « أردت أن أحكي معك ، لم أستطع أن أحكي مع أبي .. فجئت لأحكي معك .. » .

ويسعد الأب اليهودي بهذه الثقة .. ويواصل الغناء والشراب .. ويجد الشاب نفسه في هذا البيت .. ومع هذه الذكريات القديمة الجميلة .. التي يعتبرها من أزهى سنوات عمره !

ما الذي يقصده المخرج بهذه الشخصية ؟ وما هو المبرر أصلاً لتقديمها ؟

إن بناء الفيلم .. وتكوينات المشاهد .. واختيارات الأماكن .. والايقاع السريع .. كلها علامات تؤكد على موهبة المخرج الفنية وحسه السينمائي المتقدم .. ولكن تأتي مغازلة اليهود ، والتحسر على أيامهم الجميلة .. لتحدث شرخاً في مفهوم العمل السينمائي ككل .

لقد تم بيع الفيلم الى فرنسا بمبلغ أربعين ألف دولار ..

ولكن .. هل هذا هو ثمن الفيلم .. أم ثمن مغازلة اليهود .؟!

وإذا كان هذا هو حال السينما العالمية وما وصل إليه بعض المخرجين العرب .. فكيف تكون الصورة من داخل اسرائيل نفسها ؟

هذا ما نحاول الاجابة عليه في العدد القادم .

رءوف توفيق



« روزا لوكسمبرج » تستعد لتنفيذ حكم الاعدام



المخرج الجزائري « محمد الأخضر حامينا »

جمع المأثورات الشفهية

عن مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية بالدوحة صدر مؤخراً للدكتور سعد العبد الله الصويان كتاب جديد يحمل عنوان: جمع المأثورات الشفهية يتكون الكتاب من ثلاثة فصول.. الفصل الأول يهدف الى تعريف القارئ بإحدى الطرق المتبعة في فهرسة تسجيلات المأثور الشعبي، وهو عبارة عن فهرس لأحد الأشرطة المسجلة ضمن مشروع جمع الشعر النبطي من مصادره الشفهية.. وتضمن الفصل الثاني صورة من الطلب المقدم الى مركز البحوث بكلية الآداب بجامعة الملك سعود، لتمويل مشروع جمع الشعر النبطي من مصادره الشفهية وذلك من أجل أن يطلع القارئ على الطلب كنموذج للصيغة التي يقدمها صاحب البحث أو المشروع للجهة الممولة.

وفي الفصل الثالث من الكتاب يتحدث المؤلف عن مذكراته الميدانية التي دونها خلال رحلته الى منطقة حائل بالمملكة العربية السعودية.

المسلمون في السنغال

المسلمون في السنغال معالم الحاضر وآفاق المستقبل هذا عنوان كتاب جديد صدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية في دولة قطر للكاتب السنغالي عبدالقادر محمد سيلا المستشار الثاني لسفارة السنغال بالرياض.

يتكون الكتاب من ستة فصول.. الفصل الأول عن المعطيات الجغرافية والبشرية في السنغال، والفصل الثاني عن طرق انتشار الاسلام في غربي افريقيا، والفصل الثالث عن الاستعمار وانتشار الاسلام في السنغال. والفصل الرابع خصصه المؤلف للحديث عن بعض خصائص الإسلام في السنغال، والفصل الخامس عن حركة الاستغراب في السنغال، وخصص المؤلف الفصل السادس للحديث عن المستقبل المنظور للمنظمات الاسلامية. وختم الكتاب بكلمة عن مستقبل الاسلام في السنغال.

رقصة المطر



ضمن سلسلة أغاني الأطفال صدر للكاتب علام عبدالله بمركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية كتاب جديد بعنوان «رقصة المطر» يحتوي على ثماني قصائد باللهجة العامية الخليجية.. قام بتلحينها الفنان ابراهيم علي.

والكتاب يضم أيضاً شريط كاسيت والنوتة الموسيقية لجميع الأغاني، حتى يستطيع كل طفل أن يتعرف عليها بسهولة ويسر كما يحتوي الكتاب على مجموعة جميلة من الرسومات قام برسمها الفنان القطري القدير محمد علي عبد الله.

ترجمة المؤلفات العربية

الهيئة المصرية العامة للكتاب بدأت في تنفيذ مشروعها الثقافي المهم وهو ترجمة سلسلة من المؤلفات الشعرية والروائية والمسرحية العربية إلى اللغة الانجليزية مع مقدمات ودراسات تتناول الكتاب والشعراء من أصحاب الأعمال المترجمة.. ويشرف على المشروع الثقافي الدكتور سمير سرحان رئيس الهيئة العامة للكتاب.

ومن الترجمات التي صدرت حتى الآن «محاكمة في منتصف الليل» للروائي محمد جلال، «وقائع حارة الزعفراني» للروائي جمال الغيطاني، «يحدث في مصر الآن» للكاتب يوسف القعيد، و مختارات من قصائد ٢٠ شاعراً عربياً معاصراً من جيل صلاح عبدالصبور، ونازك الملائكة، وبدر شاكر السياب.

كتاب العناصر

عن دار ديميتر للنشر صدر ديوان جديد للشاعر التونسي محمد أحمد القابسي بعنوان «كتاب العناصر»، بعد مرور تسع سنوات على صدور ديوانه الأول «البحر في كأس». ويقول الشاعر عن ديوانه الجديد إن مهابة الشاعر لايمكن أن تقاس بالانجازات المطبعية وعدد الدواوين المنشورة، فهم الشاعر الأول هو أن يمتلك بصمته الخاصة ويحقق اضافته النسبية.

والديوان الجديد للشاعر القابسي يشكل اضافة هامة في مسيرته الشعرية.

دليل الباحث القطري



صدر مؤخراً عن إدارة الثقافة والفنون قسم الدراسات والبحوث «دليل الباحث القطري لجمع الفولكلور» تأليف الدكتور مصطفى مبارك، خبير الفولكلور بالإدارة.

يتكون الكتاب من خمسة فصول.. الفصل الأول يتحدث المؤلف فيه عن الوضع الثقافي في دول الخليج العربية، وفي الفصل الثاني يتساءل المؤلف عن ماهية التراث، والتراث في معاجم اللغة العربية وفي الأدب العلمي هو ما ورثناه عن الأجداد.

والفصل الثالث خصصه المؤلف للحديث عن الفولكلور كمصطلح وكمادة، والفصل الرابع عن جمع الفولكلور والفصل الخامس عن أرشيف الفولكلور.

والكتاب من القطع المتوسط وعدد صفحاته ١٠٦ مائة وستة صفحات من الورق العادي.

مواويل ليوسف المالكي



عن قسم الدراسات والبحوث بادارة الثقافة والفنون بوزارة الاعلام القطرية صدر حديثاً ديوان جديد « مواويل » لشاعر المواويل القطري يوسف عبدالله المالكي . ويأتي طباعة هذا الديوان ضمن اهتمامات إدارة الثقافة والفنون القطرية بالشعر والشعراء القطريين ، وسبق للادارة طبع العديد من دواوين الشعر لكبار السن والشعراء القطريين ، ومساعدتهم على تكاليف الطبع وحفظ قصائدهم عن الضياع .

ولد الشاعر يوسف المالكي في مدينة الخور شمال قطر عام ١٩٠٩ وهو من الشعراء المعاصرين الذين يقولون الشعر باللهجة العامية .

منازل في الأفق

ضمن منشورات اتحاد الكتاب العرب في دمشق صدر حديثاً مجموعة شعرية للشاعر الفلسطيني محمد القيسي تحمل عنوان : « منازل في الأفق » وتحتوي المجموعة على مقطوعات نثرية ومكتوبة على التفعيلة ومقطوعات موزونة .

شخصية هيكل في كتاب



محمد حسنين هيكل .. قصة حياته عنوان الكتاب الذي صدر مؤخراً للكاتب عبد الكريم بيروتي ، ويتحدث المؤلف في هذا الكتاب عن شخصية هيكل ، باعتباره صحفياً عربياً بارزاً ولعب دوراً مهما في تاريخ مصر المعاصر وتحدث الكتاب عن فصول مثيرة في حياة هيكل منذ طفولته ومروراً بالقضايا التي واكبت مسيرته الصحفية .

حب تحت المطر

صدر عن مؤسسة أورينتال للنشر في مدريد كتاب « حب تحت المطر » ويتضمن أربع قصائد للشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي باللغتين العربية والانجليزية ، وهي تحمل العناوين الآتية : بكائية إلى شمس حزيران ، عين الشمس ، حب تحت المطر ، أولد وأحترق بحبي .

انطباعات مستفزة

صدر للدكتور يوسف ادريس عن مركز الاهرام للترجمة والنشر كتاب جديد يحمل عنوان « انطباعات مستفزة » يحتوي الكتاب على عدد كبير من كتابات يوسف ادريس التي كانت سبباً في اثارة العديد من الزوابع والمعارك الحادة التي تشهدها الساحة الثقافية في مصر والعالم العربي .

الملاح التائه لعلي محمود طه

صدر حديثاً كتاب يحمل عنوان « عن الملاح التائه » علي محمود طه .. تأليف د . عبد الستار الحلوجي يتناول الكتاب من خلال مقدمة وثلاثة فصول متكاملة حياة الشاعر الكبير علي محمود طه .. فيطرح في الفصل الأول ترجمة ذاتية للشاعر منذ لحظة ميلاده في المنصورة ومراحل تطوره الشعري ، ثم هجرته إلى الخارج ، وما واكب هذا من تغيير جذري في رؤيته الشعرية وأخيراً وفاته عام ١٩٤٩ .

أما الفصل الثاني فهو رؤية نقدية لأعماله الشعرية الكاملة وفي الفصل الثالث يناقش المؤلف علاقة أعمال علي محمود طه بالنقاد .

القمر والتشريح

صدرت حديثاً عن نادي مكة المكرمة الأدبي المجموعة القصصية الثانية للقصاص السعودي الدكتور عبدالله أحمد باقازي تحمل عنوان « القمر والتشريح » ، واشتملت المجموعة على إحدى عشرة قصة تميزت بالأسلوب الشيق السلس ، الخالي من الغموض والتعقيدات .

عن الحرية أتحدث

صدر في القاهرة حديثاً كتاب جديداً للمفكر العربي الدكتور زكي نجيب محمود يحمل عنوان « عن الحرية اتحدث » .

ويقول المؤلف في مقدمة كتابه « في هذا الكتاب محاولات أردنا بها أن تبين ما ينقصنا في سبيل حياة حرة كريمة بمعناها الأكمل » .



بقلم: مريم آل سعد

هجرة.. أم تهجير؟!

«العقول المهاجرة» ، «الأدمغة الهاربة» ، «الامكانات المبدّدة» ..الخ ، أوصاف تطلق على بعض نجباء الأمة العربية في الفيزياء والذرة والكيمياء والرياضيات ..الخ ، هذه العناصر العربية المتوهجة التي اجتذبها الخارج فلبّت نداءه ، وغابت في آفاقه ، وانصهرت في نسيجه ، وأصبحت جزءاً من حضارته وغده .

لو أن أوطانهم حققت المستوى المنشود من الرقي ، وبلغت كفايتها من التطور ، وأقامت المصانع وقواعد التسليح ، ووفرت الآلات والاحتياجات التموينية والسلعية الضرورية والكمالية ، واستغلت موارد طاقتها ووظفتها في مواقعها الصحيحة ، وبالأوجه التي تضاعف ريعها ، وتحفظ حقوقها ، وتستثمر ثرواتها .. لو حدث كل ذلك ، لكان تسرب بعض العقول العربية إلى تلك الدول الأجنبية أخف وقعاً ، وأقل صدمة ، ولكن أن يكون حال العرب على ما هو عليه من التبعية والتخلف ، وأن تستعمر أسواقها من قبل تلك الدول الأجنبية وتهدد انتاجها الوطني بالفشل ، وتنافسها في عقر دارها ، وتدفع اقتصادها إلى التقوض والانهيار ، وأن تكون وهي ــ الغنية بثرواتها وامكاناتها ومقدّراتها وحضارتها ــ مجرد أرض بكر تتلاعب بها الموازين العالمية .. فهنا موضع الاعتراض !

هل تلام «الأدمغة العربية» في تشريقها نحو الغرب ؟ وهل يمكن أن تطلق صفة «الهجرة» على هذه الرحلات ؟ لا .. بل هي «طرد» و «تهجير» دفعوا إليها دفعاً بالوسائل الودية والقهرية وربما الارهابية !

لقد أصبح النبوغ تهمة عربية يطارد من أجلها العلماء في مختبراتهم ، ويساءل فيها المخترعون في أبحاثهم ، وتصادر طلاقة المفكرين في دراساتهم ، وتحوّل وجودهم الى موضع شك وريبة البيروقراطية والنظم المتخلفة ، والأنماط التشويهية التي تحارب التطور وتعتبره ثورة ضد مصالحها ، وإنقلاباً يمس قاعدة بقائها .

عندما يهرب المفكر العربي الى الغرب فإنه يلجأ إلى الصومعة التي تحتوي نبوغه ، وتدرك مدى قيمته ، والتي تهيّ له الحقل الذي يتفرغ فيه لدراساته ، ولا ينشغل عنها بأمور تافهة تنفرد باهتمام من يبقى في الوطن كالمناصب ، والصراع الوظيفي ، والبحث عن النفوذ ، والمكاسب الشخصية ، وركامات هائلة من الروتين والجمود والبلادة والتخلف ، والمعاملات المحنطة بسوء الأداء ، وغياب التخطيط ، وضبابية الرؤية .. الخ ،أو الدخول في معارك خاسرة لاتجيد التعامل مع بقايا المعامل والمختبرات ، التي إما أن يكون الغبار قد علا أجهزتها لعدم وجود العمالة الفنية المختصة لتشغيلها ، وإما أن عدم الصيانة واللا إدراك لقيمتها وما تمثله من بعد علمي سلّمها لبعض الأيدي اللامسئولة التي وأدت ما كان فيها من نبض ، وإما أن عدم اكتمالها أو ضعف الميزانية المخصصة لها ، أو عدم الاقتناع بأهمية تجهيزها أدى إلى تشميعها وتوقيفها عن العمل ، ولو كان الاهتمام بالبحث العلمي وارداً .. فهل سيكون مكانه في آخر قائمة اهتمامات مؤسسات الوطن الكبير ؟

مهما كانت فداحة هذه الهجرة على الجسد العربي المشروخ ، فقد أصبحت الصمام الذي ينفس قليلاً عن التناقضات التي يرزخ تحتها ، ويضج من قسوتها ورعونتها مبدعوه وصانعو مستقبله العلمي المختنق تحت وطأة اللامبالاة الرسمية والشعبية !

لقد أصبحت مكانة المفكر أو المخترع أقل قيمة اجتماعيا واقتصادياً من المستوى الذي ينعم به التاجر أو الحرفي أو الانتهازي أو أي منضو لأية مهنة تدر ربحاً مادياً أكثر ، ينال بها الحظوة والأهمية والسطوة التي يحرم منها أي موهوب علمياً ليواجه ــ بدلاً من ذلك ــ الازدراء الاجتماعي ، وعدم الفهم والاستيعاب للعمل الخلاّق الذي يسعى لتحقيقه ، وليصارع عدم نضج العقلية البيئية التي لا تدرك مدى الاسهام الذي سيضيفه هذا «العالم» إلى حياتها ، ويغير مصيرها ، ويرفعها الى ما يزكي اقتصادها ، ويدعم قوتها بين الأمم الأخرى .. !!

فإذا كان اللااحساس بمحاولات النخبة الصاعدة لتغيير الواقع من حولها هو المسيطر والبارز ، وإذا كانت المنغصات تنبئ بتعقد الأمور وعرقلتها وتأخير همتها .. فمن الأفضل إذن أن تشرع أجنحتها وتفر إلى البعيد .. إلى الملاذ الذي يكفل لها الأمان والامكانيات والدعم المعنوي حتى ولو كان غريباً وموحشاً ورطباً .. فبيت العالم هو مختبره ، ورضاؤه يكون في معانقته لأدواته وأقماعه ، وضمان انهماكه في تركيز وسلام على معالجة نظرياته ومعادلاته .

إذا ضجّ الوطن بهذا العقوق فهو مدعو لولوج معركة التغيير ، والانتصار للأطروحات المستقبلية التي تدحر التخلف والنظرة الضيقة التي تبقي الوطن مكبلاً بالقيود الصدئة لسنوات قادمة جديدة من العبودية والتزعزع والانشطار .

عندما يكون «للعقل العربي» كرامته ، وتكفل له الضمانات التي تحفظ واقعه ومستقبله ، وتعامله كمبدع فاعل له دفقاته المضيئة في كيان أمته ، حينها فقط ستتشبث الحمائم الفزعة بجذورها ، ولن تنطلق أبداً إلى البعيد .

إن وجودهم في تلك الديار الغريبة معناه انحيازهم للابداع الإنساني بمعناه الشامل ، والتفرغ لأبحاثهم واكتشافاتهم ، وقد توفرت لديهم الحوافز المعنوية والمادية والمناخ العلمي والفكري الذي يحفظ نبوغهم ، ويعترف بفضله ويهبه ما يستحقه من رعاية وإجلال .

تبقى أم تهاجر .. ؟ تلك المعادلة التي لن يستطيع أن يحل رموزها سوى الوطن الكبير المشتت ، وهو يلعق جراحه ويرقب بأسى تطاحن الأشقاء مخلفين وراءهم أهم ما يجب الالتفات إليه .. نوابغ الوطن ومستقبله العلمي !